الجوائز العربية

هل هي وعي متأخر .. أم تقليد غربي؟

خاص - مجلة فكر الثقافية :

لم تكـن الجوائـز الأدبيـة وسيلـة جديدة لتكـريم المبدعين، فقد كان الشعراء في العصر الجاهلي يحصلون علـى أعطيـات مـن أغنياء قومـه أو الأشخاص الذين يمتدحهم في شعره، كما هو في سـوق عكاظ أو بالقصائد التي تسمـى بالحوليـات، ولجمالها وروعتهـا سميت بالمعلقـات، وهي تعـد جائـزة معنويـة للشاعـر. وفي العصـور اللاحقـة استمـرت هـذه العـادة حيـث كان الشاعـر يحظـى بالمكافـأة من الخلفاء ومـن الأثرياء بوصفها جائزة عن قصيدة جميلة أو مدح مرض للنفس.

لكن الجوائز بشكلها الجديد وشروطها وتخصصها هي ابتداع غربي، فلم يهتم الوطن العربي ككل بأمر الجوائز إلا عن قريب، فقد كثرت في العقود الأخيرة الجوائز الأدبية والثقافية، وازدحمت ساحة الإبداع بالكثير منها في رغبة حقيقية لتكريم المثقفين والاحتفاء بهم.

وللجائزة بعدان إنسانيان، فهي من جهة رمز معنوي لتقدير المبدع المتميز الذي يتفرد في عمل أدبي جديد، ويضيف إلى المنجز الثقافي إضافة جديدة ومثيرة للدهشة وذات قيمة معرفية مبتكرة، ومن جهة أخرى تساهم الجائزة في تخليد صاحبها، الذي تحمل اسمه، أو ترفع من قيمة مناسبة، أو ذكرى تسمى الجائزة نسبة إليها.

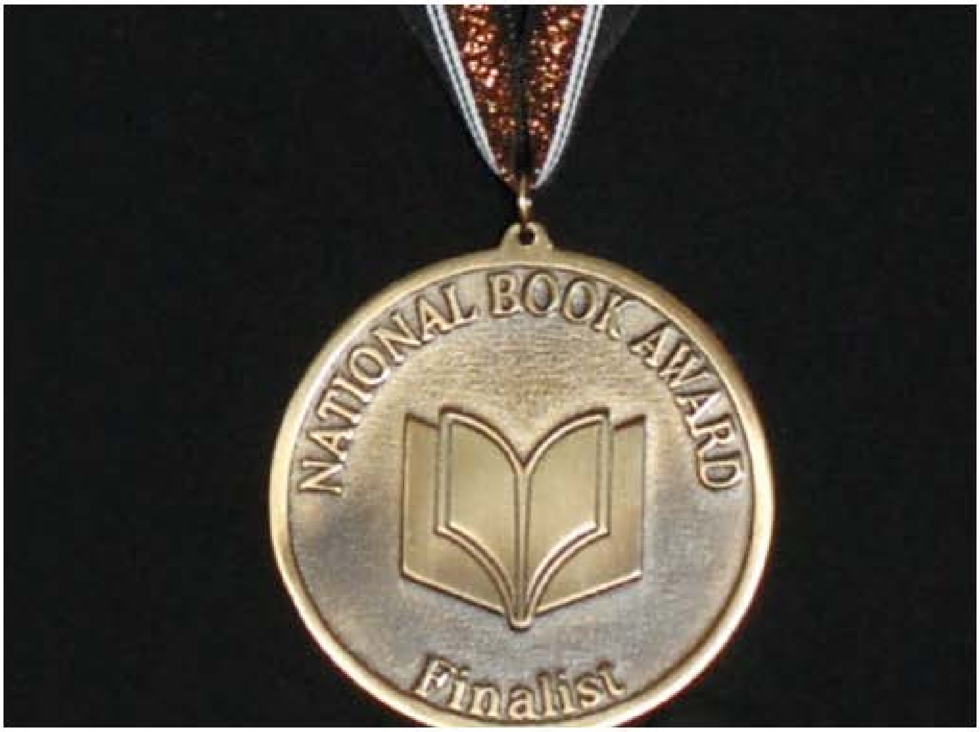
وتعد الجوائز الأدبية في الأوساط الثقافية الغربية عملية اقتصادية من الدرجة الأولى للأطراف الثلاثة المرتبطة بصناعة العمل الفائز، وهم: الناشر، والمؤلف، والقارئ.

أما في مجتمعاتنا العربية فإن القارئ يصاب بالحيرة إزاء العدد الكبير من الإصدارات، وخاصة في مجال الرواية التي تصدرت ساحة الإنتاج الثقافي واهتمام القارئ أكثر من الفنون الإبداعية الأخرى، حتى قيل هذا زمن الرواية التي تربعت في الصدارة، وسحبت من الشعر لقب ديوان العرب، لكن الحيرة سرعان ما تتراجع عند فوز رواية جديدة التي تمنحها الجائزة انتشارًا ورواجًا، فأغلب الجوائز العربية تمنح لكتب منشورة حديثًا، وقلما تمنح الجوائز لمجمل أعمال الكاتب.

وهذا أيضًا كما في الغرب فإن الناشر والكاتب هما المستفيدان اقتصاديا من الجائزة، حيث ترتفع نسبة توزيع الكتاب الفائز، ويحقق الناشر ربحًا جيدًا، وتحقق للمؤلف شهرة وانتشارًا خاصة أن أغلب الفائزين بالجوائز العربية هم بالضرورة من الشباب.

وقد مرّ زمان كانت الجوائز العربية حالة نادرة وغير معروفة، ولم يكن الأمر يتعدى حفلة تكريم يتنادى لها الأدباء، وكانت صورة الجائزة الوحيدة، التي عرفها تاريخ الأدب العربي، منذ القدم، هي أعطيات الخلفاء والولاة، التي لم تكن بغير ثمن مرّ، أحيانًا، كما تجرّعه المتنبي، غير أننا نجد، في المغرب العربي، سبقًا إلى إنشاء الجوائز الأدبية، وربما ما كان ذلك ليحدث لولا أن السلطات الاستعمارية الفرنسية أنشأت ما عُرف بـ"جائزة المغرب الأدبية الكبرى"، عام 1925، التي بقيت حكرًا على الفرنسيين حتى عام 1949، حين فاز بها الأديب المغربي، وأحد رواد الأدب الفرنكوفوني، أحمد الصفريوي. وبعد الاستقلال أعيد إحياء الجائزة، عام 1974، ومن الجدير بالذكر أن القاص المغربي، أحمد بوزوفور، رفضها، عام 2009، احتجاجًا على سياسة الحكومة الثقافية.

منذ أوائل التسعينيات من القرن العشرين ازدحمت الساحة بالجوائز تحت مسميات شتى، حتى صرت تحس أنها محاولة للتكفير عن زمن قحط الجوائز وغياب التكريم. ويتساءل المرء، هل هدف كل هذه الكثرة من الجوائز، وخاصة الروائية منها، تقدير المبدعين، وتكريم جهودهم، واعتراف بدور الأدب في الحياة؟ فلماذا، إذن، تأخر العالم العربي، كثيرًا، حينما نجد أن العديد من الجوائز العالمية بدأت في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، من مثل: نوبل، وبوليتزر، وغونكور وغيرها؟ أم هو وعي متأخر بقيمة الجوائز ودورها،



وخير أن تأتي متأخرة من ألا تأتي أبدًا؟ لا تخلو المسألة من تقليد طبيعي للغرب، بعد هذا الانفتاح على الآداب الأجنبية، من خلال الترجمة، ورؤية مهرجانات الجوائز والمشاركة فيها، ولا شك أن وسائل الاتصال الحديثة، والعولمة، والابتعاث الأكاديمي إلى الجامعات الغربية، والصحافة، لعبت دورًا في انتشار الجوائز العربية، كما أن رغبة بعض الأنظمة، والحكومات، في تحقيق سمعة تصورها راعية للإبداع والمبدعين يدفعها لذلك، ولا ننسى دور المثقفين أنفسهم في الضغط باتجاه إحداث الجوائز وإقرارها، وأحيانًا، ريادة السبق قبل الدولة في تكريس مسألة الجوائز، كما فعلت أحلام مستغانمي في تكريس جائزة مالك حداد للرواية في الجزائر.

أما على صعيد الواقع الحالي للجوائز العربية، فلا تخلو الساحة من كثرة منها، هنا وهناك، ولكن بعضها موسمي: يظهر، ويختفي، وبعضها لا يملك التمويل اللازم للاستمرار فتجدها تعتمد على قناعة الأثرياء بجدواها، أو على قدرة منظميها في الحصول على دعم جهات أو مؤسسات تؤمن برسالة الجائزة، أو بأهمية إبداع من تسمى باسمه، لإبقائه حيًا في الذاكرة، وفي أحيان كثيرة تتبرع هذه الجهة، أو تلك، من باب الخجل من مسؤوليتها الاجتماعية، أو اتقاءً لنقد الأقلام، ولهذا لا تعيش الجائزة سوى سنوات معدودة، وربما أقل، وهناك جوائز تفتقد المنهجية والمعايير الواضحة التي تحكم إجراءات منح الجائزة، وأعني بذلك الخطوات والمعايير التنفيذية الواجب مراعاتها منذ إعلان الجائزة، واستقبال الترشيحات، وحتى تشكيلة لجنة النقاد، أو الحكام، ومراحل التنافس وإعلان الفائزين، لا تخضع قرارات لجان التحكيم إلى التدقيق أو الطعن بها، وفي أحيان كثيرة يكتفي النقاد، في لجان التحكيم، بتقديم فقرة إنشائية عامة يضمنونها ميزة العمل الذي تم اختياره، من غير تقديم أي ورقة نقدية، أو تعليل المنح، بشكل كاف أو نشر حيثياته، أو حتى نشر مداولات النقاش والتصويت على الرواية الفائزة، التي ربما يظهر للملأ حجم اعتبارات الشخصنة، والمجاملة، والهيمنة، من طرف أعضاء على آخرين، وتأثير العلاقات العامة والمصالح المتبادلة.

في أحيان كثيرة تتغافل الهيئات المشرفة، على تنظيم الجوائز، مسألة الاتصال والتواصل مع المشاركين الذين شاركوا في التنافس على نيل الجائزة، مثلما تتغافل عنهم، بعد ذلك، إذا لم يفوزوا، ولا تفكر في بحث دعمهم ماديًا، أو معنويًا، أو دعم نشر أو ترجمة أعمالهم، إذ لا بد أن من بين من تنافسوا على الجائزة من قدموا أعمالاً جيدة تستحق الدعم، برغم عدم فوزها، إن غياب الخبرة المتراكمة، والفساد الإداري، والخلط بين الشخصي، والمهني، ووقوع القائمين على الجائزة تحت ضغوطات الصداقة والاعتبارات الذاتية والمصلحية الأخرى، تجعل من بعض الجوائز عالمًا من الغموض.

ومن الجوائز المهمة: الجائزة العالمية للرواية العربية، المعروفة باسم البوكر العربية، وتعدُّ الجائزة ثمرة تعاون مشترك بين المؤسسة التي تمنح جوائز البوكر، في بريطانيا، بين ومؤسسة الإمارات، في أبو ظبي، وقد تم إعلانها في بداية عام 2007، وتبلغ مكافآتها المالية عشرة آلاف دولار لكل رواية تصل قائمة الترشحات النهائية، وخمسين ألف دولار للفائز، وتغير إدارة الجائزة لجان التحكيم في كل عام، وتتبع المعايير ذاتها المتّبعة في إجراءات الترشيح والاختيار كما في النسخة الإنجليزية، وقد اعتادت الساحة العربية على كثير من اللغط والتشكيك وحملات المقاطعة، التي ترافق مجريات المسابقة، عبر مراحلها الثلاث، إلى حين إعلان الرواية الفائزة، ولكن اللافت، في عام 2010، كان الخلافات بين أعضاء لجنة التحكيم، بصورة علنية، في الصحافة، ووسائل الإعلام، ما كاد يعصف بالجائزة، ويعطل مسيرتها، بعد انسحاب بعض أعضائها، واتهام البعض الآخر بأن لهم يدًا في صفقة تهدف إلى فوز رواية ما.

تقول الكاتبة فاطمة المحسن: سألتُ إحدى المشاركات في لجنة جائزة البوكر العربية لسنة سابقة: كيف قرأتم الروايات المرشحة، وهل بمقدوري مثلاً أن أقتنع أن أديبًا لديه من الوقت والمزاج كي يقرأ ثلاثين رواية وفي وقت لا يتجاوز الثلاثة أشهر، وأعرف بين المشاركين من لا يطيق قراءة رواية واحدة لغيره، فكيف استطعتم غربلة هذه الأعداد الكبيرة من الروايات؟

قالت بالطبع لم نُتعب أنفسنا، خذيني مثلاً، أنا ابدأ بالرواية من الصفحات الأولى، فأدرك أنها تستحق المتابعة أم لا، بل في أحيان من السطور الأولى، فألتقي منها حسب ذائقتي وأقرر حينها الاستمرار، ولن تكون حصيلة ما أقرأ سوى روايتين أو ثلاث، بعدها أمرر الخبر إلى الزملاء عبر الإنترنت، وأنصحهم بالرواية التي قرأت وغيري يفعل مثل ما أفعل، وهكذا نجد أنفسنا على اتفاق في النهاية حول القائمة القصيرة ثم الرواية الفائزة.

ولم تتح لي فرصة سؤال أحد المشاركين في المسابقات الأخرى، عن كيفية قراءة البحوث المقدمة مثلاً إلى لجان التحكيم، ولكنني أجزم أن الطريقة التي تحدثت عنها الصديقة المشاركة في جائزة الرواية، تشبه تلك التي تتعلق بالبحوث، فالعرب يملكون من قوة السبر والعلم بالغيب ما يخولهم إدراك العمل الجيد من الرديء بمجرد قراءة السطور الأولى.

أدت حمى جائزة البوكر، بالإضافة إلى الجوائز الروائية الأخرى، إلى طفرة ملحوظة في إنتاج الروايات وتدفق نشرها، حيث صار الروائيون يعكفون على تأليف روايات بغية المشاركة في الجائزة، بالمقام الأول، فصرت تلاحظ أن كثيرًا من الروائيين العرب، الذين اعتادوا تأليف الروايات، ونشرها، على مدى سنوات متباعدة، يستعجلون إنتاج رواية، كل سنة، بل صرنا نسمع قصصًا عن كتاب لا يراجعون رواياتهم، من أخطاء إملائية أو نحوية أو طباعية أو معرفية أو أسلوبية، ووصل الأمر إلى تغيّر أسماء الشخصيات في أثناء الرواية، ونقل عن أحدهم قوله: "في الوقت الذي أنفق فيه روايتي أكون قد ألفت رواية أخرى".

نشأة الجوائز

الأدبية والثقافية.. عالميًا وعربيًا

خاص - مجلة فكر الثقافية :

يوجد في دول العالم المختلفة، حاليًا، ما يزيد على 500 جائزة أدبية معروفة، ذات تاريخ متواصل، ومخصصة لمجالات الإبداع الأدبي: كالرواية، والقصة القصيرة، والشعر، والنص المسرحي، والنقد، وأدب الطفل، غير أن الجانب الأكبر منها مخصص للسرد. ويشير هذا العدد فقط إلى الجوائز ذات النهج المؤسسي المعروفة، أو ذات المكانة الأدبية المرموقة أو التاريخ العريق أو الشهرة الدولية أو الإقليمية أو الوطنية، أو ذات القيمة الرمزية المهمة أو المكافأة المالية العالية. وتتنوع الجوائز، تبعًا لذلك، بحسب موطنها ولغتها ومعاييرها وقيمتها، بدءًا من جائزة نوبل في الآداب، 1901، وهي الأشهر والأضخم، التي تبلغ مكافأتها ما يزيد على مليون يورو، إلى جائزة أكوتاغاوا اليابانية، التي أحدثت في عام 1935، في أقصى الشرق، إلى الميداليات الذهبية للأكاديمية الأمريكية للفنون والآداب، والتي تأسست في عام 1915، في أقصى الغرب.

يبلغ عدد الجوائز العالمية المفتوحة أمام جميع الجنسيات اثنتي عشرة جائزة، ومن أشهرها: نوبل، وهانز كريستيان أندرسن لأدب الطفل، وهناك جائزة القدس، التي أحدثت في عام 1963، وجائزة فرانز كافكا، في عام 2001 وآخر من حصل على جائزة القدس، في عام 2009، هو الروائي الياباني هاروكي موراكامي، كما حصل عليها، من قبل، عدد من أشهر الروائيين، مثل: خورخي بورخيس، وسيمون دو بوفوار، ويوجين إيونسكو، وجي. إم. كوتزي، وماريو فارغاس يوسا.

ومن الجوائز المشهورة والمرموقة، عالميًا، جائزة أمير أستورياس الإسبانية، التي تمنح سنويًا في حقول الفنون، والإنسانيات، والعلوم، والتعاون الدولي، والآداب، والعلوم الاجتماعية والرياضة، تأسست الجائزة في عام 1980، وقد حصل عليها في مجال الآداب، الروائي اللبناني الفرانكوفوني أمين معلوف.

جوائز الولايات المتحدة:

إن أكثر دولة يوجد بها حاليًا جوائز أدبية هي الولايات المتحدة، التي يصل عدد جوائزها المؤسسية المعروفة، والممنوحة في المجالات الإبداعية والنقدية، إلى حوالي 70 جائزة، وهناك نيوزيلندا، تلك الدولة الصغيرة، التي يوجد لديها 50 جائزة مختلفة، ثم اليابان، بينما تُمنح، في المملكة المتحدة، حوالي خمس وعشرين جائزة، ولا تشمل هذه الأعدادُ الجوائزَ ذات الصفة العالمية، المتاحة المشاركةُ فيها لكل من يكتب أدبًا بلغة البلد الذي يمنح الجائزة.



يوجد في الولايات المتحدة ست وعشرون جائزة مكرسة للأدب الروائي، مما يعكس الاهتمام والاحتفاء بالرواية والروائيين، وأغلب الأدباء الأمريكيين المعروفين على مستوى العالم هم من كتاب الرواية، ومن أشهر تلك الجوائز ذات السمعة العالمية جائزة بوليتزر للسرد المستمرة منذ العام 1918، وهي إحدى جوائز بوليتزر في مجالات الصحافة، والأدب، والتأليف الموسيقي، تبلغ قيمة الجائزة عشرة آلاف دولار، وتمنح لأحسن رواية أمريكية، ومن طريف ما يذكر أن لجنة التحكيم أوصت في عام 1941 بمنح الجائزة إلى ارنست همنجواي على روايته "لمن تقرع الأجراس"، ووافق مجلس أمناء الجائزة على التوصية، إلا أن رئيس جامعة كولومبيا آنذاك أقنع اللجنة بعدم منحها له لأنه اعتبر أن الرواية عدائية، ومن ثم لم

تمنح الجائزة تلك السنة.

هناك جائزة كتاب أنسفيلد وولف، التي تأسست في عام 1935، وتمنح في مجالات عدة، من بينها الرواية. وقد سبق أن فاز بها، في عام 2008، الروائي جنوت دياز، من الدومنيكان، والروائي الأمريكي، من أصل باكستاني، محسن حامد، والروائي وليم ميلفن كيلي. وهناك جائزة جانيت هيدنفر كافكا للسرد النسوي الأمريكي، منذ عام 1975، التي تماثل جائزة أورانج البريطانية للرواية النسوية، التي تمنح لأحسن رواية كتبتها امرأة بالإنجليزية.

ومن الجوائز المهمة جائزة الكتاب الوطني، التي تهدف إلى دعم أفضل نتاج الأدب الأمريكي، ونشره، تأسست عام 1950، وقيمتها 10 آلاف دولار، وفاز بها عدد من الروائيين الأمريكيين المشهورين، من مثل: وليم فوكنر، وبيرنارد مالمود، وفيليب روث، وجون أبدايك، وجويس كارول أوتيس، وسوزان سونتاغ، وهناك جائزة وليم فوكنر للرواية، التي تأسست عام 1980، وتبلغ قيمتها 15 ألف دولار للفائز الأول، 5000 دولار للفائز الثاني، ومن المعروف أن وليم فوكنر تبرع بقيمة جائزة نوبل، التي فاز بها عام 1949، لتشجيع الروائيين الجدد.

الجوائز السويدية:

منذ أن قدمت الجائزة عام 1901، هي الجائزة الأشهر عالميًا، وهي ما تزال حتى يومنا هذا تداعب أحلام وطموحات كل عالم أو باحث في مجاله، ولكن طبقًا لوصية "صاحب الديناميت" فإن الجائزة لا تعطى إلا الإنجاز في ستة مجالات فقط (الطب، الكيمياء، الفيزياء، الأدب، الاقتصاد والسلام) إذ قام السويدي نوبل بالمصادقة على الجائزة السنوية في وصيته التي وقّعها في (النادي السويدي – النرويجي) في 27 تشرين الثاني/نوفمبر 1895.

أُقيم أوّل احتفال لتقديم جائزة نوبل في الآداب، الفيزياء، الكيمياء، الطب في الأكاديمية الملكية الموسيقية في مدينة ستوكهولم السويدية سنة 1901، وابتداءً من سنة 1902، قام الملك بنفسه بتسليم جائزة نوبل للأشخاص الحائزين عليها، تردّد الملك "أوسكار" الثاني، ملك السويد في بداية الأمر في تسليم جائزة وطنية لغير السويديين، ولكنه تقبّل الوضع فيما بعد لإدراكه لكمية الدعاية العالمية التي ستجنيها السويد.

الجائزة هي عبارة عن شهادة وميدالية ذهبية ومبلغ مالي، منذ سنة 1901 تحددت الجائزة المالية بخمسة ملايين كرونة (ما يعادل مليون دولار)، وإذا حصل أكثر من شخص على الجائزة في نفس المجال يتم تقسيم المبلغ عليهم، ولا يشترط أن يقسم بالتساوي.



الجوائز الإيطالية:

ومن أشهر الجوائز العالمية في إيطاليا جائزة مونديللو بريمو، التي تمنحها مدينة باليرمو، في صقلية، التي تأسست في عام 1975، وقد حصل عليها الروائي الليبي إبراهيم الكوني عن مجموعته "وطن الرؤى السماوية"، حصل على هذه الجائزة عدد من كبار الروائيين في العالم، من مثل: غونتر غراس، ودوريس ليسنغ، وخوسيه ساراماغو، وجون كويتزي، وألبرتو مورافيا، وميلان كونديرا، وإيتالو كالفينو.

وهناك جائزة غرينزاني كافور الإيطالية، التي تأسست في عام 1982، في مدينة تورينو، وهي ذات طبيعة عمومية، حيث يشارك في قراءة الأعمال، والحكم عليها، عدد كبير من النقاد، والكتاب، والصحفيين، والشخصيات الأدبية الإيطالية، ويلعب الطلاب دورًا بارزًا، حيث تتشكل سبع عشرة لجنة من الطلبة في إيطاليا كلها، تمنح الجائزة في سبعة ميادين تخص الأدب الإيطالي، وخاصة الرواية، بالإضافة إلى جائزتها العالمية، ومن الأدباء الذين فازوا بها غونتر غراس وفي. إس. نايبول، ودوريس ليسنغ، والتركي أورهان باموك، والنيجري وول سوينكا، والشاعر العربي أدونيس (فاز بها في العام 2008).

أما أقدم هذه الجوائز فهي باجوتا التي تأسست عام 1927م وقيمتها 15 ألف ليرة، وهو مبلغ زهيد لكنه رمزي كما هو واضح، وقد حصلت عليها الأديبة السامورانتية عن رواية تاريخ في عام 1984م.

أما جائزة فياريجو فقد أنشئت عام 1929م وهي عبارة عن ثلاث جوائز، كل منها قيمتها 5 ملايين ليرة.

الجوائز الفرنسية:

في الأدب الفرنسي هناك جائزة غونكور Goncourt، التي أُشهرت منذ عام 1903، جاء إنشاء الجائزة ردًّا على عدم قبول الأكاديمية الفرنسية أدباء الاتجاه الواقعي، مثل أونوريه دي بلزاك، وجوستاف فلوبير، وإميل زولا.





ومن بعدها بسنة ظهرت الجائزة النسوية المشهورة، وهي فيمينا Femina، وقد فاز بجائزة غونكور، من الأدباء العرب الفرانكوفونيين، أمين معلوف، والطاهر بن جلون، ومن الفضائح التي ارتبطت بهذه الجائزة حصول الروائي رومان غراي، عليها، مرتين: الأولى عام 1956، عن روايته "جذور السماء"، والثانية كانت عندما فاز بها باسم مستعار (إميل آجار)، في عام 1975، عن روايته "الحياة أمامنا".

الجوائز الأدبية الإسبانية:

أما في الأدب الإسباني فإن أشهر جائزة هي جائزة ميجيل دو ثربانتيس، التي أنشئت عام 1976، لتكريم المنجز الإبداعي بأكمله، لكاتب يكتب بالإسبانية، قيمة الجائزة نفسها 125 ألف يورو، وتمنح لأي من مواطني الدول الناطقة بالإسبانية، ومنذ تأسيسها منحت لمواطني تسع دول، هي: كوبا، الأرجنتين، الأوروغواي، تشيلي، والبارغواي، المكسيك، كولومبيا، البيرو، بالإضافة إلى إسبانيا ذاتها، ومن أشهر الروائيين الذين فازوا بها الأرجنتيني خورخي بورخيس، والمكسيكي أكتافيو باث، والبيرو في ماريو فارغاس يوسا.



أما من حيث القيمة المادية، فإن أغلى جائزة في العالم، من بعد جائزة نوبل، هي جائزة بريمو بالنيتا الإسبانية، التي تقدمها دار النشر بالنيتا منذ عام 1952، وتمنح لرواية مكتوبة بالإسبانية، وتصل قيمتها إلى 601 ألف يورو، ومنذ عام 1974 صار الكاتب الذي يحل في المركز الثاني يحصل على جائزة قيمتها 150 ألف يورو.

الجوائز الأدبية في ألمانيا:

في ألمانيا مجموعة كبيرة من الجوائز: لعل أكبرها



من ناحية الشهرة والقيمة جائزة تحمل اسم الأديب والمسرحي جورج بوجنر وقيمتها المالية 20 ألف مارك.

أما أعلى الجوائز قيمة أدبية فهي تحمل اسم الروائي هاينريش هاينيه وتمنح مرتين كل عام، تأسست في 1951 وقيمتها في كل مرة 25 ألف مارك، وتتباين الجوائز الأدبية من الناحية الجغرافية، فهناك جوائز تمنح في المقاطعات، وأخرى لتشجيع الأدباء الشبان، وهناك جائزة تحمل اسم الشاعر راينر ماريا ريلكه، تمنح في مدينة فرانكفورت لشاعر متميز عن ديوان جديد نشره في نفس السنة.

الجوائز الأدبية في بريطانيا:

الجوائز الأدبية في بريطانيا تبلغ نحو 62 جائزة تهتم بجميع أنواع الأدب وكذلك جوائز للكتب، من أشهر هذه الجوائز، جائزة مان بوكر التي تأسست في عام 1968، وأول جائزة منحت كان في العام 1969، وتمنح الجائزة سنويًا لأفضل رواية كتب باللغة الإنجليزية، ونشرت في المملكة المتحدة أو من دول الكومنولث أو من جمهورية أيرلندا.



كانت الجائزة تمنح الفائز 21.000 جنيه إسترليني ثم ارتفعت قيمة الجائزة في عام 2002 إلى 50000 جنيه إسترليني تحت رعاية مجموعة مان، مما يجعلها واحدة من أغنى الجوائز الأدبية العالمية .

لجائزة الـ"بوكر" جائزةٌ لها تأثير على الكاتب الذي يفوز بها، إن كان معنويًا (ترجمات وشهرة عالمية)، أو ماديًا (قيمة الجائزة وانعكاسها على مبيعات الكتب).

تفرعت من الـ"بوكر" جائزتان عالميتان للرواية هما: جائزة بوكر الروسية التي تأسست عام 1992، وجائزة كاين للأدب الأفريقي عام 2000.

في نيسان/ أبريل 2007 تم إطلاق النسخة العربية من الجائزة بعد تعاون وتنسيق بين "مؤسسة بوكر" و"مؤسسة الإمارات" و"معهد وايدنفيلد للحوار الإستراتيجي".

وقد سبق أن فازت بها الروائية الجنوب أفريقية، والحائزة على جائزة نوبل للأدب نادين غورديمر، والروائي وليم غولدنغ، والروائي سلمان رشدي، وآخر من فاز بها الأديبة البريطانية هيلاري مانتل، في العام الفائت، عن روايتها "قاعة الذئب".

جوائز كوستا للكتاب هي مجموعة من الجوائز الأدبية السنوية تهتم بالكتب المنشورة باللغة الإنجليزية ومقرها في بريطانيا وأيرلندا ، تم تأسيس الجائزة في 1971 .

الجوائز العربية:

جوائز المملكة العربية السعودية:

جائزة الملك فيصل العالمية: تُعد جائزة الملك فيصل العالمية من أقوى الجوائز العالمية، أنشأتها مؤسسة الملك فيصل الخيرية عام 1397هـ/ 1977م، وسميت باسم الملك فيصل بن عبدالعزيز آل سعود، وتمنح للعلماء الذين خدموا في مجالات: الإسلام والدراسات الإسلامية والأدب العربي والطب والعلوم.

في عام 1397 هـ/ 1977م أعلن الأمير خالد الفيصل مدير عام مؤسسة الملك فيصل الخيرية أن مجلس أمناء مؤسسة الملك فيصل الخيرية قرر إنشاء جائزة عالمية باسم الملك فيصل، تُمنح في ثلاثة مجالات هي خدمة الإسلام، والدراسات الإسلامية، والأدب والدراسات اللغوية، وقد منحت الجائزة أول مرة عام 1399 هـ/ 1979م، ثم أضيفت إليها جائزتان بعد ذلك في مجال الطب عام 1402 هـ/ 1981م، ومنحت في العام التالي، وفي مجال العلوم عام 1403 هـ/ 1982م، ومنحت في عام 1404 هـ / 1984م، منحت الجائزة منذ إنشائها سنة 1399هـ/1979م إلى 229 فائزاً من 40 دولة، ولما تتميز به من دقة وأمانة في اختيار الفائزين اكتسبت سمعة عالمية طيبة، ومكانة مرموقة بين كبريات الجوائز في العالم.

تتكون الجائزة في كل فرع من فروعها الخمسة من: براءة من الورق الفاخر مكتوبة بالخط العربي بتوقيع رئيس هيئة الجائزة صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل بن عبدالعزيز، داخل ملف من الجلد الفاخر، تحمل اسم الفائز وملخصًا للأعمال التي أهّلته لنيل الجائزة.

ميدالية ذهبية عيار 24 قيراطًا، وزن 200 غرام، يحمل وجهها الأول صورة الملك فيصل وفرع الجائزة باللغة العربية، ويحمل الوجه الثاني شعار الجائزة وفرعها باللغة الإنجليزية.

شيك بمبلغ 750.000 ريال سعودي (ما يعادل 200.000 دولار أمريكي) ويوزّع هذا المبلغ بالتساوي بين الفائزين إذا كانوا أكثر من واحد.

جائزة الملك عبد الله بن عبدالعزيز العالمية للترجمة، أنشئت الجائزة في التاسع من شوال لعام 1427هـ الموافق 31 تشرين الأول/أكتوبر، 2006م، ومقرها مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض وهي جائزة تقديرية عالمية تمنح سنويًا للأعمال المتميزة، والجهود البارزة في مجال الترجمة.

مكونات الجائزة:

1 - شهادة تقديرية تتضمن مبررات نيل الجائزة.

2 - مبلغ 750 ألف ريال سعودي (بما يعادل 200 ألف دولار أمريكي) لكل جائزة.

3 - مبلغ 500 ألف ريال سعودي (بما يعادل 133 ألف دولار أمريكي) لجائزة الترجمة لجهود الأفراد.

4 - ميدالية تذكارية.

جائزة مؤسسة الفكر العربي: هي مؤسّسة دوليّة أهليّة مستقلّة، ليس لها ارتباط بالأنظمة أو بالتوجّهات الحزبيّة أو الطائفيّة، تعمل على تنمية الاعتزاز بثوابت الأمّة ومبادئها وقيمها وأخلاقها بنهج الحرية المسؤولة.

وتُعنى بمختلف سبل المعرفة، من علوم وطب واقتصاد وإدارة وإعلام وآداب، في سبيل توحيد الجهود الفكرية والثقافية، التي تدعو إلى تضامن الأمّة والنهوض بها



والمحافظة على هويتها.

مبادرة تأسيس مؤسسة الفكر العربي أطلقت في بيروت بتاريخ 2000/5/29. كان ذلك بمناسبة احتفالية بيروت عاصمة للثقافة العربية، وقد دعا صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل في خطابه حينها إلى مبادرة تضامنية بين الفكر والمال تتبنّاها مؤسّسة أهلية عربية تستهدف الإسهام في النهضة والتضامن العربيّين.

تتوزع جوائز مؤسسة الفكر العربي على الشكل التالي:

جائزة الإبداع العربي، جائزة أهم كتاب عربي، جائزة تكريم الرواد والمبدعين والموهوبين.

جائزة سوق عكاظ: هو أهم أسواق العرب وأشهرها على الإطلاق، وقد اهتم الملك فيصل بن عبدالعزيز، رحمه الله، بإحياء سوق عكاظ بعد انقطاع 12 قرنًا. وحينما عين صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل إمارة منطقة مكة.. تبنت إمارة منطقة مكة فكرة إحياء السوق ليكون أحد أهم مخرجات الإستراتيجية التنموية للمنطقة. وانطلقت أول دورة للسوق في عام (1428هـ2007م).

الجوائز:

جائزة شاعر شباب عكاظ، جائزة لوحة وقصيدة، التصوير الضوئي، جائزة الخط العربي، جائزة رائد أعمال عكاظ، جائزة مبتكر عكاظ، جائزة الرواية، جائزة الحرف اليدوية، جائزة الفلكلور الشعبي، جائزة شاعر عكاظ.

الجوائز في الإمارات العربية المتحدة:

جائزة سلطان العويس، التي تم إنشاؤها في عام 1987، وتمنح كل عامين مرة، في مجالات عدة، منها الرواية. ومن الفائزين بها عبر سنواتها السابقة، د. إحسان عباس، ود. ناصر الدين الأسد، والمفكر د. فهمي جدعان، والروائي إبراهيم نصر الله. ومن غرائب الأمور أنه تم سحب الجائزة، في عام 2004، من الشاعر العراقي المعروف سعدي يوسف، بعدما مُنحتْ له في عام 1990، وشطبه من سجلاتها.

جائزة الشيخ زايد للكتاب، التي بدأت في عام 2006، تبلغ قيمة الجائزة المالية 750 ألف درهم، وتمتاز بشمولها مجالات ثقافية عديدة، مقارنة مع الجوائز العربية، والعالمية الأخرى. ومن مجالاتها اختيار شخصية العام الثقافية. وقد فاز بجائزة الرواية، في دورتها الأولى، الجزائري واسيني الأعرج، عن روايته "الأمير ومسالك أبواب الحديد"، وفي الدورة التالية فاز بها الليبي إبراهيم الكوني، عن روايته "ما كان بعيدًا"، وفاز بجائزة الدورة الثالثة جمال الغيطاني عن رواية "الدفتر السادس من دفاتر التدوين – رن."



جوائز الشارقة للإبداع العربي، تأسست في عام 1997، بأمر من حاكم الشارقة، الشيخ سلطان بن محمد القاسمي، وتسعى إلى تشجيع إبداع الشباب في الوطن العربي. تمنح الجائزة لثلاثة فائزين في كل من مجالات: الشعر، والرواية، والقصة، والمسرح، وأدب الطفل، والنقد الأدبي، والسيرة الذاتية. أما جائزة دبي الثقافية للإبداع فتقدم لمن هم تحت سن الأربعين، وتشمل سبعة مجالات، هي: الشعر، والقصة، والرواية، والفنون التشكيلية، والحوار مع الغرب، والتأليف المسرحي، والأفلام التسجيلية، وقيمة الجائزة - لكل فرع منها - خمسة وعشرون ألف دولار، توزع على خمسة فائزين.

الجائزة العالمية للرواية العربية من أهمّ الجوائز الأدبية المرموقة في العالم العربي، وهي مبادرات ثقافية أخرى، وقد أُطلقت عام 2009 ندوتها الأولى (ورشة الكتّاب) لمجموعة من الكتّاب العرب الشباب المتميّزين.

تدار الجائزة بالشراكة مع مؤسسة جائزة "بوكر" في لندن وبدعم من هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة في الامارات العربية المتحدة.

جائزة الرواية العربية

جائزة الرواية العربية، التي يمنحها، معهد العالم العربي، في باريس، لأفضل الروايات العربية المنشورة في فرنسا. وتأتي في إطار المبادرات الثقافية لمجلس السفراء العرب، في فرنسا، بغية توطيد الحوار الثقافي بين العالم العربي وفرنسا. وتمنح الجائزة للأعمال المكتوبة بالعربية والمترجمة إلى الفرنسية، أو المكتوبة بالفرنسية، وقد أنشئت الجائزة سنة 2008، وتبلغ قيمتها 15 ألف يورو. وقد فاز بها الروائي المغربي ماحي بنبين، عن روايته "نجوم سيدي مومن"، والروائي الجزائري رشيد بوجدرة، عن روايته "أشجار التين الشوكي". وكان الروائي اللبناني، إلياس خوري، فاز بالجائزة، في دورتها الأولى.

الجوائز الأدبية في تونس:

ومن الجوائز العريقة، في الساحة الثقافية العربية، جائزة أبي القاسم الشابي، التي بلغ عدد دوراتها، منذ تأسيسها، في عام 1984، أربعًا وعشرين دورة، تكريمًا لشاعر تونس الأشهر، وتشرف عليها وزارة الثقافة والتراث التونسية، بتغير موضوع الجائزة، في كل دورة، ما بين الرواية والشعر والقصة القصيرة والنص المسرحي، وقد فاز بها في عام 2005، الروائية سميحة خريس، عن رواية "دفاتر الطوفان"، وفي عام 2008، فاز بها هزاع البراري، عن نصه المسرحي "قلادة الدم".

يوجد في تونس جائزة تدعى جائزة "كومار" للإبداع الروائي باللغتين: العربية، والفرنسية، وتقدمها شركة تأمين تونسية تحمل الاسم ذاته، وقد تم تأسيس الجائزة في عام 1994، وتمنح جائزة الكومار الذهبي لرواية باللغة العربية، ورواية باللغة الفرنسية، وقد فاز بها، في عام 2010، الروائي نور الدين العلوي، عن روايته "تفاصيل صغيرة". وأما الجائزة عن الرواية باللغة الفرنسية فنالها فوزي الملاح، ومن طريف الأمور أن الروائي الصافي سعيد رفض، في عام 2001، ترشيح روايته، وأصر على سحبها من القائمة، ثم تبين، بعد ذلك، أنها كانت الرواية الفائزة.

وفي الجزائر يشرف الروائي المعروف الطاهر وطار، الذي يترأس جمعية "الجاحظية" الثقافية، على جائزة الرواية، "الهاشمي سعيداني"، التي تقدمها الجمعية، وتهدف إلى تطوير التجربة الروائية في دول المغرب العربي، ودعم الأصوات الروائية الشابة، وقد أحرز الأديب الجزائري، الشاب سمير قاسيمي، جائزة الدورة الثانية، عن باكورة أعماله الروائية، وهي "تصريح بالضياع".

الجوائز الأدبية في المغرب:

في المغرب جائزة محمد زفزاف للرواية العربية، التي تمنح على هامش مؤتمر أصيلة الثقافي، وتمنح كل ثلاث سنوات، بالتناوب مع جائزتي: "تشيكايا أوتامسي" للشعر الأفريقي، و"بلند الحيدري" للشعراء العرب الشباب، وقد منحت الجائزة، في دورتها الرابعة، سنة 2010، للروائي السوري حنا مينة.

الجوائز الأدبية في مصر:

جائزة نجيب محفوظ للرواية العربية، التي تشرف عليها الجامعة الأمريكية في القاهرة، أحدثت الجائزة في عام 1996، وتمنح، كل عام، في يوم الحادي عشر من شهر كانون الأول/ديسمبر، الذي يصادف ذكرى ميلاد نجيب محفوظ، وقد جرت العادة أن تمنح الجائزة، في عام، لروائي عربي، وفي عام آخر، لروائي مصري، ومن الفائزين بالجائزة، في دوراتها السابقة: مريد البرغوثي، وهدى بركات، وأحلام مستغانمي، وبنسالم حميش، ومن المصريين: خيري شلبي، ويوسف أبورية، وإبراهيم عبد المجيد.



هناك الكثير من الجوائز، في مصر، كجائزة الدولة التقديرية والتشجيعية، وجائزة الدولة للتفوق، وجوائز الهيئة العامة لقصور الثقافة وجوائز اتحاد كتاب مصر، وجائزة محمود تيمور للإبداع، وجائزة إحسان عبدالقدوس للرواية، وجائزة عزالدين إسماعيل، وجائزة نادي القصة المصرية، غير أنها، كلها، محلية، تمنح للأدباء المصريين.

جائزة ملتقى القاهرة للإبداع الروائي العربي، الذي يشرف عليه المجلس الأعلى للثقافة في مصر، التي منحت، في دورتها الرابعة، عام 2008، للروائي إدوار الخراط، وكان الروائي العربي الراحل، عبد الرحمن منيف، فاز بالجائزة في دورتها الأولى، 1998، وفاجأ الروائي المصري، صنع الله إبراهيم، المجلس الأعلى، برفضه الجائزة في الدورة الثانية، عام 2003، أما جائزة الدورة الثالثة، 2005، ففاز بها الروائي السوداني الراحل، الطيب صالح.

الجوائز الأدبية في قطر:

الدولة التقديرية والتشجيعية في العلوم والفنون والآداب، التي أنشئت عام 2003، وهي تكريم للعلماء والباحثين والمبدعين القطريين عن عطائهم العلمي والإبداعي.

جائزة كتارا للرواية العربية، وهي جائزة سنوية أطلقتها المؤسسة العامة للحي الثقافي – كتارا في بداية العام 2014، وفي دورتها الأولى 2015 فاز في فئة الرواية المنشورة وقيمتها ستون ألف دولار كل من واسيني الأعرج من الجزائر عن رواية "مملكة الفراشة" وأمير تاج السر من السودان عن رواية "366" وإبراهيم عبدالمجيد من مصر عن رواية "أداجيو" ومنيرة سوار من البحرين عن رواية "جارية"، وناصرة السعدون من العراق عن رواية "دوامة الرحيل".

جائزة الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني للترجمة والتفاهم الدولي في قطر، وهي جائزة عالمية، التي تبلغ قيمتها الإجمالية مليون دولار أمريكي موزعة على خمس فئات، قيمة كل منها 200 ألف دولار أمريكي، وفي 2016 فازت الدكتورة فريال غزّول والدكتور جون فيرليندن.

الجوائز الأدبية في السودان:

في السودان تم إطلاق "جائزة الطيب صالح العالمية للإبداع الكتابي" في شباط/فبراير 2010م، متزامنة مع الذكرى السنوية الأولى لوفاة الأديب الراحل، تشمل الجائزة ثلاثة مجالات: الرواية، القصة القصيرة ومجال ثالث من مجالات الإبداع الكتابي يختاره مجلس الأمناء سنويًا.



الجوائز الأدبية والثقافية في سلطنة عُمان:

تعدّ جائزة السُّلطان قابوس للثقافة والفنون والآداب التي تأسست في 27 من شباط/فبراير 2011م وهي جائزة سنوية، يتم منحها بالتناوب دوريًا كل سنتين: بحيث تكون تقديرية في عام: يتنافس فيها العُمانيون إلى جانب إخوانهم العرب، وفي عام آخر للعُمانيين فقط.

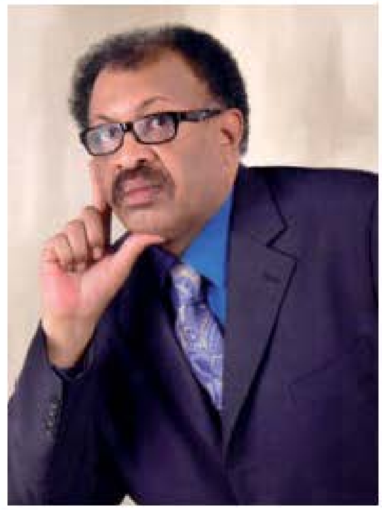
يمنح الفائز بها: وسام السلطان قابوس للثقافة والعلوم والفنون والآداب، بالإضافة إلى مبلغ مالي وقدره مئة ألف ريال عماني.

أما جائزة السلطان قابوس للثقافة والفنون والآداب: يمنح الفائز بها: وسام الاستحقاق للثقافة والعلوم والفنون والآداب، بالإضافة إلى: مبلغ مالي وقدره خمسون ألف ريال عماني.

الجوائز الأدبية في مملكة البحرين:

جائزة مملكة البحرين للكتاب: بدأت الجائزة في 2011 بمناسبة اليوم العالمي للكتاب ويبلغ قدرها 50 ألف دولار أمريكي، تمنح سنويًا لأحد الكتب الفائزة، وتخصص الجائزة لأحد الدول العربية.

الجوائز الأدبية.. من يمنحها؟



د. أمير تاج السر

كاتب وروائي سوداني

> المحكم الحقيقي للعمل الإبداعي أولاً وأخيرًا هو القارئ الذي لا يملك شهادة أكاديمية ولا يكلف بمتابعة النصوص وغربلتها

لا شك أن الجوائز الأدبية، التي كثرت وتشعبت في الوطن العربي في السنوات الأخيرة، تعد انتصارًا كبيرًا للكتابة، خاصة أنها من المفترض أن تشمل شرائح متميزة في المجتمعات، تنتج ما يمكن أن يسمى تنويرًا، تحتاجه تلك المجتمعات بشدة، في أي وقت من أوقات تطورها.

جوائز في الشعر وفي القصة وفي الرواية والمسرح، وحتى في الخواطر العادية التي يكتبها البعض، وترصد لها أحيانًا جوائز في كثير من الصحف اليومية.

ولأن هذه الجوائز الأدبية ترف مستحدث في عالمنا العربي، بعكس الغرب الذي تعد لديه من التقاليد الراسخة وجزءًا مهمًا من ثراء ثقافته، وهناك جوائز عمرها عشرات الأعوام، مثل جائزة غونكور الفرنسية ومان بوكر الإنجليزية، وجائزة بوليتزر والأورانج النسائية، ونالها مئات المبدعين على مر الأعوام، فإننا، كما أعتقد، ما زلنا في صدد حضانتها المبكرة، قبل أن نصبح قادرين على التعامل معها بنضج ومسؤولية.

لكن، لمن تمنح تلك الجوائز حقيقة؟ وهل هي بالفعل تقدير للإبداع والمبدعين، كما تردد شعاراتها التي جاءت تحملها، أم مجرد ميادين، ترصف موسميًا، ليتقاتل فيها المبدعون وغير المبدعين، وليس ثمة رابح حقيقي؟

قبل ذلك كله، لا بد من إلقاء نظرة مطولة على التحكيم الذي لا بد منه من أجل أن يربح أحد ويخسر آخر، والتحكيم في تلك الجوائز، كما هو معروف، يتكون من لجان تضم أشخاصًا لهم في الغالب علاقة بالكتابة، فإما أن يكونوا مبدعين، قدموا أعمالاً من قبل، وإما نقادًا أو أكاديميين، وأحيانًا مجرد وجهاء مجتمعيين يحظون ببعض الاحترام، ويمتلكون قدرًا من الثقافة.

هؤلاء يكلفون بغربلة الأعمال المتقدمة للجائزة وتصفيتها، واستخراج قوائم نهائية، يختار منها الفائزون بعد ذلك، هذا شيء مشروع، بلا شك، وحتى جوائز الغرب التي تأثرنا بها، واستوردنا بعضها، تتبع في معظمها نهجًا مشابهًا لذلك، ما عدا جوائز تقرر بعض الأكاديميات منحها لمبدع ما، على مجمل أعماله، من دون أن يغربل نصوصه أحد.

لكن هنا يأتي السؤال المهم: ما هي المبررات التي تسوقها تلك اللجان المشكلة لمنح نص جائزة، وعدم منح نص آخر؟

من خلال متابعتي لما ينشر، خاصة في مجال الرواية، وأيضًا من تتبعي لمسيرة تلك الجوائز سواء كانت عربية أو غربية، أرى أن الأمر يعتمد أساسًا على التذوق الذي يحمله المحكمون المفترضة نزاهتهم، أكثر من أي شيء آخر، هناك من يتذوق النص الكلاسيكي الخالي من أي نكهة تجريب ويصوت له عن قناعة، ومن يتذوق نصًا تجريبيًا حداثيًا أو كتب بلغة بعيدة عن المألوف ويصوت



له، ومن لا يتذوق هذا ولا ذاك، أو يعترف بأي نص مهما كان، وليس الأمر خاصًا ببلادنا في هذا الصدد، ولكن حتى بتلك الجوائز الغربية العريقة.

وأذكر تلك الناقدة الأمريكية التي احتجت بشدة وهاجمت لجنة للتحكيم كانت عضوًا فيها، لأن جائزة رفيعة المستوى منحت للروائي فيليب روث، لا لسبب إلا أنها لم تكن من عشاق أدبه، ولا اعترفت به كاتبًا في أي يوم من الأيام، كما ذكرت في مقابلة معها، وحدث الأمر نفسه في إحدى الجوائز العربية، لكن بطريقة مختلفة.

وفي العام الماضي، التقيت مصادفة بناقد أكاديمي من إحدى البلاد العربية، يمكن بسهولة شديدة أن يظهر اسمه ذات يوم بين محكمي إحدى الجوائز، تناقشنا في الكتابة طويلاً عن أول رواية عربية كتبت، وأين ظهرت؟ وهل الرواية هي ديوان العرب الجديد بالفعل؟ وفوجئت به يخبرني بصرامة شديدة أنه يملك ست عشرة قاعدة أساسية في الكتابة يجب أن يستوفيها كل من يكتب رواية، حتى يطلق عليه لقب الروائي.

وقد قام بتطبيق تلك القواعد أولاً على كتاب بلده بمختلف أجيالهم، ولم يحصل على روائي واحد، ونزح بها بعد ذلك إلى الخارج، وطبقها على عدد كبير من كتاب الوطن العربي المعروفين، ولم يحصل سوى على روائي واحد، انطبقت عليه القواعد كلها هو نجيب محفوظ.. أما الآخرون ممن حامت حولهم القواعد ولم تنطبق عليهم، فإما مشاريع روائيين لم تكتمل، وإما دخلاء على صنعة الرواية، كان أولى بهم أن يتركوها في حالها، ويتجهوا إلى مهن أخرى.

إذا ما أخذنا تلك العسكرة النقدية لذلك الناقد الأكاديمي على محمل الجد، وسآخذها بكل تأكيد، يكون روائيون عظماء مثل الطيب صالح وجبرا إبراهيم جبرا، وحنا مينا وعبد الرحمن منيف وكثيرون غيرهم، مجرد مشاريع روائيين لم تكتمل لأسباب مجهولة، وجيلنا، والأجيال التي سبقته والتي أتت بعده، مجرد أدعياء ودخلاء على صنعة لا يعرفونها، وعليهم أن يبحثوا عن الذي يعرفونه.

والحقيقة، أنني لا أستبعد أبدًا أن تكون تلك القواعد الست عشرة، أو قواعد شبيهة بها، مخبأة في أذهان آخرين، لكنهم لم يجرؤوا على التصريح بها كما صرح صاحبنا.

لذلك، أعود لتأكيد رأي طالما كنت من أنصاره، وهو أن المحكم الحقيقي للعمل الإبداعي، أولاً وأخيرًا، هو القارئ الذي لا يملك شهادة أكاديمية ولا يكلف بمتابعة النصوص وغربلتها، لكنه يكلف نفسه بنفسه، ولذلك طالما وجدنا أعمالاً روائية كثيرة لفظت من الجوائز بفظاظة، لكنها حصلت على شرعيتها، وحققت انتشارها خارج القانون الأكاديمي، أو الرسمي.

وشخصيًا اعتدت الرجوع إلى رأي القارئ واحتضانه في كثير من أعمالي، آراء يتسق مع التوجه الحقيقي للنص، أنه أنتج ليقرأ، خارج سلطة المنح والمنع التي تمنح أو لا تمنح الجوائز.

رأي آخر أكثر تطرفًا، أن لا نعتبر من هو كاتب أو ناقد، أو لديه صلة بالكتابة، محكمًا محتملاً في جائزة ما، إلا إذا خضع لتدريب خاص يزعزع ذائقته الثابتة ويفتحها على أفق أرحب.

وأخيرًا، أقولها بكل صراحة، إنني أيضًا بحاجة لذلك التدريب الشاق، حتى ألغي تذوقي الشخصي، الذي يتوقف جامدًا عند أعمال معينة، ويرفض أعمالاً أخرى مجيدة، لأنها خارج محيطه، لا لأكون محكمًا في مسابقة، ولكن نزيها في رأيي، حين أسأل عن أعمال جيدة المستوى، ولكني لم أحبها.

"من خلال متابعتي لما ينشر، خاصة في مجال الرواية، أرى أن الأمر يعتمد أساسًا على التذوق الذي يحمله المحكمون المفترضة نزاهتهم، أكثر من أي شيء آخر"

"هناك رأي آخر أكثر تطرفًا، أن لا نعتبر من هو كاتب أو ناقد، أو لديه صلة بالكتابة، محكمًا محتملاً في جائزة ما، إلا إذا خضع لتدريب خاص يزعزع ذائقته الثابتة، يفتحها على أفق أرحب"

قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا



د. وليد فتيحي

جدة

إنه محل الخير أو الشر، والإيمان أو الكفر، والبصيرة أو العمى، واليقظة أو الغفلة، والهداية أو الضلال، واليقين أو الريبة، واللين أو الغلظة، والرأفة أو القسوة، احتل مكانة محورية في الفكر الديني والأخلاقي منذ فجر التاريخ، واعتبره الحكماء والعلماء والفلاسفة جوهر الإنسان.. إنه القلب، فهل هو مجرد مضخة دم، أم أنه أكثر من ذلك بكثير؟

على مر سنوات طويلة درس علماء الغرب القلب من الناحية الفيزيولوجية واعتبروه مجرد مضخة للدم لا أكثر، وهذا المفهوم مخالف لقراءة النصوص في الكتب السماوية التي تعطي القلب موقعًا مركزيًا سياديًّا على فكر الإنسان ومشاعره وسلوكه.

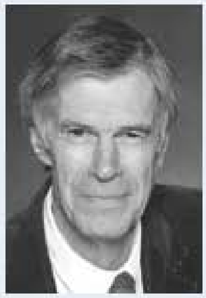
وقد ذكر القلب في القرآن الكريم أكثر من 132 مرة، أوضح الخالق فيها وظائف متعددة للقلب. القلب الذي يتدبر، فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ القلب الذي يعقل، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾. القلب الذي يفقه، فقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾. القلب الذي يستقبل الوحي، فقال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾. القلب الذي يؤمن ويتيقن فيطمئن، فقال: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾. القلب الذي يخطط للمعصية، فقال: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾. القلب الذي يربنا الخالق قدرته به وعليه، فقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾. القلب الذي يكتم الحق، فقال: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾. القلب الذي يحدد مآل الإنسان في حياته الآخرة، فقال: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾، مع أن العقل بناء على الفهم السائد هو الذي يتدبر ويعقل ويفقه ويخطط، بل إن العقل مناط التكليف.

لقد اتخذ الماديون من قضية محورية القلب هذه في الفكر الديني والأخلاقي منطلقًا للهجوم على الدين والتشكيك فيه، حيث إن المفاهيم العلمية السائدة كانت ترى أن جميع العمليات العقلية والأخلاقية والسلوكية والمشاعر يوجهها الدماغ، وليس القلب إلا مضخة للدم، ولكن في العقدين السابقين بدأنا نكتشف أن القلب ليس مجرد مضخة، وأن العلاقة بين القلب والعقل سيادية متبادلة، فماذا يقول العلم؟ وماذا قال القرآن قبل 1400 سنة؟.

قام د. أندرو أرمر (Andrew Armour) أحد مؤسسي علم أعصاب القلب في عام 1994م بمفاجئة العالم بقوله إن للقلب جهازًا عصبيًا خاصًا يستحق أن يدعى المخ الصغير، ويتكون من حوالي 40,000 خلية عصبية، وتستخدم نفس الناقلات العصبية الكيميائية والبروتينات التي يستخدمها المخ.

مخ القلب يستطيع تنظيم أداء القلب بمعزل عن الجهاز العصبي في الدماغ، وهذا ما يحدث بالفعل في المرضى الذين تجرى لهم عمليات جراحات نقل القلب، التي يتم فيها قطع الأعصاب والتي يتواصل بها المخ مع القلب.

لقد أثبت العلم أن القلب يتواصل مع الدماغ بآليات أربع، الآلية الأولى: كهرومغناطيسية، فكل خلية من


د. أندرو أرمر

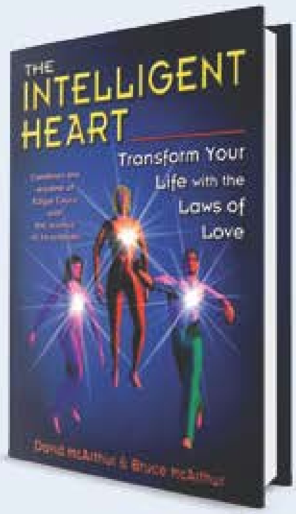

ديفيد ماك آرثر

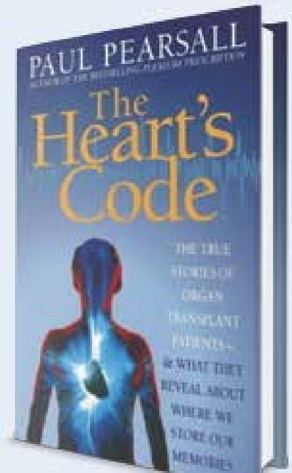

بروس ماك آرثر


د. لينداروسيك


د. بول برسال


البروفيسور جاري شوارتس





"مخ القلب يستطيع تنظيم أداء القلب بمعزل عن الجهاز العصبي في الدماغ، وهذا ما يحدث بالفعل في المرضى الذين تجرى لهم عمليات جراحات نقل القلب، التي يتم فيها قطع الأعصاب والتي يتواصل بها المخ مع القلب"

"لبن الأم أكثر من مجرد مصدر للغذاء، إنه طريقة تنقل الأم بها المعرفة لطفلها، ويتعلم الطفل من خلالها فك شفرات المجالات الكهرومغناطيسية، لتظل قلوبنا قادرة على قراءة تلك اللغة والتأثر بها مدى الحياة"

"فكذلك الحال بالقلب الذي يعمل بصفته جهاز تخزين للمعلومات والذكريات عن طريق التغذية الراجعة عبر كل من الأعصاب والدم، كما يؤكد د. بول برسال (Paul K. Pearsall) في كتابه شفرة القلب (The Heart Code)"

خلايا القلب العضلية لها مجال كهرومغناطيسي، ويمكن تسجيل نشاطها الكهربائي من أي مكان من جلد الإنسان باستخدام رسام القلب الكهربائي (EKG)، وتبلغ شدة هذا النشاط 60 ضعفًا شدة النشاط الكهربائي للمخ الذي يسجل عن طريق رسام المخ الكهربائي (EEG).

هذه التغيرات في النشاط الكهربائي تؤدي إلى توليد مجال مغناطيسي متغير حول القلب قوته 5000 ضعف قوة المجال المغناطيسي للمخ، بل ويمكن رصد هذا المجال على مسافة تصل إلى 3 أمتار حول جسم الإنسان.

وقد أثبت باستخدام أجهزة رصد دقيقة حدوث تداخل بين المجالين الكهرومغناطيسيين لقلبي شخصين متجاورين مما قد يؤدي إلى تناغم أو إلى تشويش، بل أثبت العلم أن في أثناء الرضاعة وحمل الأم لطفلها قريبًا منها، فإن المجال المغناطيسي لقلب الطفل يتم ضبطه ضبطًا دقيقًا ليتزامن ويتآلف ويتوافق مع مجال الأم، وبذلك فإن الأم خلال الحمل والرضاعة تنقل الكثير من المعلومات لطفلها عن طريق المجال الكهرومغناطيسي كتقبلها وحبها له، هل هو مرغوب أم هو مرفوض؟ وبذلك فإن لبن الأم أكثر من مجرد مصدر للغذاء، إنه طريقة تنقل الأم بها المعرفة لطفلها، ويتعلم الطفل من خلالها فك شفرات المجالات الكهرومغناطيسية، لتظل قلوبنا قادرة على قراءة تلك اللغة والتأثر بها مدى الحياة.

الآلية الثانية: عصبية، حيث إن المخ يتحكم في تنظيم عمل القلب خلال الجهاز العصبي اللاإرادي، حيث تنتقل التعليمات من المخ إلى القلب، ولكن أثبت حديثًا أن هناك إشارات غزيرة تنطلق في الاتجاه المعاكس من القلب إلى المخ عن طريق نفس الجهاز العصبي اللاإرادي إلى أهم أجزاء الدماغ الأميجدلا والمهاد والثالاميث (وقاع الفص الأمامي للمخ)، وهو المسؤول عن التنسيق بين المشاعر والوظائف العقلية.

بل وجد أن تنشيط عصب يدعى العصب الحائر في القلب يؤدي إلى تهدئة النشاط الكهربائي في المخ بنسبة تصل إلى 50 %، ولهذا اعتمد هذا الأسلوب لعلاج الصرع وحالات الاكتئاب المستعصية.

الآلية الثالثة: ميكانيكية حيث يحتوي الأذين الأيمن للقلب والشريان الأورطي على مستقبلات ميكانيكية للتحكم في معدل ضربات القلب وكمية الدم المدفوع للقلب، وكذلك تؤثر على النشاط الكهربائي للمخ.

أما الآلية الرابعة: فهي كيميائية، حيث يفرز القلب 6 هرمونات تنظم بها عمل غدد رئيسية في الدماغ، وتكوين بروتين مسؤول عن حماية الخلايا العصبية في الدماغ، وأحد هذه الهرمونات هو هرمون الأوكسيتوسن، وهو هرمون الحب والترابط والتوافق والأمومة، حيث إن مستوى إفرازه في القلب يعادل إفرازه في الدماغ، وهذا الهرمون هو المسؤول عن مشاعر الحب والتعاطف والترابط والتوافق، والذي يفرز بكميات كبيرة في أثناء الرضاعة، كما أنه يدعم القدرة على التأقلم وتحمل التوترات، وكذلك التعلم والذاكرة، وكذلك يفرز القلب ناقلات عصبية مثل الدوبامين والأدرينالين.

يقول المؤلفان (David McArthur, Bruce

McArthur) في كتاب (القلب الذكي) "مع كل نبضة لا يدفع القلب دفقة من الدم فقط، بل يبعث برسائل عصبية هرمونية وميكانيكية وكهرومغناطيسية إلى المخ محملة بكثير من المعلومات، فإذا كانت نبضات القلب في توافق عالٍ فسوف تصل هذه المعلومات إلى المخ، وتتحسن وظائف القشرة المخية الحسية والإدراكية والمعرفية والذهنية والنفسية، مما يؤدي إلى صفاء عقلي ونفسي مع قدرة أعلى على وزن الأمور واتخاذ القرار، فتتفجر القدرات الإبداعية للإنسان، ويؤدي ذلك كله إلى قدر عالٍ من التوافق العقلي والنفسي".

بل إن القلب يرسل للدماغ معلومات أكثر من تلك التي يستقبلها منه، والقلب يخاطب المخ وينسق معه جميع الأنشطة، فكما ينشط المخ بمراكز ذاكرته وحسه بواسطة التغذية الراجعة عبر الشبكات العصبية الدموية، فكذلك الحال بالقلب الذي يعمل بصفته جهاز تخزين للمعلومات والذكريات عن طريق التغذية الراجعة عبر كل من الأعصاب والدم كما يؤكد د. بول برسال (Paul K. Pearsall) في كتابه شفرة القلب (The Heart Code).

وهذا ما يؤكده البروفيسور جاري شوارتس (Prof. Gary Schwartz) أخصائي الطب النفسي في جامعة أريزونا، والدكتورة ليندا روسيك (Linda G. S. Russek)، حيث يعتقدان أن للقلب طاقة خاصة يتم بها تخزين المعلومات ومعالجتها أيضًا، فالذاكرة ليست فقط في الدماغ، بل قد يكون القلب محركًا لها ومشرفًا عليها.

يؤكد أطباء القلب في كل من جامعة ييل Yale الأمريكية ومعهد هارتمن بولاية كاليفورنيا أن القلب جهاز فائق التعقيد بل هو أكثر أجزاء الجسم تعقيدًا، وأكثرها دقة وغموضًا، وأنه يتحكم في المخ أكثر مما يتحكم المخ فيه، ويرسل إليه المعلومات أضعاف ما يتلقى منه، وللقلب القدرة على التفكير والانفعال والشعور والعاطفة وتخزين المعلومات القريبة والبعيدة في ذاكرة تشبه ذاكرة المخ.

وقد قام الدكتور (Gary Schwartz) وزملاؤه في جامعة ييل Yale بأبحاث ودراسات دقيقة ضمت أكثر من 300 حالة زراعة قلب، فاتضح لهم أنه عند نقل قلب من إنسان إلى إنسان آخر، فإن القلب المنقول يأخذ معه من الذكريات والمواهب والعواطف والمشاعر والهوايات والتفصيلات الخاصة بالشخص الذي أُخذ منه القلب والتي تبدو غريبة كل الغرابة عن صفات الشخص الذي تم نقل القلب إليه، وقد نشرت نتائج بعض هذه الأبحاث في الورقة الشهيرة عام 1999م في مجلة (Internal Medicine).



الحالة الأولى: في إحدى هذه الحالات توفي شاب عمره 18 سنة في حادث سيارة، ووالده طبيب وكان هذا الشاب يكتب الشعر ويلعب الموسيقى ويغني، وتم نقل قلبه إلى فتاة في نفس عمره فأصبحت بعد زراعة القلب عاشقة لنفس نوع الموسيقى بل والعزف وإكمال كلمات من أبيات الشعر وكلمات الأغاني للميت لم تسمعها من قبل.

الحالة الثانية: رجل أبيض عمره 47 سنة عامل في مصنع (سبك) للمعادن تلقى زرع قلب شاب أمريكي من أصول أفريقية عمره 17 عامًا. متلقي القلب فوجئ بعد زرع القلب أنه عاشق للموسيقى الكلاسيكية مكتشفًا لاحقًا أن المتبرع كان مغرم بهذا النوع من الموسيقى ويلعب بآلة الكمان ومات وهو في طريقه إلى درس الموسيقى.

الحالة الثالثة: متبرع بها طفل في 13 من عمره يدعى جيري غرق في حوض الحمام ووالدته طبيبة، والمنقول إليه القلب طفل اسمه كارتر يعاني من ثقب في القلب، وبعد الزراعة كان كارتر بصحبة والديه، وفجأة أفلت كارتر من يد أمه وهرع إلى رجل غريب من بين مئات الأشخاص المتواجدين في المكان، وقفز إلى حجره وضمه وناداه بـ (Daddy) أو (أبي) مما أدهش والديه، فقد كان هذا الرجل هو والد المتبرع بالقلب جيري، ولم يره كارتر في حياته، وعندما سئل لماذا فعل هذا قال: إن جيري هو الذي جرى لوالده وأنا ذهبت معه.

الحالة الرابعة: المتبرع فيها طفلة عمرها 3 سنوات، غرقت في المسبح، والمتلقي طفل عمره 9 سنوات، وهو لا يعرف شيئًا عن المتبرعة، ولا كيف ماتت، ولكنه بعد زراعة القلب أصبح يخاف من الماء بعد أن كان يعشق السباحة، ولا يعرف تفسيرًا لهذا الخوف.

الحالة الخامسة: المتبرع فيها طفل في الثالثة من عمره سقط من النافذة، والمتلقي طفل في الخامسة من عمره، وبعد العملية أصبح المتلقي يكره ألعاب الباور رينجيرز بعد أن كان يحبهم، ولا يعرف والداه سببًا لذلك، ثم اتضح لهم في المقابلة أن المتبرع سقط من النافذة وهو يحاول أن يصل إلى لعبته (الباور رينجيرز) على حافة النافذة.

الحالة السادسة: لطفل نقل له قلب طفل آخر لديه خلل في الجانب الأيسر من دماغه، وعند بحث الأطباء عن سبب هذا الأمر وجدوا أن الطفل الأصلي صاحب القلب الأصلي كان يعاني خللاً في الدماغ في نفس الجهة اليسرى للطفل المنقول إليه القلب.

وقد كتبت (Claire Sylvia) التي تلقت زراعة قلب ورئتين عام 1988م في مستشفى جامعة يال، كتابًا عام 1997م بعنوان (A Change of Heart) أو (تغيير قلب) وصفت فيه التغييرات التي طرأت عليها من سلوك وعادات وهوايات وتغير في الرغبات والذوق، مثل حبها لدجاج كنتاكي، بعد أن كانت تكرهه، وقد وجد أن المتبرع كان يعشق هذا الطعام إلى حد أنه وجد في جيبه قطعة دجاج كنتاكي عند وفاته.

وما زال العلم يكشف لنا في كل يوم ما قد يفسّر تلك الظواهر، التي استعصت حتى اليوم عن إيجاد تفسير منطقي لها.

تفسير هذه الظواهر وغيرها أن قلب الإنسان ليس مجرد مضخة للدم، وإنما أودع الله في هذا القلب برامج تتحكم في عمل هذا القلب، وتستقبل هذه البرامج المعلومات وكل ما يسمعه ويراه الإنسان ليتم تخزينه في القلب الذي يصدر أوامره للدماغ ليقوم بأداء مهامه.

هل معنى هذا أن مركز العقل هو القلب وليس الدماغ؟ هل هذا يفسر قوله تعالى ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ وقوله ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾. لقد ذهب جمهور المفسرين أن العقل في القلب بغض النظر عن ماهية العقل، وقد اجتمعوا في تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ بأن العقل في الآية إنما محله القلب. وأكد القرطبي بقوله: أضاف سبحانه العقل إلى القلب لأنه محله، كما أن السمع محل الأذن.

وجمع ابن القيم بين القلب والعقل والدماغ بطريقة جميلة، فقال: الصواب أن العقل مبدؤه ومنشؤه في القلب، ومزرعه وثمرته في الرأس، وهذا ما أكده أينشتاين بقوله عن علاقة القلب بالدماغ: إن القلب هدية قدسية ربانية، أما الدماغ فهو الخادم المطيع له.

ولذلك عندما يرضى القلب ويحب، فإنه يأمر العقل فلا يرى إلا حُسنًا، وعندما يُبغض القلب فيأمر العقل فلا يرى إلا قبحًا

وَعَينُ الرِضا عَن كُلِّ عَيبٍ كَليلَةٌ
وَلَكِنَّ عَينَ السُخطِ تُبدي المَساوِيا

هل هذا يفسر كيف أن ما يراه العبد ويسمعه ويقوله ويفعله يطهر قلبه ويزكيه، أم يتجمع عليه كالران الأسود فيطمسه ويعميه. يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى "إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ" في قوله تعالى.. ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

هل هذا يفسر قوله صلى الله عليه وسلم " أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ". هنا أفهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾.

سجدة

أَسْجُدْ لربّكَ شُكْرًا واحْتضنْ وَطَنَا
مـاخَـابَ مَنْ شـكَرَ الـوَهّـابَ ما وَهَنَا

قَبّلْ هَوَاهُ وعـانِقْ كُلَّ مُــورِقَــةٍ
وَأَجّجِ الشّوقَ زَهْوًا وابْعَثِ الشَّجَنَا

أُسْجُدْ لـرَبِّكَ طَهّرْ جَبْهَةً وَثَرَى
بِذِكْرِهِ فَعَسَى أَنْ يَغْسِلَ الحـزنـا

وانْفُضْ غُبَارَ الأَسَى عَنْ حُلْم أُمَّتِنَا
لِتَنْهَلَ الماءَ صَفْوًا بَعْدَ ما أَسِنَا

أُسْجُدْ لـرَبِّكَ كَبِّرْ وابْتَهِجْ فَرَحًا
أُسْجُدْ لِرَبِّكَ شُكْرًا واحْتَضِنْ وَطَنا



إبراهيم عمر صعابي
جازان



العظماء حقًّا هم فقط الخيِّرون حقًّا



محمد بن عبدالله الفريح

كاتب ومفكر

@malfriah

لم يتغير. كما الذهب تزيده وطأة الطقس العام بريقًا وألقًا. فلا يزال يستقبل مريضه عند عتبة باب العيادة. ويفتح له الباب بنفسه. وبعد التشخيص وصرف الدواء يرافقه إلى عتبة الباب نفسها. ليستقبل مريضًا آخر هاشًا. باشًا. مرددًا: كيف أنتِ خالتي؟ ما حالكِ عمتي؟. ما أخبارك يا أخي؟. كيف صحتك يا ولدي؟ ابنتي. كيف صحتك هذا النهار؟. هكذا الفته. ترحاب بمرضاه. لا يكلّ. ولا يملّ. ولا يتجهم. ولا يبدي ضيقًا ولا ضجرًا بالزحام. وابتسامته دومًا تسبق كلمات الترحاب!

لم يتغير. ولا يزال تشخيص الداء عنده (بلا مقابل). وكذلك صرف الدواء. ولا يكتفي بهذا وذاك. بل كثيرًا ما يرسم في كراسة المريض (نجمة) أو (نجمتين). فهما الشفرتان اللتان لا يفهمهما إلا العامل المهذب في استقبال عيادته. فالنجمة تعني أن المريض من ذوي الأسر العفيفة. وفي حاجة إلى (دواء مجاني). أما النجمتان فتعنيان أن المريض من ذوي الأسر الأكثر عفةً. وفي حاجة إلى دواء مجاني وكذلك إلى (المقابل الخاص بالمواصلات!!).

وعلى الرغم من ارتفاع ميزانية مواصلات مرضاه إلى ألف وسبع مئة جنيه أسبوعيًا. فلا يزال يدفعها عن طيب خاطر. ويودعهم منبهًا: «أخي. لا تنسَ أخذ الدواء في موعده. وأذكرك بموعد المقابلة!» وعلى الرغم من ارتفاع ميزانية أدوية مرضاه إلى عشرين ألف جنيه أسبوعيًا. فلا يزال حريصًا على توفيرها. يذهب فجرًا إلى المستشفى العام. ثم يعود عصرًا إلى عيادته الخاصة بالموردة. ثم يوم الجمعة من كل أسبوع – من الثالثة عصرًا حتى موعد أذان فجر السبت – يهبه فقراء بلدته بعيادة بانت بأم درمان بالسودان. ويكون عائد عيادة الموردة الخاصة هذه عائدًا لهؤلاء الفقراء (تشخيصًا وأدوية وتوصيلًا).

لم يتغير، هنا – في عيادته ببانت – للحياة معانٍ سامية، وللسهر حتى الفجر (طعم الشهد) يدخلها بعد صلاة الجمعة، ويغادرها مع أذان فجر السبت، ويكون قد استقبل مع كادره الطبي – 5 إخصائيين، و7 نواب، و6 طلاب طب – أكثر من (200 مريض) ببسطاء كما السواد الأعظم من أهل السودان، عندما تصيبهم أمراض المخ والأعصاب، يأتون من كل ولايات السودان، يشخص مرضهم لوجه الله، ويصرف لهم أدويتهم لوجه الله، ثم لوجه الله يصرف للسواد الأعظم من المرضى (حق التاكسي والأمجاد)، بحسب الحالة الاقتصادية الموثقة في (كراساتهم): عفوًا، ليس بالدواء وجنيهات المواصلات، بل يخرج مريضه أيضًا بإرشادات طبية، ورقم هاتفه الشخصي مطبوعًا في مغلف التعريف بالمريض، لا ينسى تنبيه المريض: «لو أحسست بأي شيء هذا رقم هاتفي، وإذا لم يكن لديك رصيد للمحادثة فأرسل لي رسالة قل فيها: «اللهم، صلِّ وسلم على سيدنا محمد»، فأنا سوف أعاود الاتصال بك مباشرة، ويلتفت إليَّ ضاحكًا: «أنت لا تزعجني»، ثم ينتبه إلى الوقت، فإذا هو الثالثة فجرًا، يسألني قبل جلوس مريضه باللهجة السودانية الممتعة: «يا زول، المقعدك شنو؟ نحن أصلًا ناس سهرا!» لم تتغير هذه الأيقونة الملهمة، بل إنه غرس خيره وحبه للخير في نفوس الآخرين ومن يعمل معه.

هذا أبو القاسم، أحد جيران عيادته، شعر بتعب مرضاه وإرهاقهم، وهم في انتظار دورهم، فاشترى 10 أسِرَّة بمراتبها وملاءاتها ومخداتها، وجلبها إلى حوش العيادة؛ ليرتاح عليها كبار السن، أو لينام عليها القادم من المسافات البعيدة لحين ضياء الفجر، وهذا الفاضل الجار الآخر، ينتظر مساء الجمعة من كل أسبوع بصبر جميل؛ ليجلب الطعام والشراب للمرضى والمرافقين بكل حب، هكذا وبكل تلقائية وعفوية يغرس بذور الخير في النفوس، حيث صار جيران العيادة يشكلون معه فريق العمل.

نسأله: «يا دكتور، بأي شيء نساعدك؟»، فيردّ مبتسمًا: «بصالح الدعوات» ونضحك، ثم نكرر السؤال، فيردّ مشيرًا إلى زحام المرضى: «ساعدوني في أن نمشي لهؤلاء الناس في ولاياتهم»، ثم يسترسل: «والله ظروفهم صعبة، نحن ليس لدينا مانع نكون كل جمعة في ولاية، بدل تكبدهم عناء السفر، ويأتون إلى هنا، فكّروا معي كيف تنفذ هذه الفكرة، كلموا الولاة والمسؤولين يتصلون، وينسقون معنا، لا نريد منهم شيئًا غير الترحيل ومكانًا للعمل وإعلان يوم عملنا، بهذا نكون وفرنا لهم (قريشاتهم) وخففنا تعبهم، المسألة هذه في غاية الصعوبة؟».

بقي أن تعرف عزيزي القارئ، أن هذه الأيقونة هو البروفيسور أبشر حسين محمد أحمد، استشاري المخ والأعصاب الذي يُعدّ من أفضل أطباء الباطنة والمخ والأعصاب في السودان والحاصل على الترتيب 37 في التصنيف العالمي في التخصص المذكور، وقد أشرف على 84 رسالة دكتوراه، وله ما لا يقل عن 113 بحثًا ومقالًا وورقة علمية متخصصة في مجال الصرع والشلل الرعاش والأمراض المرتبطة بهما، وله مؤلفات منها (الجمع بين الطب والفقه)، فلا يراودني الشك أبدًا في أن أمثلة الدكتور أبشر كثيرة في أمتنا وأمم أخرى، ونحن ذكرناه هنا، ونشدّ على يديه وعلى أيدي أمثاله ليكون نبراسًا ودرسًا ملهمًا للأجيال، في زمن عزّ فيه المثل والقدوة إلا من رحم الله. شكراً لك يا دكتور، وقبلة على جبينك وعلى جبين كل الخيرين في عيادة بانت الخيرية، وهم يعضون بالنواجذ على قيم هذا الدين العظيم، في زمن توحشت فيه سطوة المال، وتوغلت الأنانية وحب الذات، والبخل بالمعلومة إلا بمقابل لها، بل تعدى ذلك للكذب والتدليس وخيانة الأمانة للمهنة العلمية الشريفة مقابل لعاعة من الدنيا.

تذكرت، وأنا أسرد هذه القصة قول الله جل في علاه: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ٢٠﴾ الإسراء: 20.

وأتذكر أيضًا قول المصطفى صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ». أخرجه الطبراني (8/233، رقم 7911). أسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم.

وتمرّ في خاطري المقولة الشهيرة للكاتب والمسرحي والشاعر الإنجليزي جورج شابمان: «العظماء حقًّا هم فقط الخيّرون حقًّا».

المصادر

http://www.eqtibas.com

https://mobile.facebook.
com/110598645625295/photos/a.10074
38995941251.1073741947.110598645625
type=1?/1007443759274108/295

”كثيرًا ما يرسم في كراسة المريض (نجمة) أو (نجمتين)، فهما الشفرتان اللتان لا يفهمهما إلا العامل المهذب في استقبال عيادته، فالنجمة تعني أن المريض من ذوي الأسر العفيفة، وفي حاجة إلى (دواء مجاني)، أما النجمتان فتعنيان أن المريض من ذوي الأسر الأكثر عفةً، وفي حاجة إلى دواء مجاني وكذلك إلى (المقابل الخاص بالمواصلات!!).“

”لم يتغير، هنا – في عيادته ببانت – للحياة معانٍ سامية، وللسهر حتى الفجر (طعمُ الشهد) يدخلها بعد صلاة الجمعة، ويغادرها مع أذان فجر السبت، ويكون قد استقبل مع كادره الطبي – 5 إخصائيين، و7 نواب، و6 طلاب طب – أكثر من (200 مريض) بسطاء“



ستيفن كينغ
أسطورة الرعب



ناصر بن محمد الزمل

رئيس التحرير

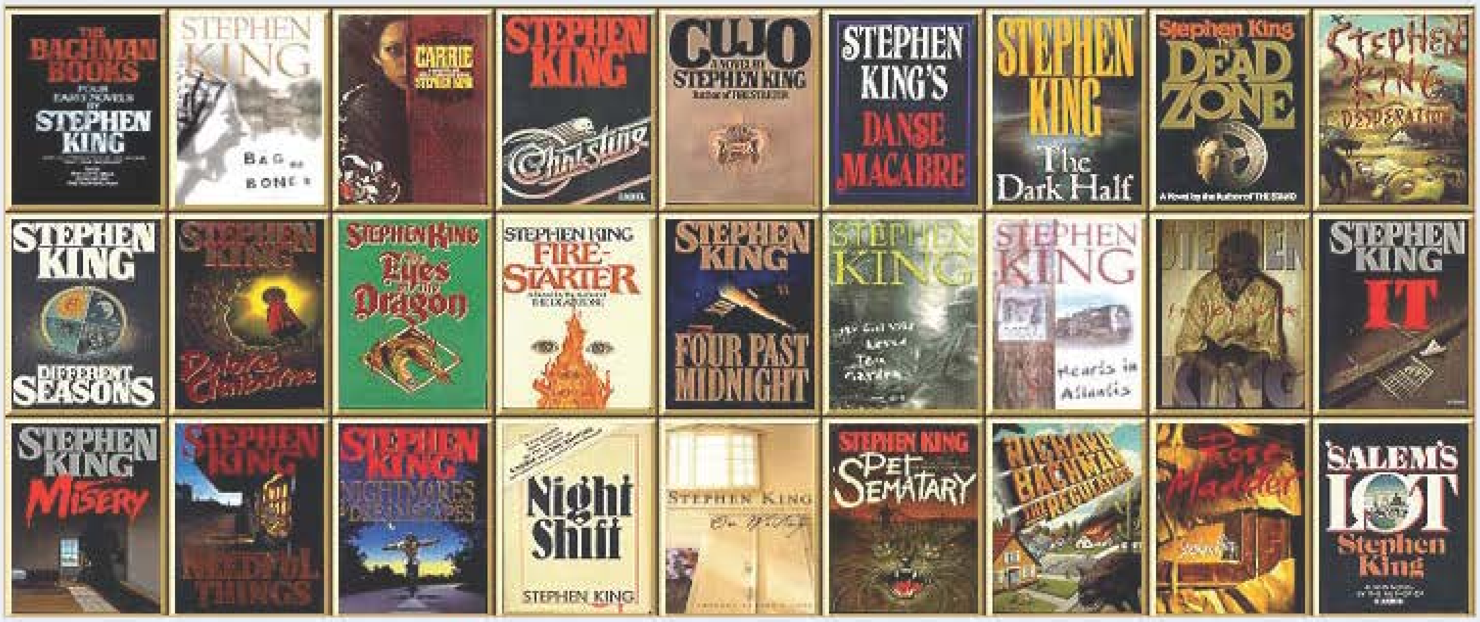
@nalzumal

العديد من القراء يعرفون الكاتب الشهير ستيفن كينغ ولكن القليلين فقط يعرفون عن قصة نجاحه التي تم اختيارها كأحد القصص الملهمة.

ويُعد ستيفن كينغ واحدًا من أكثر الكتاب إبداعًا و دهاءً في تاريخ البشرية، واتخذ من الرعب المعاصر، التشويق، الخيال علمي واللاعلمي محورًا لرواياته وقصصه. ولد في عام 1947 في بورتلاند، ماين، الولايات المتحدة، وقد تواجدت في حياته المشكلات العائلية بشكل كبير، حيث عانى ستيفن من طفولة صعبة بعد مغادرة والده دونالد ايدوين كينغ للعائلة عندما كان في الثانية من عمره تحت حجة «ذاهب لشراء علبة سجائر» الذي لم يعد بعدها، مما جعل والدته نيلي روث المعيل الوحيد له ولأخيه المتبنى دافيد.

كان ستيفن يقضي وقته في كتابة القصص وتجربة أفكار متنوعة، ويصّر على قراءتها بصوت عال أمام والدته، حتى إنه وخلال مرحلة الدراسة الثانوية كان يشارك في كتابة مقالات لنشرة كان يطبعها أخوه ديفيد بواسطة جهاز طباعة قديم، لكنه يتذكر قيامه ببيع قصص على أصدقائه ألفها بناء على أفلام سبق أن شاهدها، لكنه توقف عند ذلك بعد أن اكتشف أحد معلميه ذلك، وأجبره على إعادة أموال أصدقائه! لكنه يشير إلى أن أول قصة نشرت له كانت بعنوان: (كنت سارق القبر المراهق) في إحدى مجلات القصص المصورة غير المعروفة، وهو لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره! لكنه استمر في إصراره على الكتابة خلال دراسته الجامعية للأدب الإنجليزي، فكان يكتب زاوية شبه ساخرة في نشرة حرم الجامعة، ورغم تخرجه بشهادة تؤهله للعمل بصفته معلمًا، لم يجد وظيفة مناسبة، مما اضطره للعمل في وظائف متعددة، بيد أنه في النهاية استطاع الحصول على وظيفة معلم، ولكنه براتب منخفض، قبل بها على مضض، واستمر يعمل ليل نهار بالكتابة وتطوير قصصه دون نتيجة ملموسة، حتى كاد يقع في إدمان الكحول لولا وقوف زوجته «تابيثا سبروس» معه، وهي الفتاة التي تعرّف عليها في مكتبة الجامعة، وكان لها أثر أكبر على حياته.

ففي عام 1973 كان كينغ يكتب رواية بعنوان كاري Carrie عن فتاة غريبة الأطوار تمتلك قدرة تحريك الأجسام عن بعد، لكنه فجأة ألقى بمسودة روايته في سلة المهملات؛ لأنه لم يكن راضيًا عن تقدمه في الكتابة، لكن زوجته استعادت الرواية وأقنعته بإكمالها من جديد، وبعد مدة من إرسال الرواية إلى مجموعة من الناشرين؛ رد الناشر «دابولداي وشركاه» بالموافقة على النشر، وأرفق شيكًا بقيمة 2500 دولار! مما جعل كينغ وزوجته يقفزان من الفرح والسرور جراء هذا المبلغ الكبير الذي يصلهما لأول مرة، نشرت الرواية في عام 1974، ولكن المثير في الأمر أن الرواية بعد نجاحها الساحق حققت لمؤلفها 400 ألف دولار فقط من حقوق الطبع وحدها! كان كفيلاً بانطلاق المسيرة المذهلة لهذا الكاتب الرائع، وهنا دائمًا ما يستذكر كينغ بمزيد من الفخر اتصال ناشره عليه، ليخبره أنه بإمكانه الآن التفرغ للكتابة وترك مهنة التدريس إلى الأبد!



بالطبع لم يركن ستيفن كينغ لهذا النجاح الهائل، بل استمر وبسرعة مذهلة في إنتاج روايات متتالية، تتجاوز رواية واحدة في العام الواحد، وكل رواية لا يقل حجمها عن مئات الصفحات، وكل منها يتميز بفكرة مختلفة وحبكة مشوقة.

بدأت الصعوبات تطارد ستيفن إذ اضطر للانتقال بعائلته إلى منزل والدته التي أصيبت بالسرطان، وظلّ يراعاها طيلة النهار، بينما كان يقضي الليل في غرفة صغيرة في جراج المنزل، يكتب في روايته الثانية التي أسماها (العودة الثانية) قبل أن يقرر تغيير اسمها إلى (حشد سالم) وفيها يحكي عن قرية من مصاصي الدماء يقوم بزيارتها رجل وطفله الوحيد. وحين انتهت الرواية توفيت والدته.

المثير في الأمر أن إصرار ستيفن كان ينبع من قدرته على استلهام أفكار رواياته من الظروف والأماكن التي يمر بها، كما في رواية «مقبرة الحيوانات الأليفة» التي استلهمها من تجربة شخصية له عندما شاهد مقبرة حقيقية للحيوانات الأليفة في ولاية مين، أو رواية «البريق» التي تتحدث عن كاتب مجنون يقضي الشتاء مع عائلته في فندق مهجور، التي استوحاها من إقامته القصيرة في دينفر بولاية كولورادو، وتحولت إلى فيلم سينمائي ناجح من بطولة النجم جاك نيكلسون، بالطبع لم يعجبه الفيلم كعادة كثير من الروائيين، فأصر على أن يقوم هو بإخراجها بنفسه، فقام بتعلم الإخراج ليظهرها على شكل مسلسل تلفزيوني قصير لم يكتب له النجاح، فعاد بقوة من جديد إلى الميدان الذي يعرفه بقوة وهو الكتابة.

وهكذا وبعد توالي نجاحه الروائي أضحت شركات الإنتاج السينمائي تتسابق لإنتاج أفلام مقتبسة من رواياته المدهشة، التي زادت في النهاية من شعبيته، حتى صار النقاد والجمهور يلقبون ستيفن كينج بملك الرعب، برغم كثرة وتعدد مؤلفي روايات وقصص الرعب والإثارة.

يدرك ستيفن كينغ أن الإصرار والاستمرار هو سلاحه الأساسي في الحياة، فهو اليوم وبرغم تجاوزه عامه الـ66، وتضاعف رصيده بمقدار عشرة ملايين دولار أسبوعياً، فقط من إعادة طباعة رواياته، وتعرضه إلى حادث شبه مميت قبل سنوات؛ إلا أن نشاطه الأدبي ما يزال يتّقد، وما يزال يبهر جمهوره الواسع بإصدارات جديدة ومتنوعة، وما يزال يؤمن أن في جعبته الكثير ما دام إصراره مستمراً.

بيعت رواياته وقصصه أكثر من 350 مليون نسخة، وترجمت لأكثر من 35 لغة، واستطاع أن يحول أدب الرعب والخيال من فن ترفيهي للتسلية إلى أدب رفيع المستوى، شخوص وعوالم مختلفة، مساحات من الإنسانية ممزوجة بعالم الخيال والرعب بلغة ساحرة.

حصل كينج على عشرات الجوائز، ورشحت روايته The Way Station لجائزة نوبل عام 1980، ثم كانت الجائزة الكبرى بحصوله على وسام العطاء المميز في الآداب من المؤسسة الوطنية للكتاب في 2003 وبهذه الجائزة توّج ستيفن كينج بوصفه واحدًا من أهم وأشهر كتاب القرن العشرين على الإطلاق.

له أكثر من 120 كتاباً بين الرواية والقصة القصيرة والمسلسل، تم تحويل أكثر من 33 كتاباً منها إلى أفلام سينمائية، معظم أفلامه حققت نجاحًا في شباك التذاكر ونالت إعجاب النقاد.

كذلك له أفلام قصيرة وأفلام تلفزيونية ومسلسلات كثيرة ومتنوعة يتجاوز عددها الأربعين.

ستيفن كينغ تجارته الوحيدة هي الكتابة، اقتربت ثروته من الوصول إلى مليار دولار، وباع حتى الآن أكثر من 350 مليون نسخة من كتبه في أنحاء العالم بعد نشره لـ 50 رواية و حوالي الـ200 قصة قصيرة.

يمكنني أن أتخيل كيف يمكن لستيفن كينغ كتابة هذا الكم الهائل، وكيف صنع لنفسه عوالمه الخاصة الموسومة بالرعب والغرابة والغموض والخيال.

> ”لم يركن ستيفن كينغ لهذا النجاح الهائل، بل استمر وبسرعة مذهلة في إنتاج روايات متتالية، تتجاوز رواية واحدة في العام الواحد، وكل رواية لا يقل حجمها عن مئات الصفحات، وكل منها يتميز بفكرة مختلفة وحبكة مشوقة“

> ”بيعت رواياته وقصصه أكثر من 350 مليون نسخة، وترجمت لأكثر من 35 لغة، واستطاع أن يحول أدب الرعب والخيال من فن ترفيهي للتسلية إلى أدب رفيع المستوى، شخوص وعوالم مختلفة، مساحات من الإنسانية ممزوجة بعالم الخيال والرعب بلغة ساحرة“



الدولة السعودية ثبات وأمان



د. علي بن محمد العطيف

أستاذ الحديث والدراسات العليا
بجامعة الملك خالد

يُعد الأمن من أهم مطالب الحياة، بل لا تتحقق أهم مطالبها إلا بتوفره، حيث يعد ضرورة لكل جهد بشري، فردي أو جماعي، لتحقيق مصالح الأفراد والشعوب.

والتاريخ الإنساني، يدل على أن تحقيق الأمن للأفراد والجماعات الإنسانية، كان غاية بعيدة المنال في أوقات طويلة من التاريخ، وأن الأمن لم ينبسط على الناس في المعمورة إلا خلال أوقات قليلة.

ويعد الإسلام ومن خلال عقيدته الصحيحة مثالاً حيًّا وباقيًا على هذه القاعدة، فلم يكن الإسلام في بدايته، وحتى بعد تأسيس دولته الأولى، أقوى عدة وعتادًا وسلاحًا من قوى الإمبراطوريتين الرومانية أو الفارسية، اللتين عاصرتا بدء الإسلام.

وخلال مدة قليلة من الزمن، وفي القرن الأول الهجري، بدأ المنهج الإسلامي بصفاء عقيدته ووضوح أحكامه يُخلِّف – على المستوى العالمي – النظام الروماني القديم، واستطاعت قيم الإسلام ومفاهيمه، أن تسيطر على شعوب وأجزاء كبيرة من المعمورة، وأن تؤثر على بلاد وشعوب لم يصلها الإسلام، وهو أمر لا ينكره المنصفون من العلماء والمؤرخين.

يقول الكاتب الأمريكي برنارد لويس: "إنَّ الدول الإسلامية، قد تسقط أو تزول كدولة بالغزو العسكري، ولكن المجتمع يظل في حياته، محكومًا بقوانينه الإسلامية في معاملاته وعلاقاته ربما عشرات السنين، حتى تقوم الدولة من جديد، وهي تجربة مرت بها الدول الإسلامية التي خضعت للاستعمار عشرات السنين".

إنَّ تحقيق الأمن والحياة السعيدة في ظل العقيدة الصحيحة لا يتم في مجتمع مضطرب أو بيئة قلقة، وإنَّ العمل لا يتم والحضارة لا تزدهر والرخاء لا يسود إلا بمطلب لا بد منه ألا وهو الأمن والإيمان.

وفي العصر الحديث، ونتيجة للنهضة الأوروبية التي صاحبها تقدم علمي وفكري كبير، أصبحت الحضارة الأوروبية، أو حضارة الغرب بوجه عام، هي الظاهرة والسائدة في القيم والمفاهيم على أجزاء كثيرة من المعمورة، لا سيما بعد أن واكبت النهضة الأوروبية، حركة

كبرى للغزو والتوسع، شمل قارتي إفريقيا وآسيا، وشمل العديد من البلاد الإسلامية، مع ما تعيشه هذه النهضة من قلق وحيرة واضطراب وصراع نفسي أودى ببعضهم إلى الانتحار، وإلى النزوع وإلى الإجرام.

وسبق المد الحضاري غزوًا عسكريًّا مهد له، وتدل الشواهد على أن هذا التمهيد، كان مقصودًا ومدروسًا.

إنَّ السيطرة على الشعوب لا يمكن استدامتها عن طريق القهر لمدد طويلة، ولكن التأثير الحضاري والفكري، يمكن أن يمتد لمئات السنين، ويضمن بقاء النفوذ والسيطرة حضاريًّا وثقافيًّا وفكريًّا، وربما كان ذلك هو الأخطر والأشد ضررًا على أمن البلاد الإسلامية في العصر الحديث.

ولا بد لنا ونحن نتناول أهمية الأمن في الإسلام عامة، أن نشير إلى ما تعيشه المملكة العربية السعودية، من أمن وطمأنينة واستقرار وحياة كريمة وتعاون وتضامن بين أبنائها، وتكاتف والتفاف حول ولاة أمرها.

وذلك كله، بفضل الله، ثم بسبب تطبيقها لشريعة الله، وتحاكمها إليها، والتزامها بتوجيهات الإسلام، بدءًا من عقيدة التوحيد، وصرف جميع أنواع العبادة إلى الله وحده، وانتهاءً بكل خلق فاضل دعانا إليه ربنا في كتابه الكريم، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

إنَّ أثر تطبيق الشَّريعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله، على أمن واستقرار المملكة العربية السعودية، يدركه كل ذي بصيرة، وينعم في ظله الجميع.

لقد قامت هذه الدولة المباركة على أساس الدين ونشر العقيدة الصحيحة في أرجاء المعمورة ويظهر ذلك جليًّا في الحوار التاريخي بين الإمام محمد بن سعود رحمه الله والشيخ محمد بن عبدالوهاب في أول لقاء بينهما حيث قال الإمام محمد بن سعود: «أبشر ببلاد خير من بلادك، وأبشر بالعز والمنعة، فقال الشيخ محمد بن عبدالوهاب: وأنا أُبشرك بالعز والتمكين، وهذه كلمة (لا إله إلا الله) من تمسك بها وعمل بها ونصرها ملك بها البلاد والعباد، وهي كلمة التوحيد، وأول ما دعت إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم»[1].

قال ابن بشر رحمه الله: "ثم إنَّ محمدًا بسط يده وبايع الشيخ على دين الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، والجهاد في سبيل الله، وإقامة شرائع الإسلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"[2].

وعلى هذه المفاهيم العظيمة، والأحكام الجليلة قامت هذه الدولة فنصرها الله، وكتب لها الحب والتمكين والقبول في الأرض، وما زالت ولن تزال بإذن الله على ما كانت عليه.

وقد تحدث عن هذا الأمر وجَلاَّهُ المؤسس الأول الملك عبدالعزيز آل سعود في خطبة له في الطائف، فقال: "أما نحن فلا عز لنا إلا بالإسلام، ولا سلاح لنا إلا بالتمسك به، وإذا حافظنا عليه حافظنا على عزنا وسلاحنا، وإذا أضعناه ضيعنا أنفسنا وبؤنا بغضب من الله، وإنَّ الذي أريده وأطلبه منكم هو ما ذكرته لكم من التمسك بدين الله، وهذه طريقتي التي أسير عليها والتي لا يمكن أن أحيد عنها مهما تكلفت ..."[3].

وقال أيضًا: "... وإني أرى كثيرًا من الناس ينقمون على ابن سُعود، والحقيقة ما نقموا علينا إلا لاتباعنا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومنهم من عاب علينا التمسك بالدين وعدم الأخذ بالأعمال العصرية، فأما الدين فو الله لا أغير شيئًا مما أنزل الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا أتبع إلا ما جاء به، وليغضب علينا من شاء وأراد، وأما الأمور العصرية التي تعنينا وتفيدنا ويبيحها دين الإسلام، فنحن نأخذها ونعمل بها، ونسعى في تعميمها، أما المنافي منها للإسلام فإننا ننبذه، ونسعى جهدنا في مقاومته، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولا مَدنيَّةَ أفضل وأحسن من مَدنيَّةِ الإسلام، ولا عزَّ لنا إلا بالتمسك به"[4].

وما أشبه اليوم بالبارحة فقد حاول ثلة قليلة من المارقين آنذاك العبث بأمن البلاد والتشكيك في أنظمته وقيادته، وحاولوا ربط قضايا الأمة جميعًا بهذه البلاد، وهم يريدون بذلك أن يجعلوا الأرض الإسلامية والعربية مسرحًا للدم والإرهاب والقتل والجريمة، هذه طائفة من الشباب.

وطائفة أخرى من الشباب أُرسلوا من قِبل الدَّولة للدراسة وغير ذلك، فجاءوا – وللأسف الشديد – نُذر شؤم على بلادهم، قد امتلأت عقولهم وقلوبهم بحضارة الغرب وأنظمته، وأرادوا أن يُطبقوا ذلك كله بحذافيره، فماذا كان من المؤسس الأول رحمه الله تعالى إلا أن اجتمع بهؤلاء وغيرهم من الشباب، وقال لهم كلامًا رائعًا حكيمًا يكتب بماء الذهب، قال: "إنَّ الذي دعاني لجمعكم في هذا المكان هو النصح لكم، حتى لا يغتر السفيه بالحلم، ولا يسترسل في غوايته، وأحذركم من أمرين:

الأول: الإلحاد في الدِّين، والخروج عن الإسلام في هذه البلاد المقدسة، فو الله لا أتساهل في هذا الأمر أبدًا، ومن رأيتُ منه زيغًا عن العقيدة الإسلامية فليس له من الجزاء إلا أشده، ومن العقوبة إلا أعظمها.

الثاني: السفهاء الذين يسول لهم الشيطان بعض الأمور المخلة بأمن البلاد وراحتها، فهؤلاء شأني معهم شأن الدِّيناميت مع النار"[5].

وهكذا سلك أبناؤه من بعده على هذا المنهج القويم، فكان أبناؤه من بعده سعود، وفيصل، وخالد، وفهد وعبدالله، ثم سلمان (الحزم والعزم) يعلنون ذلك في كل محفل، ويطبقون الشريعة، ويلتزمون بأحكام الدين، وينفذون الحدود بكل قوة وحزم، ولا يأبهون بنقد الحاقدين، ولا دعاة الحضارة الزائفة، ولا المنظمات المريبة، لأنهم يدركون أن هذه الأحكام ربانية لا مساومة في تطبيقها، ولا مجال لمناقشتها أو تفضيل المذاهب البشرية عليها.

ودرج على ذلك خادم الحرمين الشريفين، وسمو ولي عهده الأمين، الأمير محمد بن نايف، اللذين جندا أنفسهما، ورجالهما، وبذلا جهودًا كبيرة في سبيل استمرار مسيرة هذه الدولة المباركة على نهج الآباء والأجداد، في إقامة الدين، وتطبيق الشرع، والدعوة إلى الله، وتوقير العلماء، وإكرامهم، وعون المسلمين أينما كانوا، فكان استمرار الأمن والاطمئنان، وعاش الناس حياة سعيدة مستقرة، إخوانًا في الله متحابين متعاونين، في ظل حكم صادق وعادل منصف.

ولأنَّ العقيدة والشريعة والعدل هي الأصول الكلية التي نهضت عليها هذه الدَّولة، فإنَّ تطبيق هذه الأصول يتمثل في التزام المنهج الإسلامي الصحيح في العقيدة والفقه والدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي القضاء، وفي العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وبذلك كانت الدَّولة السعودية نَموذجًا متميزًا، في السياسة والحكم في التاريخ السياسي الحديث.

وقد استمر الأخذ بهذا المنهج في المراحل التالية جميعًا، حيث ثبت الحكام المتعاقبون على شريعة الإسلام، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء[6].

قال جيرالد دي غوري: "لو أنَّ قافلةً أَسْقَطَت كيسًا في الصَّحراء فلا بد من العثور عليه بعد ستة أشهر في الموضع نفسه ... فالأمن في المملكة العربية السعودية مدهش، وهو أكثر شمولاً من أي بلد أوربي"[7].

وقال جورج أنطونيوس: "ولا نبالغ إذا قلنا إنَّ المملكة العربية السعودية قد بلغت في ضبط الأمن العام درجة قد تفوق جميع دول العالم، ولا يستثنى من ذلك أعرقها في الحضارة"[8].

وما كان ذلك ليتحقق للملك عبدالعزيز رحمه الله، لولا أنه حرص كل الحرص على تطبيق الشريعة وإقامة العدل. وكان إذا سئل عن دستور بلاده أجاب: دستورنا القرآن[9].

كذلك كان لتطبيق الحدود بأنواعها وفق الشريعة الإسلامية في مملكة الأمن والثبات أثره الحاسم في منع تكرار الجريمة، وإجبار المجرم على التفكير مئات المرات قبل أن يقدم على فعله، لأنه يعلم مقدَّمًا الحكم الذي سينزل به ومدى فاعليته[10].

المراجع:

1- عنوان المجد في تاريخ نجد: ابن بشر 15/1.
2- المرجع السابق 16/1 .
3- ينظر: كتاب المصحف والسيف، جمع وإعداد مُحيي الدين القابسي، ص 101.
4- المرجع السابق، ص 102.
5- كتاب المصحف والسيف لمحيي الدين القابسي ، ص 104 .
6- المرجع السابق ، ص 49 .
7- الملك عبدالعزيز، رؤية عالمية، د: سعد الحارثي، ص 270 .
8- المرجع السابق، ص 272
9- شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز، خير الدين الزركلي، 353/1 .
10- حالة الأمن في عهد الملك عبد العزيز، ص -125 126 ببعض التصرف.

الحركة الصهيونية ودورها في إعادة إنتاج الصور النمطية عن الشرق

د. حياة المتدين

المغرب

تحدثنا في مقال سابق عن الاستعمار الغربي ودوره في إنتاج صور نمطية عن الشرق، والحقيقة أنه لا يمكن الحديث عن الإمبريالية الغربية دون التطرق للحركة الصهيونية وزرع إسرائيل في قلب العالم الإسلامي، فقد لعب قيام الدولة الصهيونية في فلسطين دورًا أساسيًا في إعادة إنتاج هذه الصور النمطية عن الشرق، وتثبيتها وإيجاد صورًا جديدة، لخدمة مصالحها ووجودها.

وليس الهدف من هذه الفقرة دراسة الصهيونية بوصفها فكرة وحركة يهودية، إنما نبحث في علاقتها بالفكر المسيحي الغربي، وجذورها في التاريخ الأوروبي، وبعده التاريخ الأمريكي، ومعرفة إلى أي مدى ترتبط بالإمبريالية؟ وكيف تتلاءم مع طروحات الاستشراق؟

يُعد موسى هس الألماني اليهودي Moses Hess (1812م - 1875م) أول من نظر للصهيونية ودعا إليها في كتابه "روما والقدس" الذي صدر سنة 1962 م بدأ هس أول الأمر بالدعوة إلى اندماج اليهود بالحياة في المجتمعات التي يعيشون فيها، وإلى أن الدين اليهودي قد مات، وأن المسيحية هي دين العصر، ثم اعتنق الشيوعية وصاحب ماركس وانجلز، ثم تركها واتجه نحو فكرة الصهيونية. وقد ردد في كتابه حكمًا عنصريًا ضد المشرق مماثلاً لما راج في القرن التاسع عشر من أفكار، يقوم على افتراض التفوق العنصري، وعلى وضع قوالب ذهنية سالبة عن الشعوب الأخرى، يقول في هذا الصدد: " إن تاريخ الإنسانية أصبح مقدسًا من خلال اليهودية التي هي أساس الحضارات والأديان، واليهود وحدهم بين الشعوب قادرون على السمو، لأنهم يمتلكون، بوحي من روح الله، موهبة مميزة في الرؤى الاجتماعية"[1].

ويمضي هس بتبنيه مفاهيم القرن التاسع عشر العنصرية، وقبوله لحجة "رسالة التحضر" في قوله: "ثمة مهمة كبرى محجوزة لكم أيها اليهود، أن تكونوا صلة وصل حية بين قارات ثلاث، عليكم أن تكونوا حملة الحضارة لشعب آسيا البدائي، عليكم أن تكونوا الوسطاء بين أوروبا وآسيا البعيدة، وأن تفتحوا الطريق إلى الهند والصين، تلك الأصقاع المجهولة التي يجب أن تفتح على مصاريعها نهاية المطاف للحضارة"[2].

وهو لا يخفي أهدافه الاستعمارية، ولا حتى أفكاره العنصرية، فيضيف: "إن أهالي هذه الأصقاع الأصليين، هؤلاء القطعان البهيمية من الأعراب والأفارقة. - على حد تعبيره - الذين يعيشون في أرض يجب ألا يرثها إلا اليهود، سوف لن يستشاروا، وينبغي أن يفرض المستوطنون عليهم فرضا"[3].

كما أصدر هس كتابًا باللغة الألمانية أسماه "بعث إسرائيل"، دعا فيه إلى قومية يهودية لتحرير القدس، وعودة اليهود إلى وطنهم القديم، حيث يقول: "إن الأمم المسيحية لن تعارض إطلاقًا إنشاء وطن لليهود في فلسطين، طالما أن ذلك يضمن لها التخلص من شعب غريب، شاذ يسبب لها المشكلات الكثيرة، إن من مصلحة فرنسا أن يستوطن الطريق التجاري المؤدي إلى الهند والصين شعب موال تمامًا لمصالحها الاقتصادية والحضارية، وستكون فرنسا صديقتنا المخلصة التي ستعيد لشعبنا مكانته في تاريخ العالم"[4]. فقد كان يعتقد أن فرنسا هي من ستدعم توطينهم، في حين، كانت بريطانيا هي التي وطنتهم وأمريكا رعت مصالحهم -وما زالت- وقد مهد "هس"

بأفكاره هذه لقيام الحركة الصهيونية، فقد جاء تلميذه ثيودور هرتزل (1860م - 1904م) الصحفي النمساوي اليهودي، ليؤسس الحركة الصهيونية الحديثة، فهو الذي وضع الأسس العقائدية للصهيونية السياسية في كتابه "الدولة اليهودية"، الذي أصدره سنة 1896م. وقد أثار نشر هذا الكتاب مناقشات حادة استمرت مدة طويلة، وكان معارضوه من اليهود يفوقون مؤيديه، فقد وجد اليهود الذين نجحوا في الاندماج في مجتمعاتهم في أوروبا وأمريكا في كتاب هرتزل تشكيكًا في ولائهم لأوطانهم، أما رجال الدين اليهودي فرأوا في أفكار هرتزل خروجًا عن اليهودية، فحسب العقيدة اليهودية، المسيح المنتظر هو من سيعيد يهود العالم إلى أرض الميعاد. في حين عارض اليهود الاشتراكيون فكرة الدولة اليهودية، بوصفها "ردة حضارية" أن يتم تأسيس دولة على أساس الدين، كما كان الحال في العصور القديمة.

ويؤكد روجيه جارودي في كتابه: "الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية"، أن الصهيونية حركة سياسية وعقيدة قومية، لم تولد من اليهودية، بل من القومية الأوروبية في القرن التاسع عشر، فهرتزل نفسه صرح أنه لا ينقاد لأي دافع ديني[5]. كما أنه لم يهتم بالأرض المقدسة بوجه خاص، فقد كان مستعدًا ليقبل بأي أرض لتحقيق أهدافه القومية، حيث يقول في كتابه "الدولة اليهودية":

"وهناك الآن منطقتان موضوعتان في الاعتبار: فلسطين والأرجنتين"[6]. لكن أمام معارضة أصدقائه اليهود، فإنه يعي أهمية أسطورة أرض الميعاد، فيستغلها لجمع الشتات:

"هل نختار فلسطين أم الأرجنتين؛ إننا سنأخذ ما يعطى لنا، وما يختاره الرأي العام اليهودي، وسوف تقرر الجمعية كلا الأمرين. إن الأرجنتين من أكثر بلاد العالم خصوبة، وهي تمتد على مساحات شاسعة، وفيها عدد قليل من السكان، ومناخها معتدل، وجمهورية الأرجنتين سوف تحصل على مكاسب كبيرة إذا تنازلت لنا عن قطعة من أراضيها ولعل التسلسل الحالي لليهود قد أثمر بعض الاستياء، ومن الضروري أن نوضح للجمهورية أن الحركة الجديدة تختلف اختلافًا جوهريًا. أما فلسطين فإنها وطننا التاريخي الذي لا تمحى ذكراه، إن اسم فلسطين، في حد ذاته سيجتذب شعبنا بقوة ذات فعالية رائعة، فإذا منحنا جلالة السلطان فلسطين سنأخذ على عاتقنا بالمقابل تنظيم مالية تركيا، ومن هنا سنشكل جزءًا من استحكامات أوروبا في مواجهة آسيا بوصفها موقعًا أماميًا للحضارة في مواجهة البربرية وعلينا كدولة طبيعية أن نبقى على اتصال بكل أوروبا، التي سيكون من واجبها أن تضمن وجودنا"[7].

وبعد أن فشل هرتزل في إغراء السلطان العثماني والقيصر الألماني بتأييده فكرته ودعمه، توجه إلى إنكلترا فقد أعلن أمام المؤتمر الصهيوني الرابع الذي انعقد بلندن سنة 1900 قائلاً: "إن الصهيونية ستمضي من هذا المكان صعدًا إلى أعلى فأعلى.. وإنجلترا، إنجلترا الجبارة، إنجلترا الحرة، بمنظورها الذي يحتضن العالم وقوتها العسكرية، ومصالحها الاقتصادية التي تحتضن العالم، هي التي ستفهمنا وتفهم مطامحنا، وإننا لعلى ثقة أن الفكرة الصهيونية، وإنجلترا نقطة انطلاق لها سترتفع شاهقًا إلى أعلى مما بلغته في الماضي على الإطلاق"[8].

وكانت الظروف السياسية والثقافية قد مهدت الطريق لهرتزل لإطلاق مشروعه القومي الصهيوني، فقد ظهرت العديد من الكتابات التي كانت نتاجًا طبيعيًا للثقافة والمناخ الديني السائدين في ذلك الوقت، مثل البحث الذي وضعه السير "هنري فنش" Henry Finch المستشار القانوني لملك إنجلترا، ونشره عام 1621م بعنوان "الاستعادة العظمى العالمية، «The words Great Restoration»، واعتبر أول المشروعات الإنجليزية لاستعادة فلسطين لليهود، حيث طالب الأمراء المسيحيون بجمع قواهم لاستعادة إمبراطورية الأمة اليهودية[9].

وقد قويت في القرن الثامن عشر الاتجاهات الصهيونية، وكانت وراء التعاطف مع اليهود في أوروبا البروتستانتية، "وقد طرحت فرنسا لأول مرة خطة لإقامة كومونولث يهودي في فلسطين، مقابل القروض اليهودية للحكومة الفرنسية، ومساهمة اليهود في تمويل حملة نابليون بونابرت لاحتلال المشرق العربي بما فيه فلسطين"[10].

وظهرت في القرن التاسع عشر دعوات سياسية ودينية جديدة، ساهمت في تهيئة الظروف المناسبة لولادة الصهيونية السياسية "ويعد اللورد بالمر ستون (1784 – 1865) Palmerston وزير خارجية إنجلترا، ورئيس وزرائها فيما بعد، من أشد المتحمسين لتوطين اليهود في فلسطين، وكان يعتقد أن بعث الأمة اليهودية سيعطي القوة للسياسة الإنجليزية"[11].

وكان لورنس أوليفانت (Lawrence oliphont) رجل دين، وعضو البرلمان الإنجليزي والصحفي، من أبرز الدعاة لتوطين اليهود في فلسطين، وقد أصدر كتابًا عام 1880م سماه أرض جلعاد (The land of Gilead) ضمنه آراءه وأفكاره بخصوص توطين اليهود في فلسطين، وفي الضفة الشرقية في الأردن، ودعا إلى طرد العرب مثلما حدث للهنود الحمر في الولايات المتحدة الأمريكية، لأنهم على حد قوله غير جديرين بأي معاملة إنسانية[12].

وأيضًا القس ويليام هشلر (1845 – 1931) William Hishler الذي أيد المشروع الاستيطاني اليهودي في فلسطين، وجمع الأموال لمساعدة اليهود على الاستيطان، "أصدر في عام 1894م دراسة سماها "استعادة اليهود لفلسطين (the Restoration of the jews to palestine) تحدث فيها عن الحاجة إلى إعادة اليهود إلى فلسطين وفقًا لنبوءات العهد القديم"[13].

وقد نشأت بين هشلر وهرتزل صلات عميقة جدًا، كما كان هشلر أول من قدم إلى هرتزل خريطة فلسطين

"وكانت الظروف السياسية والثقافية قد مهدت الطريق لهرتزل لإطلاق مشروعه القومي الصهيوني، فقد ظهرت العديد من الكتابات التي كانت نتاجًا طبيعيًا للثقافة والمناخ الديني السائدين في ذلك الوقت، مثل البحث الذي وضعه السير "هنري فنش" Henry Finch المستشار القانوني لملك إنجلترا، ونشره عام 1621م بعنوان "الاستعادة العظمى العالمية، «The words Great Restoration»، واعتبر أول المشروعات الإنجليزية لاستعادة فلسطين لليهود، حيث طالب الأمراء المسيحيون بجمع قواهم لاستعادة إمبراطورية الأمة اليهودية"

"لقد تم دائمًا استغلال الأديان لإضفاء صفات القداسة على عمليات النهب والقتل والاستعمار، وكما استغل الصليبيون فكرة حماية قبر المسيح استغل الصهاينة فكرة العودة للأرض المقدسة"

"لقد أثبت الصهاينة أنهم يتقنون فن الاتصالات، ويبرعون في عرض وجهة نظرهم، في حين لم يكن العرب كذلك، لقد استطاع الصهاينة القيام بحملات مستمرة في وسائل الإعلام، تبني صورًا إيجابية عن إسرائيل الصهيونية، في مقابل دس قوالب ذهنية سلبية عن العرب المسلمين"

بحدودها من الفرات إلى النيل، كما جاء إلى مؤتمر بازل عام 1897م بصحبة هرتزل، معتبرًا نفسه سكرتيرًا للمسيح المنتظر[14].

وخلاصة القول: إن التأثير الثقافي والفكري والديني على الفكر الأوروبي، خاصة الإنجليزي، وأيضًا انتشار معتقدات البروتستانت المؤمنة بعودة المسيح الثانية، وبناء مملكة الألف عام السعيد، وأيضًا الرغبة في التخلص من اليهود بعدما فشل مارتن لوثر في تنصيرهم، إضافة إلى ظهور الأطماع الإمبريالية الغربية في المشرق العربي، واتخاذ من فكرة توطين اليهود وسيلة للتدخل في المنطقة، كل ذلك لعب دورًا أساسيًّا في تحضير إنجلترا خصوصًا، لقبول الصهيونية اليهودية السياسية، ودعمها. وقد جاءت دعوة هرتزل لعقد أول مؤتمر صهيوني على مستوى يهود العالم في بازل سويسرا سنة 1897م، واستطاع أن يقول، وعن حق، في نهاية هذا المؤتمر: لقد أسست الدولة اليهودية[15].

وفي وقت انعقاد مؤتمر بازل نفسه، انعقد مؤتمر مونتريال في أمريكا، وتم التصويت على قرار يشجب تمامًا أي مبادرة تهدف إلى إنشاء دولة يهودية، وأن أي محاولة من هذا القبيل، تكشف عن مفهوم خاطئ لرسالة إسرائيل[16]. و توالت ردود الأفعال للمنظمات اليهودية المعارضة للصهيونية السياسية، وإقامة وطن قومي لليهود.

فقد اعترض الباب بيوس العاشر سنة 1904 م على الحركة الصهيونية وهجرة اليهود إلى فلسطين، ثم اعترضت الكنيسة الكاثوليكية على وعد بلفور عام 1917م، وزيادة هجرة اليهود إلى فلسطين. "ونجد كلا من صايغ والأب جوناثان شيرمان، يؤكدان على أنه حسب النبوءات الرسولية، تحققت عودة اليهود إلى فلسطين عندما تم تدمير إسرائيل ويهوذا عام 586 قبل الميلاد، وعليه فليس هناك عودة في انتظار التحقيق"[17].

من ناحية أخرى يقول الحاخام "المر بيرغر": إن النبوءات القديمة لا تؤيد دعاوى الصهيونية السياسية في كل فلسطين أو في جانب منها، ويؤكد "بيرغر" أن المقولة التوراتية التي يطرحها الصهاينة بالنسبة للأرض المقدسة، إنما تستخدم من باب الدهاء والذرائع السياسية، إذ إن احتلال فلسطين عام 1948م، فضلاً عن الطرق التي تم بها، وإيجاد دولة إسرائيل، إنما تتعارض مع وصايا التوراة[18].

كما أن دولة إسرائيل - على حد قول الأب جان ماري لامير - "هي أبعد ما تكون عن أنها وعد الله أو شعب الله المختار، الذي يعود إلى أرضه بعد ألفي عام، وإنما هي ثمرة الصراعات السلطوية بين فرنسا وبريطانيا العظمى في المنطقة، ثم إنها رأس الحربة التي يوجهها الغرب في قلب الشرق الأوسط بالمساندة الكاملة من الولايات المتحدة والاتفاق الكامل المؤكد مع الأحزاب الحاكمة في إسرائيل"[19].

لقد تزاوجت المعتقدات الدينية بضرورة عودة اليهود إلى فلسطين، بالأهداف السياسية والإستراتيجية للدول الاستعمارية في تلك الحقبة مما أوجد المناخ المناسب لولادة الحركة الصهيونية السياسية لليهود الهادفة إلى تحقيق المشروع الصهيوني بتجميع يهود العالم في وطن قومي لهم في فلسطين واكتساب الاعتراف والدعم الدوليين لهذا المشروع.

لقد تم دائمًا استغلال الأديان لإضفاء صفات القداسة على عمليات النهب والقتل والاستعمار، وكما استغل الصليبيون فكرة حماية قبر المسيح استغل الصهاينة فكرة العودة للأرض المقدسة، يقول المسيري في موسوعته: "فتاريخ الحركة الصهيونية ليس جزءًا من تاريخ يهودي عالمي وهمي، ولا هو جزء من التوراة والتلمود (رغم استخدام الديباجات التوراتية والتلمودية) وإنما هو جزء من تاريخ الإمبريالية الغربية، ولذا فالصهيونية لم تظهر في العصور الوسطى على سبيل المثال إنما في أواخر القرن السابع عشر مع ظهور التشكيل الاستعماري الغربي وبدايات استيطان الإنسان الغربي في العالم الجديد وفي بعض المدن الساحلية في إفريقيا وآسيا"[20].

فالصهيونية إذن هي وليدة الفكر الاستعماري الغربي وأداته في المنطقة وللتدليل على ذلك يذكر المسيري أن "المؤسس الحقيقي للوبي الصهيوني في الولايات المتحدة (بالمعنى العام غير الشائع الذي نطرح) هو وليام بلاكستون (1891م - 1935م) الصهيوني غير اليهودي، الذي أرسل عام 1891م التماسًا إلى الرئيس الأمريكي هاريسون يحثه فيه على إعادة فلسطين لليهود، وقد وقع على هذا الالتماس عدد من الشخصيات المسيحية واليهودية، لكن كان هناك معارضة يهودية قوية لمثل هذه الاتجاهات الصهيونية"[21].

وقد كان على يقين أن الدول التي عادت السامية سوف تسانده كتكفير عن عنصريتها، ولم يكن يعلم أن ألمانيا بإبادتها لبعض اليهود، سوف تقدم لهم واقعة أكثر من عنصرية، استطاعوا استغلالها أحسن استغلال لدفع الغرب لمساندتهم ودعمهم يقول في كتابه: "إن الحكومات في جميع البلاد التي انتقدت بسبب العداء للسامية سوف تكون حريصة على مساعدتنا للحصول على السيادة التي نريدها"[22].

وقد وظف الصهاينة واقعة الإبادة في خدمة أهدافهم وفي ابتزاز الحكومات وتبرير الغزو والاستيطان والإرهاب. وفي هذا الإطار يرى المسيري أن الإبادة النازية لليهود لم تكن نمطًا خاصًا بالألمان، بل كانت تعبيرًا عن نمط إبادي عام بدأ منذ عصر النهضة في الغرب وفي أمريكا الشمالية، وحدث أيضًا في الفيتنام والشيشان، ولعل أكبر دليل على أن النازية جزء أصيل من الحضارة الغربية هو أن الرد الغربي على معسكرات الاعتقال والإبادة لليهود، لم يكن مغايرًا في بنائه وفي سماته الجوهرية للجريمة النازية، فالغرب يحاول حل المسألة اليهودية بإنشاء الدولة الصهيونية على جثث الفلسطينيين "والغرب الذي أفرز هتلر وغزواته هو نفسه الذي نظر بإعجاب إلى الغزو الإسرائيلي لجنوب لبنان وبيروت وأنحاء أخرى من العالم العربي... إن الحضارة الغربية قد أفرزت الإمبريالية والنازية والصهيونية"[23]. إنها العقلية الإمبريالية البشعة للاستعمار الغربي، والتي لا يمكن فهم الإيديولوجية الصهيونية كما يقول مكسيم ردنسون، إلا كجزء لا يتجزأ منها و"بالضرورة فالحركة التي تطورت من هذه الإيديولوجية لابد أن ترتبط بالإمبريالية، وأنها لكي تحقق أغراضها لابد لها أن تخرج عرب فلسطين من ديارهم"[24].

لقد تحولت مفاهيم العنصرية والاستعلاء في الفكر الصهيوني إلى مشروع سياسي استعماري أنتجته الدول الأوروبية ودعمته أمريكا فأصبحت إسرائيل أداة استعمارية غاصبة، "إن إسرائيل بالنسبة للولايات المتحدة كنز إستراتيجي أو دولة وظيفية في مصطلحنا"[25]. ومن هذا المنطلق فإن الدعم الأمريكي لإسرائيل هو دعم مطلق، ويستنكر جون اسبوزيتو على أمريكا تغاضيها عن الجرائم البشعة التي ترتكبها إسرائيل ضد الشعب الفلسطيني ويرى أنه "بدلاً من العقوبات الاقتصادية تتلقى إسرائيل أربعة بلايين دولار سنويًا من الولايات المتحدة، ويذهب مبلغ 400 مليون دولار من المساعدات للإسهام في توطين اليهود القادمين من الاتحاد السوفييتي في الأراضي التي تحتلها إسرائيل.. وبالإضافة إلى ذلك فقد صوتت الولايات المتحدة باستمرار بالفيتو ضد كل محاولات مجلس الأمن لإدانة إسرائيل"[26].

كل هذا يزيد من عمق الشرخ في العلاقة بين الشرق والغرب" لاسيما أن قيم العدالة والإنصاف التي يدعي الغرب تبنيها تسقط كلما تعلق الأمر بدولة إسرائيل، وتفقد العلمانية أي مصداقية في الخطاب الغربي"[27].

وإنه لمن الجلي تلك العلاقة العضوية التكافلية بين القومية الأوروبية والإمبريالية والمطامح الصهيونية، والتي تطورت ثم تركزت تدريجيًا في الأهمية الرمزية والسياسية، لتأسيس دولة صهيونية في فلسطين، وبعد احتلال الصهاينة لإسرائيل، لم يتوقفوا عن تقديم أنفسهم بصفتهم أذكياء ومتفوقين على أهالي البلاد الأصليين الذين هم بنظرهم برابرة ومتخلفون.

ففي كتابه " اغتصاب فلسطين" قام اليهودي الصهيوني وليام زف بتركيب قوالب ذهنية عنصرية لوصف العرب، أما الإسلام فقد وصفه بأنه "مليء بالمستويات الخلقية الحقيرة والخرافات والجهل المتعصب". وعلى الضد من "القطعان البربرية" العربية على حد تعبيره، نجده يصور اليهود أذكياء، متفوقين، وخير من خلق للاستعمار على وجه الأرض"[28].

ففي افتتاحية لمجلة تايم لسنة 1970م تصف إسرائيل فتقول: "إن إسرائيل قوة ديمقراطية، عصرية، ومدعاة استقرار في هذه الزاوية الفوضوية والمتخلفة تخلفًا قاسيًا من زوايا العالم، لقد أوجد الإسرائيليون أمة وأزهروا الصحراء، فلهذا كسبوا الحق بوجود قومي وزيادة، وإسرائيل تحتاج إلى مساعدة الولايات المتحدة لتبقى، فإذا كان لإسرائيل يوم أن تسقط فسيلحق هذا ضرر بمصالح الولايات المتحدة"[29].

وقد ساهم تشويه الصهاينة لصورة العرب على هذا النحو في استمرار وتثبيت الصور الاستشراقية القديمة، وقد وجدت جانيس تيري في دراستها للاتجاهات الصهيونية حيال العرب، كما تعكسها نشراتهم الموجهة إلى الجماهير الغربية، أن الصهاينة قد جردوا الفلسطينيين من إنسانيتهم بشكل يحط من قدرهم، وثبتوا الصور القديمة التي روجها المستشرقون، مثلاً نجد في المجلة الشهرية "كومنتري" وهي مجلة ذات نفوذ تصدر في الولايات المتحدة الأمريكية، أن مجمل الصور التي يضعها الصهاينة عن العرب هي صور قوالبية منمطة، يظهر فيها العرب جبناء، متخلفين، عنيفين، غرباء، وأساليب حياتهم مشابهة إلى حد كبير لتلك التي تنشر في مجلات السفر عن الأماكن المستطرفة الغرابة، كما أن تاريخهم يوصف بأنه سجل للغزو والحرب المتواصلة[30].

لقد أثبت الصهاينة أنهم يتقنون فن الاتصالات، ويبرعون في عرض وجهة نظرهم، في حين لم يكن العرب كذلك، لقد استطاع الصهاينة القيام بحملات مستمرة في وسائل الإعلام تبني صورًا إيجابية عن إسرائيل الصهيونية في مقابل دس قوالب ذهنية سلبية عن العرب المسلمين، وهو ما يؤكده ميخائيل سليمان، في قوله: "إن ظهور الحركة الصهيونية والنزاع على فلسطين وتفاقم المصالح الإمبريالية والاستعمارية فضلاً عن سذاجة العرب في العلاقات العامة والسياسة الدولية معًا، قد ساهمت في هذا المنظور السقيم.. يضاف إلى ذلك أن بوسع الصهيونية أن تقول: إن وجود دولة يهودية سيكون بمثابة الحامي الأفضل للمصالح الإمبريالية، عندئذ يمكن النظر إلى العرب على أنهم بدو يمكن الاستغناء عنهم"[31].

فليس من المستغرب إذن أن تتبنى وسائل الإعلام الغربية مثل هذه الصور بالنظر للصلة الحميمية التي تربط الأهداف الأمريكية الأوروبية بأهداف الصهيونية خلال القرن الماضي وما بعده.

تعودت في نهاية كل بحث يرصد علاقة تاريخية بين الإسلام والغرب أن أبحث عن جوانب مضيئة في تلك التجربة، نستطيع من خلالها أن نفتح صفحة جديدة للتعايش، وأن نبحث عن سبل للقاء بدل التركيز على أسباب النزاع والصراع، وأخشى أنني في تجربة الاستعمار والحركة الصهيونية ألا أجد جانبًا مضيئًا. فالاستعمار على كل المستويات وبكل المعايير هو تجربة مقيتة بشعة ضد الإنسانية، والصهيونية أيضًا حركة عنصرية غاصبة ومحتلة ومع أن مالك بن نبي اعتبر أن "الاستعمار يعد من الوجهة التاريخية نكسة في التاريخ الإنساني"[32]. فقد استطاع أن يجد فيه نقطًا إيجابية قد تنفع العالم العربي، فيقول: "ولكن ذلك لا يدفعنا إلى أن نحسبه شرًا كله.. فيجب أن نعترف بأنه أيقظ الشعب الذي استسلم لنوم عميق.. والتاريخ قد عودنا أن كل شعب يستسلم للنوم، فإن الله يبعث عليه سوطًا يوقظه"[33]. وقد اعتمد في تحليله هذا على تجربة ألمانيا. فقد كتب في خاتمة فصل الاستعمار والشعوب المستعمرة (وكان ذلك سنة 1957م):

"ولابد لنا في خاتمة هذا الفصل أن نورد تجربة قريبة منا وواقعة تحت أنظارنا، وهي أيضًا في متناول المقاييس العملية، هذه التجربة هي ما حدث في ألمانيا عقب الحرب العالمية الثانية، تلك الحرب التي خلفت وراءها ألمانيا عام 1945م قاعًا صفصفًا حطمت فيها كل جهاز للإنتاج، ولم تبق لها من شيء تقيم على أساسه بناء نهضتها، وفوق ذلك فقد تركتها لتصرف شؤونها تحت احتلال أربع دول. فلما بدأ النشاط يسري في نفس الشعب الألماني في مستهل سنة 1948م، كان ساعتئذ في نقطة الصفر من حيث المقومات الاقتصادية الموجودة لديه، واليوم، وبعد عشر سنوات تقريبًا نرى معرض ألمانيا يفتح أبوابه بالقاهرة، في شهر آذار (مارس) 1957م، فتذهلنا المعجزة، إذ ينبعث شعب من الموت والدمار، وينشئ الصناعات الضخمة التي شهدناها"[34].

ويبدو أنه كان متفائلاً جدًا، وربما كان يتوقع أنه بعد عشر سنوات أخرى قد تكون التجربة العربية قريبة من التجربة الألمانية، ولم يتوقع أنه بعد مرور نصف قرن، أن يبقى العالم العربي والإسلامي في مكانه لا يفارقه، وأن يظل ساخطًا على الاستعمار يعلق عليه إخفاقاته.

لا شك أن الاستعمار أنهك الشعوب العربية واستنزف ثرواتها، "إلا أن ذلك ينبغي ألا يجعلنا ننسى أنه لا يمكن استعمار ما هو غير قابل للاستعمار"[35].

وهذا لا يعني إسقاطًا لتبعة الاستعمار أو نفي لما ألحق بالشعوب، التي ابتليت به لكن يعني وضع هذا العامل في موضعه من سلم السقوط، فقد حل الاستعمار بكثير من البلدان غير العربية وغطى أغلب أجزاء الأرض في آسيا وأمريكا وكندا وأستراليا، ثم تحررت البلاد المستعمرة، ومع ذلك لم تجعل منه مشجبًا تعلق عليه ضعفها وتخلفها، بل انصرفت إلى بناء صرحها من جديد.

ولم يعد القول بالاستعمار أو التبعية يحظى اليوم بكثير من المصداقية، ذلك أن الحقبة الزمنية التي يتعين أن يتخذ فيها من الاستعمار تفسيرًا للتخلف قد انتهت، و"مهما يكن من أمر التآمر الخارجي واتساعه ووتيرته، فإن الأسباب الداخلية مسؤولة في معظم الأحيان"[36].

الهوامش:

(1) انظر: حلمي خضر ساري، صورة العرب في الصحافة البريطانية، مركز دراسات الوحدة العربية، 1999م،ص 138..
(2) المرجع السابق 138.
(3) نفس المرجع.
(4) نفس المرجع، ص 139.
(5) رجاء جارودي، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ترجمة قسم الترجمة بدار الغد العربي، ط 7، 1996 م. ص 18.
(6) تيودور هرتسل، الدولة اليهودية، ترجمة مؤسسة الأبحاث العربية، ص 22.
(7) المرجع السابق ،ص 23.
(8) عن حلمي خضر ساري، صور العرب الصحافة البريطانية، مرجع سابق، ص 145.
(9) يوسف الحسن، البعد الديني في السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي الصهيوني، دراسة في الحركة المسيحية الأصولية الأمريكية، مركز دراسات الوحدة العربية، ص 24.
(10) المرجع السابق، ص 26.
(11) أمين عبدالله محمود، مشاريع الاستيطان اليهودي منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، عالم المعرفة، عدد 74،ص 19.
(12) انظر: يوسف الحسن، البعد الديني في السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي الصهيوني، دراسة في الحركة المسيحية الأصولية الأمريكية، مركز دراسات الوحدة العربية، ص 29.
(13) المرجع السابق، ص 30.
(14) المرجع السابق.
(15) رجاء جارودي، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، مرجع سابق، ص 20.
(16) المرجع السابق، ص 20.
(17) عبد الله عبد المحسن السلطان، البحر الأحمر والصراع العربي الإسرائيلي، مركز دراسات الوحدة العربية، 1988م. ص 63.
(18) نفس المرجع.
(19) زينب عبدالعزيز، محاصرة وإبادة موقف الغرب من الإسلام، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ط1، 1993م،ص 198.
(20) عبد الوهاب المسيري، الموسوعة الموجزة. ص 324.
(21) المرجع السابق.
(22) ثيودور هرتسل، الدولة اليهودية، ترجمة مؤسسة الأبحاث العربية. ص 21.
(23) عبد الوهاب المسيري، الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ، رؤية حضارية جديدة، دار الشروق، ص 15.
(24) عن حلمي خضر ساري، صورة العرب في الصحافة البريطانية، مرجع سابق، ص 131.
(25) عبد الوهاب المسيري، الموسوعة الموجزة، مرجع سابق، ص 324.
(26) جون اسبوزيتو، التهديد الإسلامي خرافة أم حقيقة، ترجمة قاسم عبده. دار الشروق. القاهرة.2001م، ص 348.
(27) جورج قرم، شرق وغرب، الشرخ الأسطوري، دار الساقي. ط 2003م، ص 125
(28) حلمي خضر ساري، صورة العرب في الصحافة البريطانية، مرجع سابق، ص 162.
(29) المرجع السابق ،ص 103.
(30) المرجع السابق ،ص 163.
(31) ميخائيل سليمان، صورة العرب في عيون الأمريكيين، ترجمة عطا عبد الوهاب، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت 1987، ص 26.
(32) مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الفكر، سورية، ط 4، 1987م، ص 152.
(33) المرجع السابق، ص 153 . 154.
(34) المرجع السابق، ص 147 . 148.
(35) فريدون هويدا، الإسلام المعطل، ترجمة ونشر الملتقى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2004م، ص 10.
(36) المرجع السابق، ص 12.

الثقافات الوافدة

والعولمة والهوية العربية



لواء أ.د.عبد المقصود حجو

أستاذ زائر بالجامعات المصرية والعربية - مصر

1.عام

تجابه الأمة العربية – في مستهل القرن الحالي – بالكثير من التحديات في شتى الميادين سواء الثقافية والاجتماعية والإقتصادية والسياسية.

وتأخذ هذه التحديات الطابع المضاد والعنيف لمسيرة الأمة العربية للحد من تقدمها ومحاولة النيل منها.

ويأتي دور – الثقافة العربية – على رأس القائمة وذروة الأطماع الأجنبية للتأثير عليها وطمس هويتها واستبدالها بالوافد من الثقافات الدخيلة والغربية.

ولأن الثقافة العربية – تمثل الروح من الجسد – فتحاول القوى الطامعة تغييرها وطمس هويتها وتهميشها ورفع شأن الثقافات الأخرى، ليسهل لها بعد ذلك التأثير والاستحواذ على الكيان العربي كله، فنرى الآن شبابًا عربيًا لا يعلم من ثقافته إلا النذر اليسير، بيد أنه على الجانب المقابل يعي ويفهم الثقافات الوافدة، بل الأدهى أنه يتباهى بهذه الثقافات الدخيلة.

ولذا باتت- العربية – العمود الفقري للثقافة العربية غريبة في أوطانها لا تجد من يتقنها أو يحسن التعبير والتحدث بها، بل ولا تجد من يتفاخر بالانتساب إليها.

إن عصر السموات المفتوحة – قد دخله العرب – رضوا أم أبوا، والواجب أن يتنبهوا قبل فوات الأوان للاهتمام: –جل الاهتمام– بالعربية وتعويد النشء الصغير على اللسان العربي المبين– لكي يتعود منذ نعومة أظفاره على حب العربية وينهل من معينها الذي لاينضب، فيشب سليم اللسان والروح لا تتقاذفه التيارات الواردة والشاردة.

وكيف لا وقد كان حكام الدولة الإسلامية في عصورها الزاهرة يتفاخرون بأن أولياء عهدهم لا يلحنون في العربية، وإن كانت الأخرى يذهب ولي العهد للبادية ولا يعود منها حتى يستقيم لسانه.

وها هي الدعوات - تستنجد وتستغيث - من أحد الأقطار العربية التي تتعرض لردة ثقافية بصيحات الاستنكار والتحذير بات ضياع العربية في هذا البلد أشد خطرًا على الأمة من ضياع الأندلس ونكبة فلسطين.

إن الثقافة العربية هي ذاكرة الأمة ورأس الأمر ومنامه فهل تجد من يتصدى للذود عنها والدفاع المستميت عن هويتها.

شهد القرن الحالي – الحادي والعشرون – التغييرات الحادة والمتلاحقة على الأصعدة الدولية والعربية مما كان لها الآثار العميقة القريبة والبعيدة على السواء.

ولسوف تترى هذه التغيرات على المستوى العربي مما قد يصيب الجسد العربي الواهن بالضعف لأمد طويل ما لم تكن هناك صحوة عربية تأخذ بأسباب القوة وعوامل الجد ومعطيات القدرة ومفجرات الطاقات الكامنة في الجسد العربي لتعيد أليه شبابه وحيويته وتزيل عن كاهله ما ران عليه من عوامل التخلف وتمسح عن وجهه تراب النوم والسبات العميق، لكي يعوض ما فاته ويلحق بركب الحضارة المرتقب في عالم الغد القريب المشرف.

ولعل – اللغة العربية – لها دورها الرائد في هذه الصحوة الوليدة، لتكون الشريان الرئيسى والرافد الأول لركب الحضارة المنشود، وتتعرض اللغة العربية لهجمة شرسة وافدة وغريبة عليها لم تشهدها من قبل، قادمة إليها من رؤوس الدول الغربية، التى رزحت تحتها الدول العربية طويلاً.

ولما كانت الدول الاستعمارية لم تستطع أن تفت فى عضد الدول العربية بعد رقادها الطويل بالاحتلال العسكري تارة والتبعية الاقتصادية تارة أخرى لجأت لما هو أخطر من ذلك، فابتدعت الهجمة الثقافية واللغوية بطمس اللسان العربي المبين عن طريق السموات المفتوحة والكتب الوافدة والبرامج الموجهة.

فأدخل فى العربية ما ليس فيها من ألفاظ غريبة تجرح القلب والروح قبل الأذن.

وصارت هناك لغة ثالثة لا هي بالعامية الدارجة أو الفصحى، بل هي خليط من العربية والأجنبية، وأفصح الغرب عن نياته ومقصده وهو توارى - لغة الضاد - أمام الثقافات والإذاعات والبرامج الموجهة لمحاولة كسب الجولة الأولى، وأحسبه قد نال بعض الأهداف في هذا المضمار.

2.العربية كرافد للهوية العربية

لا شك أن اللغة – أي لغة – هي من الروافد الأساسية لتوحيد الثقافة والمفاهيم، ووسيلة ضرورية لبناء المجتمع وترابطه وبناء حضارته ومن ثم فإن اللغة من أهم عوامل البناء ورقي الحضارات.

ولقد لعبت – العربية – فى الأمس الدور المحوري في الأمة العربية عبر تاريخها الطويل، ولم تعرف الحضارة الإنسانية حتى الآن أمة صاغت تاريخها ومستقبلها من خلال اللغة مثل ما فعلت الأمة العربية.

فقد عمدت لتاريخها وحضارتها فسجلتهما من خلال الكلمة وباتت للكلمة هذه المكانة الرفيعة المتميزة، فأصبح للكلمة أسواق يعرض فيها الجيد من الأشعار في عكاظ وذي المجنة، ويختار منه الأرقى شعورًا والأفضل وزنًا وقافية، فيعلق على أقدس مقدساتهم في الكعبة المشرفة.

وكان ميلاد شاعر بقبيلة يعادل ألف فارس، لما للكلمة من تأثير في النفوس سواء للعدو أو الصديق، وقد برع العرب في قرض الشعر مبلغًا عظيمًا، حتى باتت النساء يقرضنه ويتفوقن فيه، وكيف لا وها هي الخنساء تقول فى رثاء أخاها صخرًا :

رفيع العماد طويل النجاد

كثير الرماد إذا ما شتا

وكيف لا يكون للكلمة هذا التأثير وتلك المكانة، وهي محور حياتهم في البيداء، ورأس الأمر في الحل والترحال، ولقد أسهمت العربية في تسجيل مختلف الأنشطة الحيانية للعرب عبر القرون البعيدة والأزمان السحيقة، ولولا العربية لما انتقل إلينا هذا التراث الزاخر الوافر من الحضارة الإنسانية.

ويعزو للعربية – الآن العديد من المهام التي تناط بها في عالم يموج بالثقافات الدخيلة الوافدة، منها الآتي:

– توحيد الثقافات العربية فى بلدانها المختلفة من المحيط للخليج.

– بنيان الكيان العربي الواحد فى تحد جلي للكيانات الأجنبية.

– إيجاد جو علمي في المدارس والمعاهد والجامعات بما يسهم في حركة التقدم والعمران العربية.

– إنشاء كيان بحثي علمي في العلوم الحديثة للمنافسة في سوق البحث العلمي الحديث.

– عمل سياج واقي ضد الثقافات الواحدة والدخيلة.

– حماية التراث والموروثات العربية عبر التاريخ.

– الزود عن العقائد الدينية من دعاوي الإلحاد والانحلال الخلقي.

– إيجاد مناخ عربي عام باستخدام العربية لغة حياة ومعايشة، على أن تلتزم جميع الدول العربية باستخدام العربية في المراسلات بينها أو داخل الدولة.

ومن العجيب أن ترى بعض أولياء الأمور يجاهدون جهادًا مستميتًا لدخول أولادهم مدارس أجنبية تعتني باللغات الأجنبية كأسبقية أولى واللغة العربية أسبقية ثانية، فينشأ الجيل مجيدًا للغة الأجنبية وغير متقن للغة الأم، ويضيعون الأموال الطائلة في سبيل ذلك.

ويكون هذا أول معاول الهدم فى جدار العربية الشامخ، ففي بريطانيا مثلاً لا يستطيع أي إنجليزي أن يدرس لابنه لغة غير الإنجليزية إلا بعد أن يجتاز المرحلة الثانوية، حتى يشب لسانه على التمكن من اللغة الأم، ما هذا الذي يحدث فى مصر والدول العربية .. وفي وسائل الإعلام ودور العلم والجامعات أصبحت تهتم باللغات الأخرى على حساب العربية.

إن التركيز على العربية ليس ترفًا أو وجاهة بل هو قضية أمن وأمان للأمة العربية من أقصاها لأقصاها فمن يشب على حب لغته الأم يشب مقدسًا ومحبًا لأرضه ووطنه.

وكما تقول الأمثال:

"فإن المقدمات الخاطئة تؤدي لنتائج خاطئة "وبدأنا نسمع لأول مرة عن بعض الشباب المصري الذين غيروا جنسيتهم لجنسيات أخرى، وبدأنا نسمع ما يقال عن عودة الإنتماء لمصر، لأول مرة منذ آلاف السنين، لماذا هذا المحتوى المريب والغريب ..

أهي ردة عن الحب لمصر وللعروبة والإسلام..

لقد أتت إذن الهجمات الثقافية الوافدة ثمارها وأورقت أشجارها ..

وباتت العربية غريبة في ديارها، إن الخطب لفادح والحادث لجلل .. ما لم يتدارك الأمر قبل فوات الأوان.

3.صراع اللغات أم الحضارات

خرجت علينا منذ مدة أبواق الدعاية الغربية بتلك الصيحات المتعاقبة بخطر كل ما هو عربي أو إسلامي، وإن الخطر الداهم على الحضارة الغربية هو من جانب العرب والمسلمين.

ولم يكن لهذه الدعاوى ما يبررها إلا الحقد الدفين ضد العربية أساسًا والكتب المقدسة، وأصبح العرب مصدر التهديد بين عشية أو ضحاها دون سبب واضح أو معقول.

وهل قامت الحضارة الغربية الحديثة إلا على أساسيات الحضارة العربية.

وقد قال معظم المستشرقين الأوربيون أن: فضل الحضارة العربية على أوروبا لا ينكر ولولاه لما قامت هذه لحضارة أساسًا، ولقد قال "جوستاف لوبون" إن الحضارة الغربية قد استمدت علومها من الحضارة العربية.

إن العرب قد أسهموا إسهامًا عظيمًا في الحضارة الإنسانية في شتى فروع العلم والمعرفة، وما زالت آثارها باقية في مدن أسبانيا والبرتغال والهند خير شاهد على ما قدمته العربية وتقدمه لحضارة عالم اليوم.

بل إن الأبحاث العلمية التطبيقية الحديثة على شبكة المعلومات بأسماء عربية في ما يزيد عن 75% من هذه التقنيات المتقدمة.

إذن فليس هناك كما يدعي بعض الغرب عن صراع للحضارات، بل هو تكامل لهذه الحضارات في أسمى معانيه، لتكتمل منظومة الحضارة الحالية والمستقبلية.

ويقوم المد الحضاري العربي الآن على استلهام القيم من لغة الضاد – لغة القرآن الكريم – التي اختارها العلي القدير دون سائر اللغات لينزل به كتابه الكريم هاديًا البشرية في كل مكان وزمان.

4.دعائم الهوية العربية

إن اللغة العربية – تلعب دورًا أساسيًا ومتناميًا في الحفاظ على الثقافة والتراث العربيين، بل وقبلهما على الهوية العربية.

فليست اللغة وسيلة تخاطب ومعايشة، بل هي كيان جامع للشعوب وبوتقة تنصهر فيها الآمال والتطلعات والرؤى لماضي عتيد ومستقبل مشرق.

ولقد كان للعربية عبر أحقاب المحن التي ألمت بالجسد العربي دور الحامي والمدافع عن هذا الجسد ليسترد عافيته ونضارته.

لقد احتل الغرب (الإنجليز والفرنسيين) عالمنا العربي مئات السنين، وحاولوا طمس الهوية العربية وإحلال هوياتهم وقوانينهم وثقافاتهم بدلاً من الهوية العربية، فما وجدوا لذلك سبيلاً، ولقد أوفد السيد (دنسلوب) الإنجليزي في مهمة فى عام 1896م للقاهرة لمحاولة طمس معالم هذه الثقافة العربية وربطها ببريطانيا، فكان تقديره أنه طالما هناك قرآن كريم يدرس بالعربية فلن تستطيع بريطانيا العظمى آنذاك أن تنفذ خطتها ربط مصر ببريطانيا، وقد كان أن رحلت بريطانيا عن مصر وفرنسا عن الجزائر بفضل التمسك بالعربية.

5.الخلاصة

إن التمسك بالعربية اليوم وغدًا أضحى أكثر ضرورة وأدعى إلحاحًا من أي وقت مضى – بسبب تقدم تكنولوجيا الاتصال والإعلام والانتشار السريع والسهل للثقافة الوافدة الدخيلة.

لذا يجب الحرص – كل الحرص – على الاهتمام بالعربية ليس في معاهد ومدارس التعليم فقط بل بوصفه أسلوبًا للتعامل والتعايش.

لقد أحسنت- الإمارات العربية - بإصدار تشريع صارم بعدم استخدام الأسماء الأجنبية تحت أي مسمى، ومن يخالف ذلك يتعرض لمسائلة ومحاسبة عسيرة.

إن الحفاظ على العربية – قضية جد خطيرة، وتمتد آثارها السياسية والاجتماعية والاقتصادية على الجسد العربي، فيجب الحذر والإنتباه لبرامج تعليم وتدريس العربية، حيث إنها ترتبط بقضايا الأمن القومي العربي في المقام الأول.

المراجع:

1 – تقرير التمية البشرية الصادر من الأمم المتحدة 2010م.

2 – مطبوعات وزارة الثقافة جمهورية مصر العربية 2012م.

3 – بعض مواقع شبكة المعلومات الدولية.

جان بودريار..

عن الإرهاب والحرب العالمية الرابعة



د. بدر الدين مصطفى

أستاذ علم الجمال - آداب القاهرة

ربما كان مفهوم الإرهاب من أكثر المفاهيم الغامضة والمرتبكة في دلالتها، فقد استعملت هذه الكلمة في الغرب منذ قرنين تقريبًا، وتفيد منذ ذلك الحين "كل استعمال للعنف لتغيير النظام السياسي في بلد معين". غير أن هذا المعنى ذاته ليس مستقرًا، بل يتم استخدامه وفقًا للسياق الذي يحدث فيه تجليات هذا المعنى وتمثلاته على أرض الواقع، فهو يمتلك من المرونة ما يجعله خاضعًا لقواعد المصالح والمواقف السياسية المتباينة. غير أنه مهما لا شك فيه أن هذا المفهوم يُعد أحد المفاهيم الأكثر مركزية في نهايات القرن العشرين وبدايات القرن الحادي والعشرين، مفهوم روج له الغرب، وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية، بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، كان له السبق الرئيسي في تشكيل خريطة العالم الجديد، وفقًا للمقولة الشهيرة التي عبر عنها الرئيس الأمريكي آنذاك جورج بوش بطريقته الاستعراضية الشهيرة "من ليس معنا فهو عدونا".

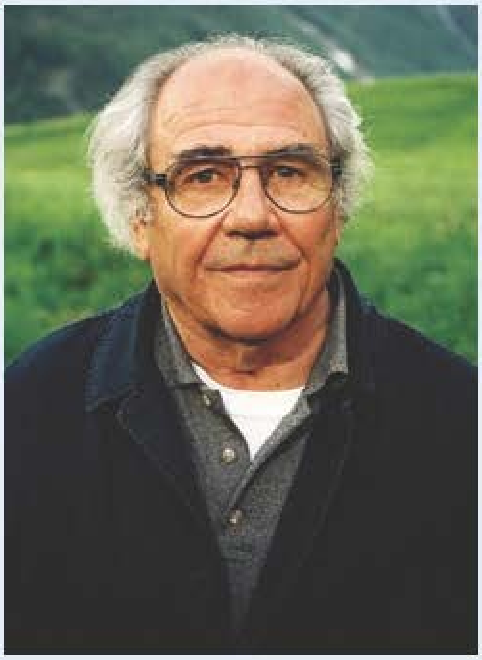
والواقع أن مفهوم الإرهاب ليس واضحًا بالقدر الذي يجعل استعماله سليمًا دون خوف من الانزلاق في متاهات إيديولوجية، كما نستعمل مثلاً مقولات فلسفية أو مفاهيم علمية، فهو يتغير بتغير الظروف والملابسات السياسية، فإرهابي الأمس قد يكون زعيم الغد، والمنظمة التي كانت تصنفها بعض الدول، مثلاً، بوصفها منظمة أحرار، لأنها كانت تقاوم الشيوعيين في أفغانستان، أصبحت بعد ذلك إرهابية، لأنها تعرضت إلى مصالحها الحيوية.

وكل بحث في معنى هذا المصطلح لن يكون دقيقًا إذا اعتمد على دلالات ما قبل صورة الحادي عشر من سبتمبر، ذلك لأن الصورة قد نسخت ما قبلها وكتبت معنى خاصًا يصدر عن تلك الصورة ويحيل إليها، ولم يبق على الإنسانية بعد ذلك إلا أن تسلم بهذا المعنى، بعد أن انهزمت كل مصطلحات الفكر الذي صار في تلك اللحظة تقليديًا وغير عملي وغير مقبول.

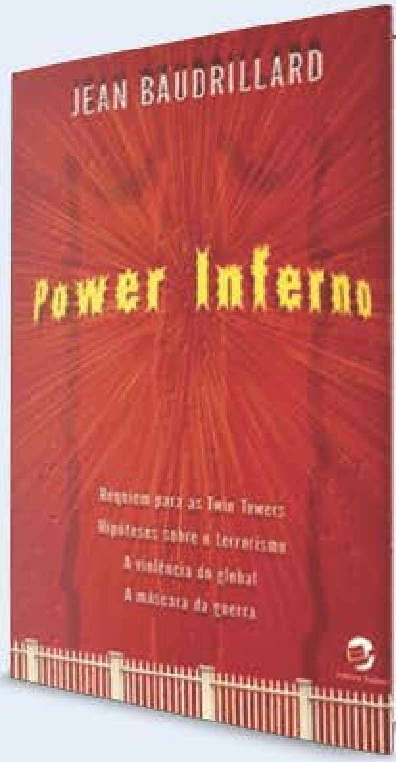
كان المفكر الفرنسي جان بودريار (1929 - 2007) Jean Baudrillard من المفكرين الذين توقفوا أمام ارتباك هذا المفهوم، بغية توضيحه أو ربما فك الارتباط الشرطي بينه وبين الإسلام، وهو الارتباط الذي حاول الغرب التسويق له بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، من أجل إيجاد صورة ذهنية عن الإسلام بوصفه دينًا للعنف، ومن ثم الإرهاب، وكان هذا المفهوم تمهيدًا للحديث عن الحرب العالمية الرابعة، وهو ما سنشير إليه في نهاية المقال.

في مؤلفه قوة الجحيم (2002) Power Inferno الذي كرسه تحديدًا لموضوع أحداث الحادي عشر من

"مفهوم روج له الغرب، وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية، بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وكان له السبق الرئيسي في تشكيل خريطة العالم الجديد وفقا للمقولة الشهيرة التي عبر عنها الرئيس الأمريكي آنئاك جورج بوش بطريقته الاستعراضية الشهيرة": من ليس معنا فهو عدونا"



جان بودريار



"كان على الولايات المتحدة الأمريكية بعد انهيار الاتحاد السوفيتي أن توجد عدوها بنفسها، عدوها الذي من خلاله تستطيع أن تحقق مصالحها وتعيد تشكيل خارطة العالم مرة أخرى، ولأن المصالح الأكبر للولايات المتحدة توجد في الشرق الأوسط، ولأن الدين الغالب في تلك البلاد هو الدين الإسلامي، كان من الطبيعي أن تسعى الولايات المتحدة لإحداث هذا التلازم بين الإرهاب والإسلام"

"حاولت وسائل الإعلام، بحسب بودريار، أن تلصق تهمة الإرهاب بالإسلام، فالنظام العالمي، المتمثل في شبكة المصالح الرأسمالية العالمية، لابد أن يوجد لذاته عدوًّا محدد المعالم يستطيع من خلاله أن يحقق مصالحه، فكان هذا العدو هو الإرهاب، وكيما يصبح محدد المعالم تم لصقه بالإسلام"

سبتمبر، يذهب بودريار إلى أن النظام العالمي الجديد لا يترك مجالاً للتمايزات، وكل ما يخرج عن النظام ينبغي مواجهته بالقوة، فالأمر لا يتعلق بصراع الحضارات، كما يروج بعض المحللين، بل بمواجهة أنثربولوجية بين ثقافة عالمية متماثلة، وكل ما يحتفظ في أي مجال بشيء من التمايز يحول دون ذوبانه في تلك الثقافة، ووفقًا لتلك الثقافة العالمية تغدو كل الأشكال المختلفة للخصوصية بمثابة هرطقات تمامًا، كما هو الحال في الأصولية الدينية المتطرفة، إن رسالة الغرب، وفقًا لبودريار، تتمثل في إخضاع الثقافات المتعددة لقانون المعادلة القهري بكافة الوسائل الممكنة، إن مثل هذا النظام يرى في كل شكل عصي عليه إرهابًا مفترضًا، هكذا حال أفغانستان، فالعالم الحر لا يتحمل بلدًا تمنع الحريات الأساسية للإنسان، ولا يتحمل أن يقف بلد ما في مواجهته، مهما كانت خلفيته الدينية التي يستند إليها، فمن غير المسموح الاعتراض على الحداثة في نزعتها الكونية".

لقد صار الحادي عشر من سبتمبر علامة ثقافية عالمية، وهو اليوم الذي أفاق فيه الناس على صورة طائرتين تخترقان برجي مركز التجارة العالمي في نيويورك، واحدة تلو الأخرى، كانت الصورة وهي تبث تليفزيونيًّا تحمل كل مقومات الإخراج السينمائي، وتضاهي أنق هتيّات السينما، حتى في الإثارة والتشويق، وبما إنها صورة غير عادية وغير تقليدية، فقد توفر لها من وسائل الإشهار والتعميم ما جعلها صورة كونية يشترك كل البشر في تلقيها وتأويلها، لقد كانت صورة ناسخة لكل ما سواها من صور، وبلغت قوتها النسخية أن ألغت كل ما سبقها وصارت المصدر التأويلي لكل ما بعدها، وهي بهذا صورة تترجم كل عناصر الهيمنة الثقافية والبصرية، حيث يتقابل طرفان لم يكن من الممكن أن يتقابل قبل ذلك التاريخ، وفي قلب نيويورك تحدث معركة عالمية بين قوتين إحداهما عظمى ويرمز لها البرجان الفارهان، والأخرى ناشئة لا تملك غير إرادة المواجهة.

كان على الولايات المتحدة الأمريكية بعد انهيار الاتحاد السوفيتي أن توجد عدوها بنفسها، عدوها الذي من خلاله تستطيع أن تحقق مصالحها وتعيد تشكيل خارطة العالم مرة أخرى، ولأن المصالح الأكبر للولايات المتحدة توجد في الشرق الأوسط، ولأن الدين الغالب في تلك البلاد هو الدين الإسلامي؛ كان من الطبيعي أن تسعى الولايات المتحدة لإحداث هذا التلازم بين الإرهاب والإسلام.

هذا المعنى نجده عند بودريار في تحليله لأحداث الحادي عشر من سبتمبر، فيذهب إلى أن المواجهة كانت سافرة هناك، فكيما يتحقق إخراج صورة كونية للحدث أراد صانعوه أن يكون عالميًّا، وخططوا لإخراجه وإنتاجه، لكي يحققوا أعلى درجة من عالمية الصورة، وهو تخطيط ينافس في دقته أرقى أنواع الإخراج السينمائي في هوليوود، ومن المؤكد أن مفجري البرجين قد وضعوا في تصورهم ما يمكن أن تكون عليه صورة الحدث في التغطيات التلفزيونية، وفي المقابل فإن المستهدف الأمريكي قد سعى إلى توظيف تلك الصورة توظيفًا يضمن له تحقيق أكبر قدر من التأثير عبر تلك الصورة، مما يعني أن الطرفين كانا يمارسان لعبة في الإخراج والمونتاج من أجل إنتاج تأثير خاص تحدثه صورة البرجين، وهما ينفجران ثم ينهاران، ويكون ذلك فاتحة إخبارية عالمية وصورة كونية تلغي كل ما قبلها، وتعيد كتابة التاريخ من لحظتها وصاعدًا لكي



تتغير اللغة ذاتها وتتبدل المصطلحات، وليست الأحداث فقط، فما حدث قد كتب لغة مختلفة وسجل مصطلحًا ذا قيمة دلالية خاصة تعود إلى تلك الصورة وتحيل إليها، أي أن الصورة صارت هي المرجعية الدلالية للمصطلحات.

في الواقع، كما يرى بودريار، كانت أحداث الحادي عشر من سبتمبر تغير عالمي كوني يحدث للثقافة البشرية، حيث تتولى الصورة رسم المعاني وتغيير المصطلحات، بهذا المعنى نفهم لماذا دعى بودريار إلى التفكير في أحداث 11 سبتمبر في ما وراء الخير والشر، أي في ما وراء النزعة الأخلاقية الكلاسيكية؛ والنظر إليها من جهة النظام le système الذي أثرت عليه هذه الأحداث، بحيث خلخلت قطبية رمزية معينة.

ويعيد بودريار تلك الضربة الرمزية كما يسميها هو، إلى المنظومة نفسها التي أنتجتها، وكأنه يريد أن يكرر قول هيجل بأنه من القضية يتولد نقيضها، يقول "هم الذين نفذوا أحداث الحادي عشر من سبتمبر لكننا نحن من أراده. وإذا لم نأخذ في الحسبان هذه الحقيقة، فإن الحدث يفقد أبعاده الرمزية كلها، ويصبح مجرد حدث عادي يمكن اختزاله في مجرد عمل إرهابي، وينتهي الأمر عند هذا الحد، لكننا نعرف أن الأمور ليست بهذه البساطة، وأن ما حدث يتكئ على تواطؤ دفين يجد جذوره في أمكنة متنوعة، إنه صدى لرفض كل ما هو مُطلق ولكل قوة نهائية، وان مبنيي مركز التجارة العالمي كانا التجسيد لهذه القوة المطلقة". والانهيار الذي تعرّض له المبنيان يفوق بأبعاده الرمزية ما تعرّض له البنتاجون، لأنّه على حدّ تعبيره هو صورة لانهيار نسق كامل.

يتكشّف من ذلك التحليل إذن أن بودريار لا يحمّل الطرف المعتدي كافة المسؤولية الأخلاقية عن الحدث، بل هو يحمل بالمثل الطرف المعتدى عليه ذات القدر ذاته من المسؤولية، فما حدث هو إحدى نتائج النظام الأحادي، وهو يقول في هذا الصدد: "عندما يأخذ نظام ما لنفسه كلّ الأوراق، فهو يدفع بالآخر إلى تغيير قواعد اللعبة، والقواعد الجديدة متوحّشة لا ريب، لأنّ طبيعة هذا التحدي هي نفسها متوحّشة".

إنّ المشهد الذي يحيل عليه أحداث البرجين تحكمه مفارقة تبلغ حد التداخل بين الشجب الأخلاقي والاتحاد المقدس ضد الإرهاب وبين التهلّل الاستثنائي لرؤية هذه القوّة الفائقة العالميّة، وهي تدمّر نفسها بنفسها، وكأنّها ترتكب انتحارًا مشهودًا، ذلك "أنّها نظرًا لقوّتها التي لا تحتمل، أججت كلّ هذا العنف المبثوث في أرجاء العالم، وهي التي أثارت هذه المخيّلة الإرهابية التي تسكننا جميعًا". ووفق هذه النظرة فإنّ الحدث يتعدّى بكثير مجرّد الحقد على قوّة عالمية مسيطرة، فمن المنطق أن يؤجّج تفاقم قوّة القوّة وتركّزها الرغبة في تدميرها، وأن تكون شريكة في تدميرها الخاص، فالغرب الذي يتصرّف، حسب بودريار، كما لو أنّه في موقع (الله) ذي القدرة الإلهيّة الكلية والشرعية الأخلاقية المطلقة يغدو انتحاريًا ويعلن الحرب على نفسه، وكان انهيار برجي مركز التجارة وكأنّه تواطؤ غير متوقع بين الطرفين، المعتدي والمعتدى عليه، ويعتقد بودريار أنّ النّظام العالمي المهيمن يستلزم ضرورةً وجود إرهاب كي يستمرّ في العمل والسيطرة لأنّه وبدون نقيضه سينهار هذا النّظام، بل إنّ تواطؤًا عميقًا ينشأ بين الخصمين، ويتساءل بهذا المعنى عمّن يستخدم الآخر.

وقد حاولت وسائل الإعلام، بحسب بودريار، أن تلصق تهمة الإرهاب بالإسلام، فالنظام العالمي، المتمثل في شبكة المصالح الرأسمالية العالمية، لابد أن يوجد لذاته عدوًا محدد المعالم يستطيع من خلاله أن يحقق مصالحه، فكان هذا العدو هو الإرهاب، وكيما يصبح محدد المعالم تم لصقه بالإسلام، في حين أن هذا الارتباط غير حقيقي في جوهره، لأن الإرهاب تم توليده من داخل النظام ذاته ولم يأت من خارجه "لا يتعلق الأمر بصدام الحضارات أو الأديان، كما يتعدى بكثير محاولة اختزاله في المواجهة بين الولايات المتحدة الأمريكية والإسلام، صحيح أن هناك تقابلاً بينهما، لكنه تقابل يكشف، عبر طيف أمريكا (التي ربما كانت مركز العولمة، لكنها بالتأكيد ليست بمفردها) وعبر طيف الإسلام (الذي لا يرادف أيضًا الإرهاب)، أن العولمة تخوض صراعًا مع ذاتها". ويستطرد بودريار قائلاً: "الحرب تلازم كل نظام عالمي وكل سيطرة مهيمنة، ولو كان الإسلام يسيطر على العالم لوقف الإرهاب ضد الإسلام".

من هنا، يمكن الحديث، وفقًا لبودريار، عن حرب عالمية رابعة وليس ثالثة، ذلك أن محورها الرئيسي هو العولمة، فالحربان العالميتان الأوليان تعكسان الصورة الكلاسيكية للحرب، الأولى وضعت حدًا لتفوق أوروبا وللعهد الاستعماري، والثانية حطمت النازية، والثالثة وقعت تحت ما يسمى بالحرب الباردة، وانتهت بالقضاء على الشيوعية، وكل حرب من هذه الحروب قادتنا إلى وضع عالمي جديد، أما الحرب الجديدة، فيعتقد جان بودريار أنها أصبحت شاملة، بحيث لم يعد بإمكان أحد الفرار منها أو تجنّبها، إنها في قلب هذا النظام العالمي الجديد.

تشكيل الإعلام للهوية

لا شك في أن اللغة العربية في وطننا العربي، تشكل حصنًا للهوية وباعثًا على التقارب ولمّ الشمل بين مختلف الأقطار، وأداة لصهر الأثنيات الثاوية على ربوعه الممتدة من المحيط إلى الخليج، التي على امتداد التاريخ استطاعت أن تسهم بفعالية في بلورة ثقافة عربية ناظمة، استقطبت لها العديد من الأدباء والعلماء، الذين أغنوا الهوية العربية، وأثروا نتاجاتها.

هذا الأمر التمازجي للغة، دفع كلود ليفي ستراوس، إلى التصريح بأن الأسطورة بمعناها الوظيفي العام، قد تولدت من اللغة وانبثقت من قواها الحاملة للمعنى والدلالة[1]. وبالاعتماد على هذا الاستنتاج –برغم ما يمكن أن يقال عنه– بمقدورنا إضافة أن اللغة –في زمننا– تفرز وتنتج كذلك الأسطورة الإعلامية بمعناها الإنتاجي والتثقيفي.

فإذا كنت اللغة علامة من علامات الهوية، فإن الإعلام بدوره يشكل المظهر الحيوي لسيمياء الثقافة وتمظهراتها المتنوعة، فوسائل الإعلام الجماهيرية، تمثل قناة الاتصال الرئيسية ذات المنحى العمودي الرأسي، بينما اللغة هي أداة اتصال ذات منحى أفقي بيني، ومن هنا، يركن الناس عن طواعية ورضا إلى الأولى، نظرًا لقدرتها على تشكيل الآراء والتوجهات وبناء التطلعات والاختيارات[2]، وبالأحرى إلى تصميم ومساءلة الوعي بالذات.

إن مهمة الإعلام لا تقتصر على أدوار النشر والإبلاغ والإخبار بحيثيات الأحداث وتوصيلها للجماهير، إنها تتخطى وظيفتها الوسائطية، إلى أخرى بنائية أكثر جدارة وأعمق فائدة، ولهذا، تعد وسائل الإعلام مصدرًا أساسيًا لنقل الخبرات الحياتية والتجارب الثقافية في مجتمع معين[3]، إنها بهذا النسق، وحدة من وحدات الهوية وسوغ الهوية العلائقية، في مقابل الآخر المتربص بنا، الذي لا يعدم وسيلة في الإفادة من تقنياتها ومخرجاتها، ولعل أبرز مثال، هو الحروب التي أصبحت تخاض على القنوات وتجند لها الجنود على صفحات الإنترنت وتحصي ضحاياها على مستوى التصريحات والصور المرئية قبل أن ترسل قذائفها على أرض الواقع، وإلا فما الثمرة التي تجنيها الدول واللوبيات النافذة من رصد مبالغ طائلة من ميزانياتها العامة وتخصيصها للإعلام والعلاقات العامة.

وعلاوة عليه، فقد أضحى الإعلام أداة لتسويق الأفكار ونشر الأنماط الحياتية الخاصة بكل ثقافة، وهو ما لم ينتبه له للأسف القادة وصناع القرار في بلداننا برغم التحديات والإكراهات الوجودية التي تعترض مسار تنميتنا ثقافيًا وعلميًا.

الحديث عن الإعلام والنهوض بمخرجاته التثقيفية والهوياتية، تزداد حدته لا سيما مع الأحداث القاصلة التي تشهدها منطقتنا في الأيام الأخيرة من صراعات وتدخلات ومماحكات، تستهوي العدو والصديق، فإذا كانت اللغة وعاء للفكر ومجنًا للوحدة وأيقونة للتاريخ، فإن الإعلام لا يقل أهمية، إنه اللواء الذي يتباهى الفرد بالانتماء إليه، لمساوقته لتطلعاته وميولاته ونزعاته.

وبرغم تلك الأهمية، إلا أن ما يمكن قوله عن اللغة من عدم الاهتمام والاستهجان، يقال بشدة على مجريات الإعلام، فالملاحَظ عليه هو سيادة صورة تركيبية "رتوشية" لهويتنا العربية، تقتبس من كل ثقافة مقابلة مرصعات متناثرة، دون أن تنتظم في خرز متناسق ومنسجم مع ما يروج له وما يعاش من حيثيات، مما يُصيّره نموذجًا للنقل المبتور من برامج أجنبية، زيادة على ضعف الإنتاج المحلي المنبثق من الهوية العربية، بل جل الوسائط تتهز نهم الجمهور للموضات الكونية، دون أن تحمل على عاتقها الرفع من الاستقلالية الأدبية أو الإنتاجية، فحتى عناصر الهوية الصاهرة لبلداننا تكاد تختفي من منتجاته، ولا يلقي لها بالاً، وفي مقدمتها السنن اللغوي، الذي أصبح يحتضر ويتلاشى في مقابل الدفع بالعاميات واللهجات إلى منصة التتويج على مستويات الدراما والإعلان والنشرات، وكأن المتفحص لحالنا يرمقنا في حالات استيلاب تشبه أنوميا Anomia المجتمع، مفضية بنا إلى فقدان الذاكرة ونسيان الهوية[4].

إن الإعلام بلا منازع، صورة الهوية ومرآة الثقافة ونبراس الجيل الصاعد والمروج لأحلامه ووجوده وآماله، فما ينشره ويبثه للعالم من ثقافة وقيم هو رمز لمصدر السلعة وكينونتها، ومن ثم علامة على هويتها[5]، ضمن أطراف تلك القرية الصغيرة التي بشّر بها ماكلوهان في ستينيات القرن المنصرم[6]، تلك القرية أو المدينة "الكوسموبوليتانية" التي رسخت أركانها وغرست أوتادها بفعل الانفتاح الاتصالي، وتقاطر الشركات العابرة للقارات، مما جعل الهويات تتقابل فيما بينها، وتصطرع لأجل البقاء والانتشار.

إن الصورة المعروضة في الإعلام، هي العنوان الذي يختزن صانعه ومنتجه، ويختزل تاريخه الثقافي ومساره الوجودي، إنها صناعة هوياتية، كما أن الأدب هو صناعة ثقافية.



أحمد عتيق

باحث في الإعلام والتواصل - المغرب

الهوامش:

1 - كلود ليفي ستراوس: الأسطورة والمعنى، ترجمة شاكر عبد الحميد، سلسلة المئة كتاب، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والإعلام، الطبعة الأولى 1986 بغداد، ص 76.

2 - أليجز فرج: الاتصال الثقافي، ترجمة شوقي جلال، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى 2005، القاهرة، ص 201

3 - جبارة عطية جبارة: علم الاجتماع الإعلام، عالم الكتب، 1985، الرياض، ص 107.

- جون جوزيف: اللغة والهوية، ترجمة عبد النور خراقي، عالم المعرفة، عدد 342، أغسطس 2007، الكويت، ص 7.

4 - Jean Pierre WARNIER (1999) : La mondialisation de la culture, éd. La Découverte, Paris, p. 18

5 - وفيق صفوت مختار: وسائل الاتصال والإعلام وتشكيل وعي الأطفال والشباب، دار غريب 2010، القاهرة، ص 139

المهم

أن تكون إنسانًا



د. سعيد بوخليط

مراكش - المغرب

جاء مضمون الخبر على المنوال التالي: «هذه الصورة التقطت خلال المجاعة في السودان سنة 1994، وحصلت على جائزة بولتزر، حيث يزحف هذا الطفل الذي ضربته المجاعة وأنهكت جسده النحيل، باتجاه مخيم للأغذية يبعد عنه بكيلومتر، والنسر، الذي لا يأكل إلا الجيف يقف على مقربة منه ينتظر موته حتى يأكله. هذه الصورة هزت العالم، ولا يعرف أحد ما حدث للطفل بعد ذلك ... بعد ثلاثة أشهر، وُجد المصور 'كيفن كارتر' منتحرًا ربما متأثرًا بهذا المنظر، وما يحمله من كآبة وإحباط».

في عالمنا العربي، يظل أشهر مثال، يعكس هذا النوع النادر من رهافة الحس الإنساني، إقدام الشاعر اللبناني خليل حاوي على الانتحار، بحيث خرج إلى شرفة نافذة وأطلق النار على نفسه، احتجاجًا على اجتياح الجيش الإسرائيلي سنة 1982، لعاصمة عربية تسمى بيروت.

شهر نوفمبر 1965، انتحر الأمريكي نورمان موريسون، بالنار أمام مكتب وزير الدفاع، معلنًا رفضه للحرب التي تخوضها جيوش بلده، ضد الشعب الفيتنامي.

شهر يناير 1969، أقدم طالب فلسفة تشيكوسلوفاكي، يسمى جان بالاك على إضرام النار في جسده علانية، وسط ساحة 'ونسيسلاس' تحولت فيما بعد إلى مزار، معلنًا بطريقته أيضًا رفضه القاطع، أن تقتحم دبابات الاتحاد السوفياتي بلده، وتقمع ثورة ألكسندر دوبشيك السلمية. هكذا، لا يمكن التأريخ لربيع براغ دون الوقوف عند تضحية بالاك الأسطورية.

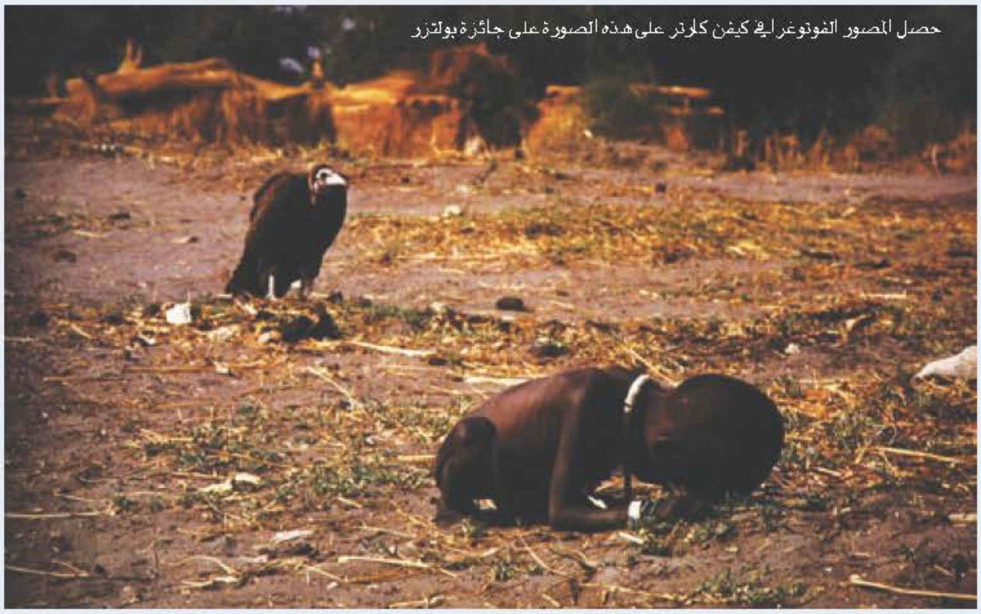
يوم 16 مارس 2003، ستسحق عمدًا وبطريقة في غاية الوحشية، جرافة إسرائيلية، جسدًا نحيفًا تسكنه إنسانية هائلة، لشابة أمريكية تدعى راشيل كوري، عضوة حركة التضامن العالمي، سخرت وتهكمت من موت الضمير البشري، فشدت الرحيل كي تتضامن مع الفلسطينيين، على أرض الواقع، خلال انتفاضتهم الثانية ضد الاحتلال.

يوم الجمعة 17 ديسمبر 2010، أحرق التونسي محمد البوعزيزي نفسه، أمام مقر ولاية سيدي بوزيد، محتجًا على اغتيال كرامته بعد أن صفعته الشرطية فادية حمدي أمام الملأ، وشتمته بالكلمة البذيئة: ، dégage حريق، سيشعل حرائق مستمرة حتى الآن، في جسد التاريخ والجغرافية العربيتين المعاصرتين.

يقال أيضًا: إن امرأة مجهولة الهوية، أكثر من تنظيرات فولتير وروسو، من أشعل فتيل شرارة الثورة الفرنسية، حينما أسرعت بالخروج إلى الشارع محتجة، تطالب بالخبز ....



المصور كيفن كارتر



حصل المصور الفوتوغرافي كيفن كارتر على هذه الصورة على جائزة بولتزر



خليل حاوي



نورمان موريسون

يكفي أن تكون إنسانًا حقًّا، كي يبدأ العالم انسيابه اللين، وإنسانية الفرد تتجلى هكذا، دونما ضرورة إلى هضم قبلي لنظريات أخلاقية أو دعاية لأكليشيهات جاهزة، بل يجدر تحققها عفويًا على السليقة. تتسامى، المسألة على كل الشروط الذاتية والموضوعية والتصنيفات المعيارية والمواضعات. هي، حالة تجري مجرى الماء، لقيم الحق والخير والشجاعة والتسامح والنبل والإباء....

حينما يستيقظ المرء صباحًا، ويتملى بأناة شاعرية وجهه في المرآة، سيلاحظ بتفرس، فعل تعرية الزمان المر وما صنعته بفروة سحنته. سنوات انقضت من عمره وذابت ربما بين تلابيب ذاكرة النسيان، وربما كذلك، على غفلة ودون إدراك، لحظتها قد يتساءل: أين إنسانيتي، من كل هذا؟ لا سيما، ونحن في حقبة دقيقة. ما هي درجات، تبلورها؟ كيف لي أن ألمس معانيها ودلالاتها، على الرغم من كل ما يحول بين المرء ونفسه، المرء وحقيقته، المرء وممكناته؟ سلوكات، على مقتضيات ومواضعات استيلابية، تسطو على حرية الفرد، فتضيع آدميته.

إن تربية الشعوب وارتقاءها، يبدءان جوهريًا، من النزوع الأنطولوجي لأفرادها صوب جعل ذواتهم، سؤالاً لا نهائيًا. لكن، كي لا يصاب المرء بالقرف والضجر، حين اختبار ذاته، باستفهام اعتراضي: لماذا أتيت إلى هذا العالم؟ ماذا أصنع هنا؟ ما المبررات؟ بوسعه، التخلص من هذا التيه، بإشكال مغاير: إن الحياة والموت، بمثابة صراع أبدي بين الزمانين الذاتي والوجودي. أين يبدأ الموت، ومتى تنتهي الحياة؟ من ثم، يستحيل وضع الثنائي موت- حياة، ضمن إطار تعريفي قائم كليًا، تحترم داخله المعايير.

لا شك، أن النماذج البشرية الاستثنائية، التي أشرت إليها على سبيل التمثيل فقط، لا الحصر، احتفظت وتحتفظ وستحتفظ بها ذاكرة التاريخ دائمًا، دونما ملايين البشر الآخرين، لأنهم جسدوا السلوك الذاتي النوعي، المؤشر على الانسجام المطلق بين الفرد وماهيته

”يكفي أن تكون إنسانًا حقًّا، كي يبدأ العالم انسيابه اللين، وإنسانية الفرد تتجلى هكذا، دونما ضرورة إلى هضم قبلي لنظريات أخلاقية أو دعاية لأكليشيهات جاهزة“

”وأنت، تلقي بيسر، لقمة طرية في فمك، تذكر بشرًا كثيرين، يتلاشون جوعًا خلال الآن ذاته، ثم لا يتذوقون أملًا. حينما، تدير بسرعة، قفل باب منزل جميل ونظيف، يقيك أهوال ما يحدث على امتداد العراء، صيفًا وشتاء، فلا تنسى أبدًا أن غيرك قد تنكرت لهم بلا شفقة جميع الشرائع الأرضية، ولم تقبل بهم غير حفر الجرذان، كي تتقاسم معهم مجاري المياه. تذكر جيدًا، وأنت تنام حالمًا بملء جفونك، أن بشرًا لا يعرفون لحقهم في النوم سبيلًا، مربوطين بسلاسل كالدواب إلى جدران زنازين ومستشفيات للأمراض العقلية، يئنون باستمرار وجعًا واحتقارًا“




جان بالاك



الوجودية، ذوات، مثل النيازك، تقطر الطبيعة بأحدهم كل مئة سنة ربما كأدنى تقدير، كي يردوا للإنسانية بريقها ووهجها، بعد أن أضاعتهما، وقد تربصت بها أوثان الزيف والمكر والخديعة. في هذا السياق، يقفز إلى الأذهان بقوة، الجدل اللانهائي بين التاريخ الفردي والكوني، بمعنى ثان، هل الفرد مجردًا، قادرًا على صنع التاريخ؟ أم الجماعة، وحدها مؤهلة بامتياز لفعل ذلك؟ إن المسألة، في اعتقادي لا تُطرح وفق هذا الفصل المفهومي الصارم، لكن الأمر أساسًا يروم نحو استبدال قراءة التاريخ، من التدوين الرسمي المؤسساتي النمطي، نحو ثان فردي، يلقي به قصدًا إلى كَفَن النسيان والإقصاء. تفرض المؤسسة بصرامة، منظورها ولغتها وأسلوبها وتحديداتها، يصعب حقيقة التخلص من تأثيرها، دون توفر المتلقي على جرأة السلوك وقوة الشخصية وثقابة الذهن، ثم الأهم، جعل زمانه الذاتي سندًا مرجعيًّا، يستحضر من خلاله اللحظات الوجودية النوعية، التي أرسى بها هؤلاء المقصيون، عمدًا، من أرشيفات التاريخ المؤسساتي، تاريخهم الفردي وقد أضحى تاريخًا كونيًّا.

رفض الصحافي كيفن كارتر، الاحتفاء بالتتويج، مفضلاً في المقابل أن يتقاسم مع الطفل السوداني آلام احتضاره جوعًا، ويشنق نفسه إراديًّا على مقصلة الجشع والشر، اللذين يسكنان ويحركان، نزوعات المتحكمين في مصير العالم. طبعًا، هناك خلل، لذلك يمثل موته، دحضًا وتقويضًا على طريقته البليغة، لقوانين جائرة، يشهرها الإنسان في وجه أخيه الإنسان.

أيضًا، وحتى لا يكون المبدع الإنساني فرانز كافكا، جحيمًا بأي شكل من الأشكال، فقد قيل الكثير عن وصيته لصديقه ماكس برود، بأن تُحرق جميع كتبه، كي لا يؤرق، ويلزم شخصًا ما، بفكرة من أفكاره.

فماذا لو ساجل الواحد منا نفسه، باستمرار؟ يحاكم إنسانيته، عند كل إحساس بالرغبة في غض الطرف؟ يأبى، استساغة البشاعة والقذارة، منتشلاً أنانيته السوية، عن الأخرى الخرقاء المريضة، وقد أخذت معها ضمائرنا مذاق قطعة لحم تتقاذفها كلاب جائعة مسعورة. أظن، حين التماهي بصدق مع شعور كهذا، عندئذ ستصير حتمًا للعالم بداية.

وأنت، تلقي بيسر، لقمة طرية في فمك، تذكر بشرًا كثيرين، يتلاشون جوعًا خلال الآن ذاته، ثم لا يتذوقون أملاً، حينما، تدير بسرعة، قفل باب منزل جميل ونظيف، يقيك أهوال ما يحدث على امتداد العراء، صيفًا وشتاء، فلا تنسى أبدًا أن غيرك قد تنكرت لهم بلا شفقة جميع الشرائع الأرضية، ولم تقبل بهم غير حفر الجرذان، كي تتقاسم معهم مجاري المياه. تذكر جيدًا، وأنت تنام حالمًا بملء جفونك، أن بشرًا لا يعرفون لحقهم في النوم سبيلاً، مربوطين بسلاسل كالدواب إلى جدران زنازين ومستشفيات للأمراض العقلية، يئنون باستمرار وجعًا واحتقارًا، لم ترتق إنسانيتهم إلى حركة دعك أعقاب السجائر. علّم ذاكرتك، الوفاء لمن قست عليهم الديار وأهل الديار، باسم جنونهم، هكذا لن يجدوا ما يسدون به رمقهم، في أفضل أحوالهم، سيقبعون، في جوف ظلمات حفر موحشة، فقط الخفافيش ترق لحالهم. وأنت تلتهم كالدود حقوق الآخرين، بغير وجه حق يذكر، جرّب كل مساء ولو لبرهة، تصفح حكاية من حكايات السابقين، كي تتيقن أن العظماء هم عظماء ، بالتالي، يستحيي الدود الاقتراب من أجسادهم الطاهرة. بالمطلق، سعادتك من سعادة الآخرين.

لا تلوث نقاء ذاتك، باختلاس أحلام ليست من حقك. ذات غفلة، منك، ومني، ومنا جميعًا، ستترك هذا العالم وحيدًا، دون رجعة، لكن وحدها سيرة أدميتك، ترشد الناس كل صباح صوب قبرك.

شمسٌ تنبتُ الثمرَ!

نجاة محمد خيري

جازن

تمرَّدَتْ في مَزارات الهوى صُوَري
أَرَتِّبُ التِّيهَ بالخيبَاتِ من عُمُري
شَجْوُ المسافاتِ من فانوس حكمتِها
مَدّتْ أَقاصي ظنونِ الوقتِ بالعِبَرِ
أُفضي إلى الغيمِ ..سرَّ الصحْوِ في لغتي
ما عَنَّ للوقتِ إلا لذةُ البَصَرِ
خبَّأتُ في الريحِ ما قدْ فاضَ مِن خجلي
ورقصةُ الناي من أشتاتِ مُنحدَري
مَسْعَى المنافي ظلالٌ .. عزفُ لهفتِها
صَمْتُ المَهاباتِ لو حدَّقْتُ في وَتَرِي
أُراودُ العطرَ من تهويمِ رَعْشَتِه
حتى تنَاءَتْ غواياتي على قَدَرِي
وَناءَ عن سُلَّمِ الغاياتِ هامشُها
لربَّما هيَّأَتْ من ظنِّها خبَرِي
تساقطَ الحُسْنُ لم يهجَسْ بخاتمةٍ
سِوَى التفاتاتِ دفءٍ من ثرَى كدَرِي
وتُسْدِلُ الآهَ أفواهٌ مهيجَةٌ
لتُنبتَ الشمسُ من ثلجِ المُنَى ثمَرِي!
يا نزوةَ العِقدِ هل نَادمتَ متكئي
كلُّ الجهاتِ هنَا وصلٌ بهِ أثَرِي!
لم أكتبِ الشعرَ إلا حرقةً وثبتْ
على غمامِ المدَى فارتدَّ عن دُرَرِي
مِن شُعْلَةِ الحبِ هزَّ الموجُ أوردتي
فمركبي نبتةُ المعراجِ للجُزُرِ
سأسكبُ العشقَ في عينيكَ ملحمةً
فأعذبُ العشقِ مما سالَ من مَطرِي

اللوحة للفنانة التشكيلية Mai Autumn



حمد الجاسر .. همداني الجزيرة العربية

حمد الجاسر مؤرخ وجغرافي وإعلامي سعودي، أصدر كتبًا وأبحاثًا في مجالات اللغة والبلدان والخيل والأنساب. له حضور واسع في الحقلين الثقافي والتعليمي، ويُعد أحد رواد الصحافة المكتوبة في السعودية ومنطقة الخليج عمومًا.

ويُعد من أبرز رجال الأدب ،ومن أهم قادة التنوير في إقليم نجد بخاصة في العصر الحديث.

نال العديد من الجوائز وشهادات التقدير خلال مسيرته المهنية الطويلة.

المولد والنشأة

وُلد حمد بن محمد بن الجاسر آل الجاسر عام 1910 في قرية البرود (إقليم السر الواقع جنوب القصيم من نجد) في المملكة العربية السعودية، ونشأ في أسرة بسيطة الحال فقد كان والده مزارعًا.

كان الجاسر ضعيف البنية، ولم يستطع مساعدة أبيه في الفلاحة، حتى إن أسرته كانت تتوقع وفاته بين الفينة والأخرى، وحضرت له خالته قبره ثلاث مرات ظنًا منها أن لحظة انقضاء أجله قد اقتربت.

ونتيجة لوضعه الصحي، ذهب به والده عام 1922 إلى العاصمة الرياض فبقيَ عند قريب له من طلبة العلم، فتعلم قليلاً من مبادئ العلوم الدينية.

يقول حمد الجاسر: "كانت أولى رحلاتي إلى مدينة الرياض سنة إحدى وأربعين وثلاث مئة وألف، وقد تجاوز عمري إذ ذاك العاشرة بسنوات، وهي مدة من حياتي عشتها عيشة بؤس وشقاء، وضعف في صحتي مما انتابني من أمراض". ويقول: "أخبرتني أختي بأنني حفر لي أربعة قبور، أي أن اليأس من حياتي اعترى أهلي أربع مرات بحيث كانوا يحفرون القبر لي، ولكن يدفن فيه غيري". ويقول ".. لا أزال أذكر ما يردده أبي عليّ – حين يشاهد ما أنا عليه من ضعف فيما معناه: هذا الشيخ عبدالرحمن بن عودان – وكان قاضي الجهة التي تقع فيها قريتنا– كان أبوه يقول: أنا ما أخاف على عيالي فهم أقوياء ويستطيعون أن يعيشوا كغيرهم من الناس، ولكن هذا "الأعيمي" المسكين بفضل العلم يعيش أخوته بكنفه!!.." وكأن والده بهذه القصة يشجعه على الاهتمام بالعلم.

عاد من الرياض بعد موت الرجل الذي كان يعيش في كنفه سنة 1923، ولم يلبث أبوه أن توفي فكفله جده لأمه الذي كان إمام مسجد قرية البرود.

وعاد لها مرة أخرى عام 1346هـ ليغادرها عام 1349هـ للالتحاق بالمعهد السعودي في مكة – قسم التخصص الديني،



صورة تجمع خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز حينما كان أميرًا لمدينة الرياض بالعلامة حمد الجاسر

وأكمل الدراسة فيها سنة 1354هـ، وقد أبدى في المعهد من الدلائل الأدبية ما لفت أنظار أساتذته إليه، وقد رأينا لناء السيد حسن محمد كتبي عليه، وحاول نظم الشعر، ومما كان له ما نشره في جريدة "صوت الحجاز" السنة الثانية 1351/ 1933 (العدد الثاني) بعنوان خدمة الوطن:

إيه بني العرب جمعًا نخدم الوطنا

ونرخص الروح في مرضاته ثمنا

وقد كانت بتوقيع بدوي نجد الجاسر.. وكان يهتم مبكراً بمواقع جزيرة العرب وأنساب سكانها.

تزوج حمد الجاسر من السيدة هيلة العنقري ورزقا ولدين وثلاث بنات.

الدراسة والتكوين

التحق الجاسر بكتّاب القرية باكرًا، حيث تعلم القراءة وحفظ القرآن. وفي بداية عام 1928 عاد إلى الرياض واستقر فيها لطلب العلم على مشايخها. وفي 1929 التحق بالمعهد العلمي الذي يعد أول مدرسة نظامية تنشأ في العهد السعودي.

في عام 1939 التحق بكلية الآداب في جامعة القاهرة، وحين اندلعت أحداث الحرب العالمية الثانية أعادت السعودية بعثتها التعليمية قبل انتهاء مهمتها الدراسية.

الوظائف والمسؤوليات

بعد تخرجه في المعهد العلمي عمل الجاسر مدرسًا في ينبع خلال 1934-1938، ثم ترك التدريس والتحق بسلك القضاء، فعمل قاضيًا في ضبا (شمالي الحجاز) عام 1938.

ثم عاد إلى قطاع التعليم عام 1950. فشغل منصب رئيس مراقبة التعليم في الظهران، ثم مديرًا للتعليم في نجد.

التجربة العلمية

أنشأ الجاسر في أثناء إدارته للتعليم في نجد مكتبة العرب التجارية، التي كانت أول مكتبة عنيت بعرض المؤلفات الحديثة. عمل وكيلاً لمدير المعاهد والكليات العلمية (الدينية)، وترأس كليتي الشريعة واللغة العربية في الرياض اللتين كانتا النواة الأولى لإنشاء جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

نال عضوية مجمع اللغة العربية في القاهرة في 29/ 4/ 1958م، والمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية في عمّان، كما كان عضوًا في مجامع اللغة العربية بدمشق وعمّان وبغداد، إلى جانب المجمع العلمي في الهند.

تقدم الجاسر إلى الملك سعود بن عبدالعزيز لإصدار صحيفة يومية باسم "الرياض" فسمح له بإصدارها تحت اسم "اليمامة"، إذ لم يوافق ديوان الملك على اسم "الرياض" عنوانًا للجريدة، فكانت الجريدة الجديدة تطبع في القاهرة، وصدرت أولاً شهرية ثم صارت أسبوعية فيومية، وتوقفت عام 1961.

وقد سرد في عدة مقالات منشورة ومتاحة قصة المعاناة التي واجهها منذ حظي بالحصول على اذن ولي العهد الأمير سعود بن عبدالعزيز في 1372/4/13هـ لإصدار أول مطبوعة صحفية في الرياض، مرورًا بمعاناته مع طباعتها في مصر أولاً، ثم في جدة، ثم في بيروت وأخيرًا في الرياض (بدءًا من العدد التاسع مع السنة الثانية 1374هـ).

كما يروي في مقالاته كيف أراد لها أن تكون مطبوعة تجمع بين الأدب والثقافة وشؤون المجتمع بما يضمن لها المقروئية والإقبال في ظل عدم وجود صحيفة اخرى تملأ الفراغ في تحقيق اهدافها.

ويكشف حمد الجاسر في مقالات لاحقة بعد أن مضت عقود جاز مع مضيها أن يفشي بعض خفاياها وأسرارها، كيف واجه مشكلات الرقابة، وكيف تغلب على إشكالية تكرر صدور ترخيص لصحيفة منافسة وبالاسم نفسه، مما جعله يرضخ خلاف عادته لتغيير اسم صحيفته بعد طبع عددها الأول من اسم الرياض إلى اسم اليمامة.

ثم يذكر بالفضل كل من سانده في تحقيق حلمه الصحفي بإدخال الصحافة تحريرًا وإصدارًا وتقنية إلى منطقة ظلت

محرومة منها طيلة أربعة عقود، سواء من المسؤولين (ولي العهد الأمير سعود بن عبدالعزيز وأميري الرياض نايف بن عبدالعزيز ثم سلمان بن عبدالعزيز) أو أولئك الذين كفلوه لدى قلم المطبوعات وهم: عبدالعزيز الحمد العبدلي وأحمد ابن علي البيز أو الذين ساندوه في مصر لمتابعة طباعة الأعداد الأولى وهم عبدالرحمن أبا الخيل وناصر المنقور وابراهيم العنقري وعبدالرحمن بن سليمان آل الشيخ ومحمد القريح أو في مكة المكرمة وهما عبدالله عريف وعبدالله بن خميس أما في الرياض فكان عمران بن محمد العمران يشرف على الصحيفة عند غيابه.

وسعى إلى تطوير مشروعه الإعلامي فأسس أول مطبعة صحفية في الرياض وسماها مطبعة الرياض، وكانت تطبع مجلة اليمامة والجزيرة والقصيم وصحفًا ومجلات أسبوعية وشهرية أخرى.

ولاحقًا أنشأ دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر. وخلال سنواته الأولى في مجال الإعلام لم تكن طريق الجاسر مفروشة بالورود، فبالإضافة إلى العراقيل الإدارية عانى مرارًا من مقص الرقيب الإعلامي.

في 1966 أسس مجلة "العرب"، وهي مجلة متخصصة بالدرجة الأولى في تاريخ الجزيرة العربية وجغرافيتها وأنساب قبائلها وآدابهم، ونالت هذه الدورية المتخصصة شهرة على مستوى العالم العربي، ولدى كل المهتمين بدراسات تاريخ الجزيرة العربية في كل مكان، ولم يقف آخر قبول هذه الدورية والاهتمام بمتابعتها على المتخصصين وحدهم، بل تعداهم إلى غيرهم من غير المتخصصين. كما أسس قبل ذلك بعام جريدة الرياض اليومية الذي تولى رئاسة تحريرها.

وقد نال بسبب اهتمامه بدراسة تاريخ وجغرافية الجزيرة العربية لقب "همداني الجزيرة العربية"، تشبيهًا له بأبي محمد الحسن بن أحمد الهمْداني (280-334هـ)، كبير مؤرخي وجغرافيي الجزيرة العربية، وصاحب كتاب "صفة جزيرة العرب" الذائع الصيت.

وقد بدأ الجاسر في الكتابة عندما كان طالبًا بالمعهد السعودي في مكة عام 1349هـ بمقال له (بصوت الحجاز) ثم بعض القصائد والمقالات النقدية التي يرد فيها على بعض الكتاب، ومنهم الشاعر أحمد الغزاوي ومحمد حسن عواد وغيرهم، وقال: ".. وكنت أضحك عندما أطالع هذا الكلام المنظوم الذي كان أخوتي وغيرهم من أساتذتي في المعهد وغيره يثنون عليه، وأنا لا أتهم ثناءهم، ولكن أقرر حقيقة حينما أتمنى أن ذلك لا ينسب إلي".

وتحت توقيع بدوي نجد وتحت أسماء مبهمة أخرى يكتب الجاسر في صحيفة (صوت الحجاز) عن مواقع الجزيرة وأنساب أهلها وبالنقد الاجتماعي ومشاغبة كبار الأدباء كحسن عواد وأحمد الغزاوي وعبدالله بلخير.

أما في مجال الكتب والتأليف فيعد (سوق عكاظ) الذي صدر ملحقاً بكتاب "موقع عكاظ" لعبدالوهاب عزام عام 1950م أول مؤلفاته، ثم نشر بقية مؤلفاته وتحقيقاته ضمن سلسلة نصوص وأبحاث جغرافية وتاريخية عن جزيرة العرب، التي تصدر عن الدار التي أسسها "دار اليمامة". ولهذا نجد الدكتور يحيى محمود بن جنيد يقول عن منهج الجاسر في التأليف: "... ومنهج الجاسر في التأليف يتمثل في الحرص



العلامة حمد الجاسر أثناء تسلمه جائزة الملك فيصل العالمية في فرع اللغة العربية والأدب في عام 1996



صورة تجمع الشيخ حمد الجاسر مع الشيخ محمود شاكر

على إيصال المعلومات بكل أمانة، مستندًا إلى الدلائل التاريخية والشواهد القائمة مع التحليل والتعليل في سبيل تقديم رأي يعتقد صوابه، وهو هنا لا يعنى بانتقاء كلمات أو محاولة استعراض بلاغي بقدر ما يعنى بعملية الإيصال ذاتها سليمة خالية من الغموض أو اللبس، قادرة على التوضيح، فعند حديثه عن مسألة تاريخية أو موقع جغرافي يبدؤه بتحديد للموقع، ثم يعطي خلفية تبرز جهود سابقيه ممن اهتموا بهذه المسألة، وبعدها يعرض دوره وما قام به، فيقارن بين النصوص، ويعود إلى ما وقف عليه بنفسه، فيحلل ويستنتج من القديم، أو يصحح ويعدل.

اهتم باللغة العربية وألفاظها ومعاجمها، فانعكس ذلك في مؤلفاته، التي اختص عدد مهم منها بموضوع اللغة العربية. وبلغ ما كتبه الجاسر عن لغة الضاد حوالي 17% من مجموع كتاباته، بحسب دراسة معلوماتية لأعمال حمد الجاسر انكبت على دراسة مضمون مؤلفاته، أعدها فؤاد حمد رزق فرسوني من جامعة الملك سعود بالرياض.

وخلصت هذه الدراسة إلى أن نسبة التأليف الأصيل للجاسر تفوقت على نسبة "التأليف التبعي" (تحقيق مؤلفات الآخرين)، وهو ما يعكس "ارتفاع معدل الإبداع عنده". كما انتهت إلى "تنوع الأعمال التي ألفها وعالجها.. وقد شكلت المقالات نصيب الأسد منها".

حقق عددًا من الكتب: "رسائل في تاريخ المدينة"، "الأماكن"

للحازمي جزءان. "الأمكنة والمياه والجبال" لنصر الأسكندري ثلاثة أجزاء تحت الطبع. "المناسك" أو "الطريق" - الطبعة الثانية. "المغانم المطابة في معالم طابة" قسم الجغرافية. "البرق اليماني في الفتح العثماني" لقطب الدين النهروالي. "التعليقات والنوادر". للهجري أربعة أجزاء في الشعر واللغة والمواضع والأنساب - دراسة وتحقيق-. "الجوهرتين" للحسن ابن أحمد الهمداني، مع بحث في المعادن والتعدين. "الإيناس في علم الأنساب" للوزير المغربي. "أدب الخواص" للوزير المغربي. "المعمدون من الشعراء" للقفطي - إشراف. "شعر الشنفرى الأزدي" إشراف. "معجم الشيوخ" لابن فهد بالاشتراك. "الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة. للجزيري في ثلاثة أجزاء. "جمهرة نسب قريش" للزبير بن بكار - إشراف. جزءان.

التي تناولت المسالك والدروب في الجزيرة العربية وطرق الحج. كما اهتم بكتب الرحلات القديمة. ففي كتابه "رحالة غربيون في بلادنا" عرضٌ موجز لأهم رحلات بعض الغربيين إلى قلب الجزيرة العربية وشمالها.

وخلال مسيرته العملية، فجرت تحقيقاته واستدراكاته عددًا من المعارك الأدبية مع شخصيات وأطراف عدة في السعودية.

هاجر الجاسر إلى بيروت حيث أقام هناك مدة، وقد تأثر تأثرًا بالغًا حينما احترقت مكتبته الثمينة وسط بيروت لما حوته من كتب نادرة ومخطوطات قديمة ظل سنوات طويلة يجمعها، وتزامن احتراق المكتبة مع وفاة ابنه محمد في حادثة سقوط ركاب، وقال في إحدى محاضراته "لفقد كتبي أشد على نفسي من فقد ولدي".

وخلاصة القول: كان الجاسر مولعًا بالسير والتراجم، حيثما كتب، وفي أي موضوع طرق، فهو يدبّج مقالاته ويُذيّل صفحات كتبه بالهوامش التي توضّح سير من يأتي على ذكرهم، ومن قرأ في سوانح ذكرياته، وجد متعة في السياحة مع أفكاره وتسلسلها، وانجذب مع الغوص في متونها وهوامشها، حتى عُدّت السوانح واحدةً من أنفس الذكريات والسير الذاتية في الأدب السعودي، ومن أفضل ما كُتب في وصف البيئة المحلية في حقبة تأسيس السعودية، عن الحياة في عموم مناطق البلاد، وعن بيئة البادية والحاضرة، وأحوال القرية وزراعتها ومعيشتها وملابسها وتعليمها واقتصادها، ونشأة الهُجر والإخوان فيها، وذلك لجمال الأسلوب، وسلامة العبارة، وبلاغة الكلمات من دون تكلّف، وتدفّق الأفكار، ودقة التوثيق، وشفافية التشخيص، وصراحة القول والشهادة والأحكام.

المؤلفات

من أشهر الكتب التي ألفها الجاسر: "رحلات حمد الجاسر

للبحث عن التراث في الوطن العربي". "إطلالة على العالم الفسيح". "في سراة غامد وزهران". "في شمال غرب الجزيرة".

وفي مجال الأنساب، ألف الجاسر "معجم قبائل المملكة العربية السعودية". وكتاب "البرود". و"جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد". و"باهلة القبيلة المفترى عليها".

كما ألف "المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية". إلى جانب كتب أخرى في اللغة وتاريخ البلدان والخيل، كما حقق جملة من الكتب.

وبعد وفاته عكف مركز حمد الجاسر الثقافي على جمع المقالات المتجانسة موضوعاتها ومن ثمّ إصدارها في كتب



تحمل عناوين بجمعها، ومن تلك الجهود تصنيف المقالات التي كان ينشرها في «المجلة العربية» بدءًا من عام 1986 ولمدة أحد عشر عامًا تحت عنوان «من سوانح الذكريات»، حيث أصدرها المركز عام 2006 في مجلدين، ثم أصدرها في العام الماضي في طبعة ثانية، وسجلت المقالات ذكرياته منذ طفولته وحتى هجرته إلى لبنان (1961) وتضمّن الكتاب حلقات موسّعة وهوامش مليئة بسير بعض الشخصيات؛ منهم أحمد محمد العربي والوزير عبد الله بن سليمان.

ونشر الجاسر مقالات عديدة في الجرائد والمجلات العربية في موضوعات مختلفة. أبرزها النواحي التاريخية والجغرافية. ووصف الكتب المخطوطة، ونقد المؤلفات والمطبوعات الحديثة.

ومن كتب السير التي أصدرها مركز حمد الجاسر الثقافي بعد وفاته، كتاب «مؤرخو نجد من أهلها» 2015. الذي تضمّن حلقات نشرها على أوقات في «اليمامة والرياض والعرب» ومحاضرات ألقاها في جامعة الملك سعود ثم نشرتها مجلة الجامعة، وقد سرد فيها بإيجاز سير المؤرخين النجديين القدامى والمعاصرين، كعثمان بن بشر، وأحمد بن بسام، وأحمد المنقور، وابن يوسف، وابن عضيب، وابن غنام، ومحمد البسام، وابن سلوم، وابن خنين، وابن لعبون، وابن سند، وابن جريس، وابن حميّد، وضاري بن فهيد الرشيد، وإبراهيم بن عيسى، وابن مطلق، وعبد الله بن محمد البسام، وإبراهيم ابن محمد القاضي، وإبراهيم بن ضويّان، وسليمان بن صالح الدّخيل، ومقبل الذكير، ومحمد العلي العبيّد، وصالح بن عثمان القاضي، وعبدالرحمن بن مانع، وعبدالعزيز بن محمد القاضي، ود. عبد الله العثيمين، ومحمد ابن عبدالعزيز بن مانع، ومحمد بن عثمان القاضي، ومحمد بن عبدالله بن حُميّد صاحب كتاب (السحب الوابلة).

الجوائز والأوسمة

مُنح الجاسر جائزة الدولة التقديرية في الأدب عام 1984، ووسام التكريم من مجلس التعاون الخليجي عام 1989.

وفي عام 1995 منح وسام الملك عبد العزيز عند ما اختير الشخصية السعودية المكرمة في المهرجان الوطني للتراث والثقافة بالجنادرية.

ونال الجاسر الدكتوراه الفخرية من جامعة الملك سعود، كما نال جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي عام 1996، إلى جانب جائزة "سلطان العويس" الأدبية في الإمارات في العام نفسه.

الوفاة

وكان آخر ما سطره قلمه كلمة (فإذا عزمت فتوكل على الله، توكلت على الله)، وقد نشرت هذه العبارة بمجلة (العرب) ج1، 2 س 36 رجب، شعبان سنة 1421هـ (أيلول، سبتمبر سنة 2000م).

توفي حمد الجاسر يوم الخميس 14 أيلول/سبتمبر عام 2000 في مدينة بوسطن الأمريكية، حيث كان يتلقى العلاج، ودفن بالرياض.

مركز حمد الجاسر الثقافي

بعد وفاته أقامت أسرته وتلاميذه مركزًا ثقافيًا تخليدًا لذكره والحفاظ على تراثه العلمي، وهو مركز يحظى بالرئاسة الفخرية والرعاية الشخصية منذ إنشائه وما يزال، من لدن خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبد العزيز.

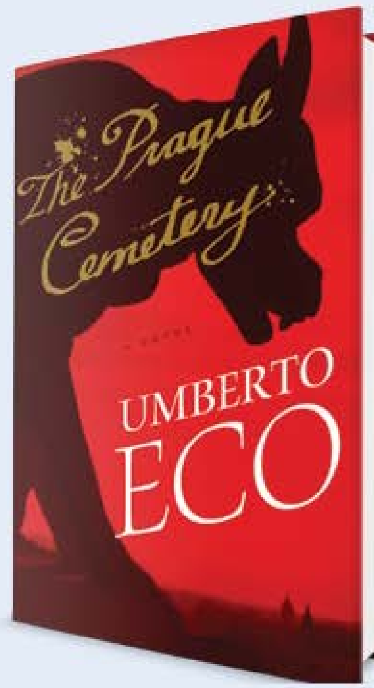


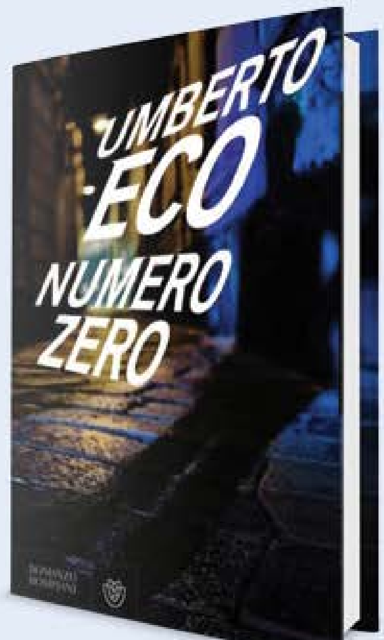
حدوتة الشاطر.. (أمبرتو إيكو)

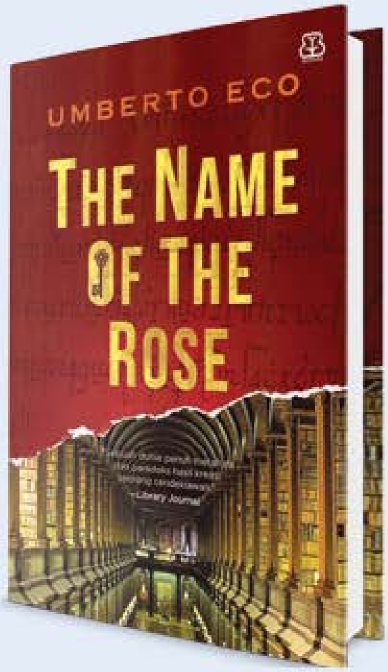
السارد العظيم.. وباعث الرواية التاريخية.. رغم البعاد.. ظلك متواصلاً..!

آيمن عبد السميع حسن
مصر

«سأفتقد كل هذا وأرحل.. هل يمكنني أن أخبئه بداخلي، وأحتفظ بزخمه ووهج حكاياته.. ربما..!»







من بَدء الأمر ، ندرك أن لكل مكان ذاكرته، ولكل مبدع مكانًا يتعمق في ذهنه؛ ليخرج- بعد حين من الوقت- طفلاً شهيًا.. تأكيدًا لذلك، فعندما تهمس المعرفة في وجدان المبدع، ينطبع ذلك على الخطوط العريضة للعمل الفني؛ فالموهبة التي تحاكي العلم تُشكّلُ مبدعًا بنكهة التفرُّد، وتمنحه القدرة على استيعاب كينونة الذات والذات الأخرى، وتجعله- أيضًا- قادرًا على رسم قُبلة على خد التاريخ والتأريخ، دون أن يتسلق أو يتملق... أو ينسلخ من جلدته.. فكل شيء، يتحرك ويتاور، يقترب ويبتعد، يبدو واضحًا لدرجة الغموض، ويبدو ظاهرًا حتى يسد ثقوب الرؤية، ليخرج علينا هذا الذي نعرفه جيدًا، الروائي الفيلسوف الإيطالي الراحل (أمبرتو إيكو)، هو نغم يُمهّد لنغم؛ ليتحد النغمان في صلاة ناعمة، وفي غضون مسقط رأسه بمدينة (باليساندريا) بالقرب من ميلانو الإيطالية (5 يناير/كانون الثاني 1932م)... يشب هذا المبدع، ويترعرع .. يطلقه مرة، وهُتّه مرة أخرى، يتكرر اسمه في كل حَدْب وصوب..

(أمبرتو إيكو)، فهو اسم ذو إيقاع موسيقي خاص: (أمبر/ تو / إيكو)، ويبدو أن عائلته كانت تتاجر في الأسماء، فاختارت له اسمًا، غنيقًا، نادرًا، جميل الوقع على المسمع، وكأنه يدعوك لأن تناصره، ولكن أول ما يجب الإقرار به أن يكون لدينا مثل (أمبرتو إيكو) دون أن نثرثر عن حياته، وأعماله، هو كاتب مُشوّق للقارئ الذكي، يُخْبِئُ بتفاصيل معقدة وغامضة ألغازًا تاريخية ويصهرها في مناخ سردي متين، ربما ذلك لانطلاقه من رؤية سيميائية وفلسفية، وقد عُرف باهتمامه بالبحث في القرون الوسطى، كما أنه يُعد ناقدًا دلاليًا مميزًا، نال شهرة واسعة من خلال مقالاته وكتبه، خاصة منها روايته الشهيرة

(اسم الوردة).. ولأنه مبدع في كافة كتاباته، فقد قام بإفراز كل ذلك ك(وجبة من العسل المُصَفّى)؛ لتشاهده عبر لوحاته السريالية والواقعية التي خطها بقلمه جميل العطايا، فتحمل جمالًا في السرد، والوصف، والحبكة الفنية، وليتجاوز كل أنواع الجمال.

وقد نجح (أمبرتو إيكو) في صياغة خاصة لموهبته؛ لتأخذنا تلك الصياغة نحو اضطراب يهز المَشاهد ويبدع تكوينات واضحة للأفق..

مع رواية (اسم الوردة) ..نقف قليلاً..

في سديم غامض، وواضح، تحرك المبدع (أمبرتو إيكو) داخل عمله الجميل (اسم الوردة)؛ ليقدم لنا عملاً يليق به، فتبدأ بتمرين سيميائي طريف، هذا الذي يبدو واقعيًا، بيد أنه يبدو أسطوريًا في ذات الوقت، ومع جزالة الأسلوب وسلاسته، يستعرض الكاتب قدراته في استثارة الرؤى.. وتأجيج بُهمة الليل .. يزحف النهار عليه.. وهكذا.. فقبل البَدء بلحظة من القراءة، اتضح لي أني خائف، وإني من زمن لم أمارس الخوف في الطبيعة، لقد مارسته - هذا الخوف- كثيرًا عندما تطرّقت لقراءة أعمال (أمبرتو إيكو)، وأخص منها رواية (اسم الوردة)، فهي حَدث فارق؛ لأنها أسست لنوع أدبي يمزج بين الرّصانة الإثارة والتشويق، كذلك أعادت رواية (اسم الوردة) الرواية التاريخية إلى الصدارة الجماهيرية، ومهدت الطريق للعديد من أعماله، التي اعتمدت- بعد ذلك- على الوصفة نفسها؛ تشويق وحبكة بوليسية، التي تدور في عالم الأديرة، بالقرون الوسطى، من البداية تزدحم الأحداث حول لغز سلسلة من الجرائم تُرْتكب في أحد الأديرة بشمال إيطاليا، كانت صفحات الرواية تعابث خوفي، وتحيلني إلى وَجَلٍ خالص، فقمت مسرعًا كي أخرج من أنفاس نفس، ثم عدت لأكمل القراءة، فشعرت أن خوفي زال وتجمد، وتحوّل إلى فرح وغبطة، لم تتكرر معي من قبل، وفي نهاية يومي، نمت قرير العين بجوار رواية (اسم الوردة)؛ كي أسترعُرَي طفولتي، أو أسترد شجاعتي المسلوبة، لا أعرف، أيهما أقرب للنفس...!

دفتر أعمال (أمبرتو إيكو)..

كان أمبرتو إيكو نقيًا بطبعه، حيث يقول في أحد حواراته : «.. ببساطة، يحدث للكاتب وهو يراجع كتابًا صدر له منذ مدة طويلة، أن يشعر بالحاجة لإجراء بعض التغييرات عليه، وعمومًا، فإنّ روايتي (اسم الوردة) هو الكتاب الذي كتبته منذ ثلاثين عامًا خلت، قد اتّسم على مرّ الترجمات بأخطاء ارتأيتُ أن أصحّحها من طبعة جديدة إلى أخرى، وفي الواقع، فإنّ الكتاب كان يتطوّرُ باستمرار، لذا كان من المفيد أن أراجعه بصفة نهائية»...

عن النجاح المذهل للرواية، ردّ أمبرتو إيكو : «...دائمًا ما كنت أشعر بتوتُّر عندما أُسأل مثل هذا السؤال، فالجميع يُحدّثني عن هذا الكتاب، كما لو أنّ الكتب الأخرى لا وجود لها، وكذلك (غارسيا ماركيز) ظلّت روايته (مئة عام من العزلة)، تضايقه باستمرار، حتى لو كتب بعدها (فيدر) أو (الكوميديا الإلهية)، فقد أصدر (أمبرتو إيكو)، بعد هذه الرواية روايات لا تقلُّ أهمية من حيث البناء الفني، مثل: «بندول فوكو» (1988)، و«جزيرة اليوم السابق» (1996)، و«باودولينو» (2000)، و«الشعلة السرية للملكة لوانا» (2004)، و«مقبرة براغ» (2010)، و«الرقم صفر» (2015).

حصاد النشأة والتكوين..

عودة على لُحمة، وإضافة لما ذكرناه سابقًا، يدخل علينا

الروائي (أمبرتو إيكو) من باب الميلاد، ليخرج هذا الكائن الصغير، المهذب الذي يكاد الخجل لا يفارقه، هو الأديب الذي ترك خلفه آلاف الأوراق والقصص والحكايات.. ترك عمرًا سخيًّا، وثريًّا، امتد فوق الـــثمانين، كانت شهرته قد تجاوزت كل الحدود، وعبرت إلى آخر بلاد الدنيا، أضف إلى ذلك، فقد كانت سيرته الذاتية تتعملق بداخله منذ نعومة أظافره؛ لتبدع مجدًا، وحضورًا، وبريقًا..

على سبيل البورتريه:

تنعكس صورة (أمبرتو إيكو)- وهو يرقد تحت (البرنيطة) السوداء- على مرايا النهار البعيد، المتسربل برماد الأسئلة الخضراء، كانت لحيته الكثة البيضاء، شعرها كندف الثلج الهائج، يسامر الحديث مع شاربه المهذب بعناية، واهتمام، تبارك هذا الحديث الشيق نظارته الطبية العملاقة، التي ترتكن على وجه (قابب) كوجه رغيف الخبز الخارج توًّا من فرن بلدي، فمه عامر بالأسنان، التي تقبض بحنو على (غليون التدخين)، أو السيجار الفاخر، نعم، تموج في الذاكرة انفعالات وهج الحياة الماضية، فأنت، إذ لم تعرف (أمبرتو إيكو) من سابق كلامي، فخلاصة الأمر- يا من تريد أن تعرفه أكثر وأكثر، عليك فقط بفعل بسيط، لن يكلفك إلا أن تتخيله بكلمة (بشوش) التي كنا نصف بها الوجه الإنساني أيام الإنشاء المدرسي.. وكفى..!

تلويحة البَدء:

لعله من المناسب أن نفتح موضوع البدايات، فقد بدأ (أمبرتو إيكو) محاولة كتابة الرواية منذ سنوات شبابه في عهد (موسوليني)، كما جاء في (اعترافات روائي شاب). اللافت للنظر، أن (أمبرتو إيكو) فتح قوسين؛ ليبدأ الرواية باحثة عن حروف تهاوت من الأبجدية، ثم تدرّج ليزيل تلك الأقواس، لتبدأ التهاويم والأمنيات من أوقات وحقبٍ زمنية كان إناء الخيالات غضًّا بها .. وتشوب كتاباته بهاء وحكمة. فقد رفض مُبكّرًا مقولة الأدب الملتزم، منذ أن انخرط في (الطليعة الجديدة)، وساهم في صدور مجلّات ذات توجهات يسارية، كما اشترك مع بعض من مثقفي وفناني جيله الشباب في تأسيس مجموعة أخذت على عاتقها الاهتمام بالجماليات الجديدة، من خلال (آثار جيمس جويس) و(إزرا باوند) و(خورخي بورخيس) وغيرهم، وعُرفت المجموعة الطليعية باسم Gruppo63 ..

الصحافة في حياة أمبرتو إيكو:

لقد ارتبط (أمبرتو إيكو) بالصحافة منذ أن بدأ محرّرًا ثقافيًّا في التلفزيون والإذاعة الإيطالية، وهو ما أتاح له أن يتعرّف عن قرب، إلى كوكبة من الأدباء، والرسامين، والموسيقيين، ولم يؤثر ذلك على مستقبله ككاتب وروائي، وبرغم إغواء عالم الصحافة الذي كان قريبًا منه، إذ كان صحافيًّا خصب الإنتاج، ويكتب، بشكل دوري، أعمدة مرحة للعديد من اليوميات والأسبوعيات الكبيرة في إيطاليا، فإنّ مُدخّن الغليون وهاوي الإسكواش الاسكتلندي لم يترك التعليم الجامعي، فقد واصل سلسلة محاضراته طوال ستينيات القرن، سواء في كلية فلورنسا أو ميلانو للهندسة، ثم جامعات ساو باولو (1966)، ونيويورك (1969) وبوينس آيرس (1970).

(أمبرتو إيكو) رائد السيميائيات، وفلسفة اللغة:

ومنذ عام 1975، تولى كرسي (السيميائيات) في كلية الآداب والفلسفة في جامعة بولونيا الأعرق، (وكان الأول من نوعه بالنسبة لكل الجامعات)، ويؤسس- بموازاة ذلك- مجلة (Vesus) الدولية للأبحاث السيميائية، عادًّا الفرنسي (رولان بارت) أول من دشّن هذا العلم التجريبي، وهو، أكثر من كونه منهجًا، بمثابة تمفصل بين التأمل والنظرية الأدبية، وبين الثقافتين العالمة والشعبية..

الثابت لدينا، أن هذا الكاتب الراحل لم يكتب أبدًا باشمئناط، كما يكتب الكثير منا، عندما يكتب عن وطنه، بل كان أسلوبه منيرًا، وقلبه عامرًا بالوطن، أما إحساسه بهويته فهو إحساس يقيني لا اهتزاز فيه .. فمنذ هذا التاريخ، صار (أمبرتو إيكو) رائد السيميائيات، كما يتّضح من تحليلاته الملمّاحة في كتبه) البنية الغائبة (،و) العلامة: تحليل مفهوم وتاريخه(،و) موجز السيميائيات العامة(. مثلما ساهم بالقدر نفسه في بلورة جماليّات التأويل كما يظهر من كتابه) العمل المفتوح(. الذي يُبسط فيه أسس نظريته، مبرزًا عبر سلسلة من الفصول التي تركز أساسًا على الأدب والموسيقى، أنّ العمل الفنّي هو رسالة غامضة ومفتوحة على تأويلات لانهائية، حيث تتساكن مجموعة من المدلولات في قلب الدالّ الواحد. ومن ثم، ليس النص موضوعًا نهائيًّا، بل إنه – على العكس من ذلك- موضوع (مفتوح) لا يمكن للقارئ أن يتلقاه باستكانة، وإنما عليه أن يَتَدَخَّل ويبذل طاقته التأويلية. وهذا ما سيتوسع فيه (أمبرتو إيكو) أكثر، من خلال كتابه (القارئ في الحكاية)، حيث يدعو القارئ إلى التعاون مع النص، لأنّ النص وحده ليس بإمكانه أن يقول أيّ شيء. هو صاحب الخيال الشهي، على رأسه يحمل بوتقة بها جميل الأسلوب، الألفاظ، يحافظ على نقاء سريرته، الإبداعية، دون الانخراط في التشظي، والتمزيق، والألفاظ النابية، والتعبيرات الحوشية، وكافة أنواع الحداثة المفتعلة، دون استعراض أو تصارع أو مزاحمة، فقد كان دائم الدفق متألقًا.

أمبرتو إيكو ..صانع الأعداء:

ويُلفت (أمبرتو إيكو) إلى أنه عندما انهار ما كان يسمّى بـ(الاتحاد السوفييتي)، وجدت (الولايات المتحدة الأمريكيّة) نفسها في حيرة من أمرها، بسبب احتياجها إلى من يتشرف بتعويض "إمبراطورية الشر". ولم ينقذها من تلك الحيرة غير ظهور (القاعدة) بزعامة ابن لادن وأيمن الظواهري. ثم يكتب قائلاً: "أمر مهمّ أن يكون لنا عدوّ لتحديد هويّتنا، ولكن أيضًا لمواجهة العقبات، وتبيّن مدى صحّة وقوّة نظام قيمنا، وإظهار شجاعتنا. لهذا حتى وإن لم يكن لنا عدوّ فإنه يتحتّم علينا صناعته"... ولكي يثبت صحّة فكرته هذه، يعود (أمبرتو إيكو) إلى التاريخ القديم، الروماني بالخصوص؛ ليسوق لنا من خلال خطب (شيشرون) أمثلة عن كيفيّة "صناعة العدو"، والحاجة إليه ومما ورد في خطبه: «هذا القطيع النذل ليس سوى عصابة من كلّ اللاعبين، والزوجات الخائنات، ومن كلّ ما هو نجس وفاحش وفاسق».. وقد اكتفى (أمبرتو إيكو) بتحديد مقاييس العدو، من خلال الثقافة الأوروبية القديمة، والحديثة، غافلاً عن ذلك في الثقافات الأخرى كالعربية، والصينية، واليابانية، وغيرها..

وفي الختام:

شكّل رحيل الأديب الإيطالي" أمبرتو إيكو" عن عالمنا، مثلما شكّلت العودة المتسللة المملوءة بالخوف، فالزمن لم يعد – بعد رحيله- كالمعتاد، بل كان ذا مسار أسطوري ينتقل من الذروة إلى الهوية، في عالم يمور بالفزع و الضياع.. فقد كان معظم أعمال الراحل "أمبرتو إيكو" حالة من التجاذب بين البقاء والرحيل، ينتقل من الواقعي إلى الرمزي، ومن العادي إلى الخارق، والعكس، فيقدم مشاهد قَلّ أن تتكرر عند أمثاله، المشهد بجملته زحمة وربكة حياتية تحوي العناصر الصراعات معًا، لكن وجب علينا أن نؤكد المحاولة التي قام بها الراحل "أمبرتو إيكو" إيجاد منهجية تطبيقية وتنظيرية، يمنة ويسرة، في قصصه ومقالاته، وأعماله الروائية، فقد حاول أن يقدم ما سبق ذكره؛ ليثبت أن الهزيمة لا تشكل نهاية التاريخ.. نعم لم يغص" "أمبرتو إيكو" عميقًا في بناء شخصياته وعالمه السردي التلقائي، لكنه يستحوذ على اهتمام قارئه ويمنع عنه الملل متوسلاً بخفة المادة السردية التي يقدّمها بأشكال مختلفة حتى الطريف منها .. هكذا نرى ((أمبرتو إيكو)) يرقد وحيدًا، في آخر المشوار، وهو الذي شغل الدنيا بحله وترحاله. . سواء اختلفت معه أو اتفقت، سواء استمتعت برواياته أو شعرت بالإرهاق الشديد لدسامة ما تقرؤه، وتجتهد في فهمه، يبقى الواقع الراهن أن (أمبرتو إيكو).. يصطحب قارئه- عبر سطوره، في رحلة لاكتشاف تشعرك من خلالها أنك أمام مؤلف جاد ومحترم..

الغابة

الشاعرة الهندية كالبنا سينغ-تشينتِس



ترجمة: نزار سرطاوي

كالبنا سينغ- تشينتِس شاعرة وكاتبة ومترجمة ومنتجة أفلام وممثلة أميركية هندية تعيش في ولاية كاليفورنيا. صدرت لها ثلاثة دواوين باللغة الهندية قبل صدور ديوانها الأخير "روح عارية" باللغة الإنجليزية عام 2015. منحتها حكومة ولاية بيهار في الهند جائزة بيهار راجبهاشا (1986-1987)، وذلك عن ديوانها الأول "رقصة القمر". في عام 1988 حصلت على لقب جوهرة بيهار. وفي عام 2014 فازت بجائزة راجيف غاندي العالمية للتميّز، وذلك تقديرًا لمساهماتها الأدبية والسينمائية. كما رشحتها المجلة الأدبية الفرنسية "لافيور ليتريرِ" للتكريم.

نُشرت أعمال كالبنا الشعرية وترجماتها في شبه القارة الهندية وأوروبا وأميركا الشمالية. وقد أسست كالبنا المجلة الأدبية "حياة وأساطير" بالإضافة إلى عضويتها في هيئة تحرير مجلة "لافيور ليتريرِ".

حصلت كالبنا على الماجستير في العلوم السياسية من جامعة بودغايا في ولاية بيهار، كما درست الإخراج السينمائي في الاستوديوهات العالمية التابعة لأكاديمية نيويورك للأفلام في هوليوود. وقد عملت في تدريس العلاقات الدولية لطلبة الدراسات العليا في كلية غايا قبل تحولها إلى الإخراج السينمائي.

نال كلٌّ من ديوانيها "يستمر التحقيق" و"الفجر" إعجاب الكثير من الشعراء والنقاد والباحثين، ومن بينهم الشاعر والأديب الباكستاني وجيه آغا، والأديب الباكستاني نصير أحمد ناصر، والشاعرة الهندية أمريتا بريتام، والشاعر والمنتج السينمائي غوزلار.

تنشط كالبنا في المجال السينمائي من خلال تقديمها للأفلام التي تهتم بالوعي الاجتماعي وإعطائها مكانة عالمية، ومن خلال مهرجان النهر الصامت للأفلام الذي يقام كل عام، وما تبذله من اهتمام بالدبلوماسية الثقافية في الشرق والغرب.

الغابة – 1

الغابة تُرحّبُ بالقرن عامًا جديدًا
القرون تُرحّبُ بالألفيّات

الألفيات تُرحّبُ بالخلود
والخلود يُرحّبُ بالمقدس فينا

فلنقف امتنانًا،
ونتفتّحْ كالزهور البريّة

ونفتحْ أنفسنا حتى القلب
ونُعطّر الغابة

الغابة – 2

هلمّ نُعرِّ أنفسنا
ونتنعّمْ بجمال الغابة

هلمّ نطوّح بأغطيتنا بعيدًا
فقد مللنا منها

في الغابة لا حاجة بنا إلى أن نتصنّع
فلنكن على ما نحن عليه أيًّا كنّا.

لنكن الأسودَ، النسورَ، الذئابَ، الضباع،
المها، الحمائمَ، الآلهةَ، أو الثعابينَ، إن كنّا حقًّا
كذلك...

أو فلنكن الأشجارَ، التلالَ، الصخورَ، الكثبانَ
أو الأوراقَ المتساقطةَ في طريقٍ متعرج،

لنحتفلْ بعطشنا
بحثًا عن جدول ماء؛

لنتوهجْ بشرتنا
في العتمة والنور؛

لنتلألأْ
حين تلعب الشمس الغُمّيضة ؛

لنُعَرّ أرواحنا
ولنبقِ على قدسية الغابة؛

لنكتشفِ الآن
الجمالَ الوحشيّ في داخلنا!

الغابة – 3

في الغابة كهوف
وليس فيها أقفاص.

فيها حريّة لا قيود عليها
للجميع.

ليس للغابة سوى قانون واحد
هو أن ليس ثمّة قوانينَ بل مبادئ.

للغابة لغةٌ واحدة،
لا نسمعها إلا في حالات الصمت.

نكتشف معناها
في غمرة فرحنا!

الغابة – 4

كل ميلاد في الغابة هو احتفال،
فليس ثمّة موتٌ في الغابة
يستلزم الحداد

الغابة تنفث الحياةَ في الموتى جميعًا
في الغابة
تنبعث الحياة في الجميع؛

كل دمعة تُحصى
وتغدو أُضحيةً
لنهر الخلود



هيئة أبي

چو زه تشينغ

ترجمة : مي عاشور

القاهرة

لم التق بوالدى لأكثر من عامين، وأكثر شيء محفور في ذاكرتي ولا أستطيع نسيانه هو هيئته من الخلف.

رحلت جدتى في شتاء ذلك العام، وانتهت مدة عمل والدى، مررنا بأيام قاسية توالت فيها المصائب. قررت العودة من بكين إلى شو جو، لأحضر مع والدى المأتم، وعندما وصلت إلى هناك لرؤيته، كان فناء المنزل ممتلئ بأشياء كثيرة مبعثرة، فتذكرت جدتي، ولم تتوقف دموعي عن الانهمار. قال والدى: "باتت الأمور هكذا، لا داعى للحزن، سيجعل الله لنا مخرجًا".

عندما عدت إلى المنزل كان قد باع والدى ممتلكاته الثمينة لعمل المأتم، حتى إنه استلف نقودًا، وتراكمت عليه الديون. ففي هذه الأيام، كانت أحوال البيت كئيبة جدًا، بسبب الاستعدادات للمأتم من ناحية، ولأن والدى أصبح عاطلاً عن العمل من ناحية أخرى. بعد انتهاء الجنازة، كان على والدى الذهاب إلى نان تجينغ لتدبير أموره، بينما كان عليَّ أن أعود إلى بكين لاستكمال دراستي، فسافرنا معًا.

عندما وصلت إلى نان تجينغ، اتفقت مع صديق لي أن نذهب للتنزه، وأن أبقى ليوم واحد هناك، وفي اليوم التالي كان عليَّ أن أعبر نهر اليانغ زي إلى بو كوه، لأركب القطار للعودة إلى بكين بعد الظهر. وبسبب انشغال والدي، كان من الصعب أن يوصلني بنفسه، فطلب من نادل يعمل في الفندق ويعرفه جيدًا أن يوصلني.

نبه على النادل مرات عديدة وبشكل مفصل. ولكنه في النهاية لم يطمئن قلبه، تردد قليلاً، وخشي ألا يكون النادل مناسبًا لهذه المهمة. في الحقيقة أنني كنت قد أتممت العشرين في هذه السنة، وكان قد سبق لي أن الذهاب والإياب من وإلى بكين أكثر من مرة، ولا يوجد شيء يستدعى القلق. ولكن والدي تردد قليلاً، وفي النهاية قرر أن يوصلني بنفسه. حاولت أن أقنعه كثيرًا بأنه لا داعي لذلك، فكان كل ما قاله:" لا بأس، من الأفضل أن أذهب معك".

عبرنا النهر اليانغتزي، ودخلنا إلى المحطة. كان والدي مشغولاً بالنظر إلى أمتعتي، بينما كنت أشتري أنا التذكرة. كانت الأمتعة والحقائب كثيرة جدًا، وكان يجب دفع (بقشيش) للعتال لحملها. انشغل أبي مرة أخرى في الفصال معهم على الأجر، حينها كانت أفقي حقًّا محدودة ولا أفطن شيئًا، فكان لدي شعور دائم بأن والدي لا يجيد الكلام، وأن على أن أقطع حديثه أو أتحدث بدلاً منه. في النهاية توصل والدي إلى اتفاق مع العتال على الأجر، وأوصلني إلى القطار. اختار لي مقعدًا مجاورًا للباب، علقت على المقعد معطفي الكبير بنفسجي اللون الذي صنعه لي بنفسه. أخذ والدي ينصحني بالانتباه في الطريق، والانتباه على نفسي في الليل، حتى لا أصاب

بالبرد. ثم وصى الموظف ليهتم بي.
ضحكت ﰲ سرى على تزمته، فالشيء الوحيد الذي يعترف به هؤلاء هو النقود، وتكليفهم بأي شيء آخر لا جدوى له!. ألا يستطيع شخص ﰲ مثل عمري الكبير هذا أن يدير شؤونه ويعتني بنفسه؟، آه عندما أفكر لأن ﰲ هذا، أشعر كم كنت محدود الأفق وقتها.
قلت: " أبي، فلتذهب".
نظر صوب الخارج، قائلاً: " سأذهب لشراء بعض (اليوسفي)، لا تتحرك من مكانك". نظرت خارج سياج الحديدية لرصيف المحطة، فكانت هناك بضعة متاجر تنتظر مجيء الزبائن. المشي إلى رصيف المحطة، يحتاج إلى عبور من على قضبان القطار، فلذلك يكون النزول والصعدود مجددًا أمر ضروري، وكان والدي بدين، والمشي بالنسبة له أمر مزعج. كنت أريد الذهاب بدلاً منه، ولكنه رفض، فلم يكن بيدي شيء إلا أن أتركه يذهب.
رأيته يسير بخطوات مترنحة نحو القضيب، مرتديًا قبعته القماشية الصغيرة سوداء اللون، وجلبابه القماشي الأسود، وعباءته داكنة الاخضرار، ثم حنى جسده ببطء، لم تكن هناك صعوبة كبيرة ﰲ ذلك. ولكنه عندما عبر القضيب، وأراد أن يتسلق الرصيف للصعود مرة أخرى، كان الأمر ليس هينًا بالنسبة له. استخدم يديه الاثنتين، ورفع قدميه إلى أعلى ليصعد، انحرف جسده السمين قليلاً إلى اليسار، بدا عليه الاجتهاد، سالت دموعي عندما رأيت هيئته هذه، ولكنني مسحتها بسرعة، خوفًا من أن يراها هو أو الآخرين.

عندما نظرت إلى الخارج مجددًا، وجدت والدي عائدًا يحمل (يوسفي) قرمزي اللون. عند عبور القضيب، وضع اليوسفي أولاً على الأرض، ثم نزل برفق، للمه مرة أخرى ومشى. عندما وصل إلى هذه الناحية، ذهبت بسرعة لمساعدته. صعدنا إلى القطار، وضع (اليوسفي) كله على معطفي الجلدي الكبير، وأخذ ينفض ملابسه من الغبار، وباديًا عليه الارتياح.
قال بعد لحظات: "سأغادر، أرسل لي رسالة فور وصولك". لاحقته بنظراتي وهو يخرج من العربة. ما لبث أن مشى بضع خطوات، حتى أدار رأسه ورمقني بنظرة وقال: "فلتدخل، لا يوجد أحد بالداخل"، انتظرت حتى اختفى ذاب وسط المارة، ثم دخلت وجلست ﰲ مقعدي، وحينها بكيت مرة أخرى.
ﰲ السنوات الأخيرة كنت أنا ووالدي منشغلان جدًا، كانت تتدهور أحوال منزلنا من سيء إلى أسواء. كان والدي ﰲ شبابه يسافر للبحث عن عمل، يعتمد على نفسه، ويقوم بعمل أشياء كثيرة وكبيرة. من يتوقع أن تهبط همته هكذا، عندما يتقدم به العمر، فعندما تراه لا تملك إلا أن تشعر بالحزن على حاله. يشعر بالضيق بداخله، ومن الطبيعي أنه يريد التنفيس عن ذلك، كان يغضب بسبب تراكم أمور كثيرة ﰲ المنزل. اختلفت معاملته معي تدريجيًا.
لكن لم نتقابل ﰲ السنتين الأخرتين، ﰲ النهاية نسى مساوئي، وشغل باله بي وبابني. بعد أن جئت إلى بكين كتب لي رسالة به هذه الكلمات: "صحتي جيدة، فقط ذراعاي يؤلماني كثيرًا، أشعر بعدم ارتياح عندما أمسك عيدان الطعام أو القلم، فتقريبًا أننى أوشكت على الرحيل الأكبر".
عندما قرأت هذه الكلمات، لاحت لي وسط لألىء دموعي تلك الهيئة البدينة، ذات عباءة داكنة الاخضرار وجلباب قماشي أسود.
آه، لا أعرف متى سأجتمع به ثانية.

شو جو: مدينة ﰲ مقاطعة تجيانغ سو
بو كو: محطة القطار ﰲ مدينة نان تيجنغ التي تقع
چوزه تشينغ (1848 - 1998)، شاعر وكاتب نثري صيني كبير، عمل أستاذًا بجامعة تشين خوا، كتب هذا النص عام 1925، وهو واحد من أبر النصوص التي كتبها.

بين حضارتين:
مفارقات بين الشرق والغرب
(شهادة طبيب عربي في الغرب)

بين فلسفتين:
بين تأليه الله وتأليه الإنسان 2

الفصام النكد في الغرب:
سلخ الإيمان عن العلم وبداية العلمانية



البروفيسور: مهند الفلوجي
أستاذ الجراحة والمشرف على:
معهد تاريخ الطب والعلوم
عند العرب والمسلمين
(www.ihams.org)
لندن

كانت علوم الشرق الإسلامي تقوم على تعاضد العلم والإيمان. وحين كان العالم الإسلامي هو السيّد القائد لنظام العالم القديم (Old World Order) لما يقرب من 8 قرون (700 - 1500 م) بما يُسمى عالميًا بحقبة السلام العربي (pax arabica)، وكانت اللغة العربية آنذاك هي لغة التداول العالمي (Lingua franca) للعلوم والتجارة والعمارة والعسكرية والفنون وفي شتى مناحي الحياة. وعبر منافذ التسرب وقنوات التواصل بين الشرق والغرب (إمارة الأندلس الإسلامية، الدويلات الصليبية في الشريط الساحلي لحوض المتوسط، صقلية، إستنبول، مع السفارات والتجارات البينية) تسرّبت العلوم من دفء الشرق المنير في عصره الذهبي رويدًا رويدًا، إلى الغرب البارد الذي كان يتخبط في دياجير الظلام في العصور الوسطى المظلمة. حتى إنّ كلمة الغرب مشتقةٌ من غروب الشمس، ومن "غروب" اُشتُقّت كلمةُ (Europe) (كانت أوروبه بالفعل تمثّل حينها غروب الشمس والعلوم معًا مقارنة بالشرق). وكانت الحروب الصليبية التي ابتداها الغرب الأوروبي النصراني على الشرق الإسلامي ولقرابة 200 سنة قد نَحّت الإسلام عن أوروبة جانبًا، لتحلّ محله الكنيسة بدينها المُحرف وقساوستها الظلمة. كان الإيمان حينها متداخلاً في العلوم تداخل عنصر الأوكسجين في الهواء، وتداخل الماء في تركيب جسم الانسان والحيوان والنبات، وكتداخل الماء في سكر العسل لا ينفصل (الماء في العسل يشكل 16% بينما سكرياته: الفواكه/فركتوز والعنب/غلوكوز والقصب تشكل 77%)؛ كان تداخل الإيمان بالعلوم تداخلاً طبيعيًا، لا تمازجًا مصطنعًا، كما في اللبن المُمذق (اللبن المخلوط بالماء) أو في الشراب المخفف بالماء.

ولما بدأت تباشير النهضة الأوروبية اقتداءً وتأثرًا بالشرق الإسلامي في التفكير الحرّ، وفي نهضة العلوم الأكاديمية، وإصلاح الدين بالحركة البروتستانتية، كانت النهضة الأوروبية والفلسفة الغربية الحديثة في حقيقتها فلسفة نمت وازدهرت في ظلال الفلسفة الإسلامية، برغم أنّ غالبية الأعمال الغربية كانت مسروقة مُنتحلة (plagiarized) من الشرق ومنسوبة إلى سارقيها ومُنتحليها، بعد إعادة صياغتها، ومن دون أدنى اعتراف بفضل أصحابها. ووقفت الكنيسة بسلطتها الدينية وبسلطان قساوستها وجبروت محاكم تفتيشها حجرَ عثرة أمام الفكر العلمي الحر، بل وتدخلت في فرض علومها الكَنَسية الخاطئة في علوم التشريح والصيدلة والفلك (لتبنّيها آراء جالينوس وبطليموس اليونانيين). وبدأ صدام العلماء مع الكنيسة برغم المكابدة والمعاناة والتشريد والنفي والإقامة الجبرية، واستُشهد صفوة علماء الغرب في محاكم التفتيش كما رأينا سلفًا في أمثلة (مايكل سرفيتوس) و(جوردانو برونو) و(جُفيلو جليلي). وبدأ علماء الغرب يكفرون برجال الكنيسة الجبارين، وبدينها الظلوم الغشوم، وبعقم العلوم الكَنَسية (التي لا تستند لدليل البحث العلمي). وبدأ الفصام النكد بين العلم والإيمان يتوسع ويستشري حتى كان النصر النهائي حليف العلم والعلماء ضدّ دين الكنيسة المُحرف وسلطانها الجائر.

ولم يكن ملوك أوروبا بمعزل عن تنكيل الكنيسة بالعلماء، بل كانوا هم أيضًا يعانون من تعسف الكنيسة وجبروتها للهيمنة على الملوك وتركيعهم لسلطانها، مما حدا بهم جميعًا للتضافر والتخطيط لتحجيمها وعزلها عن الحياة وعن السياسة؛ وبذلك ولدت العلمانية secularism (عزل الدين النصراني

عن الحياة العامة) تسير جنبًا لجنب مع الفصام النكد بين العلم والدين. وقيّض الله لكسر شوكة الكنيسة مَلكين أوروبيين غايةً في الدهاء والقسوة: الملك الفرنسي فيليب الرابع والملك الإنجليزي هنري الثامن، ليذل بهما جبروت الكنيسة الظالمة. وبانتصار ملوك أوروبا على الكنيسة الكاثوليكية انحصرت سيادتها في حيٍّ صغير محاط بجدران وسط روما وبموجب "معاهدة لاتيران Lateran Treaty" عام 1929م، صارت تُدعى "دولة الفاتيكان" Vatican City or Citta del Vaticano (أصغر دولة في العالم مساحة 44- هكتارًا، وسكانًا 842- نفسًا !)، وانحسر معها الدين واقتصر مفهومه على علاقة العبد بربّه، واُختزلت النصرانية في المراسيم الشخصية وحسب، ونُحّيت بذلك عن الحياة العامة لتبقى ظلاًّ باهتًا شاحبًا مزويًّا ومنزويًّا عن السياسة).

فمنذ القرن 12 وحتى مطلع القرن 14 كان بابا روما هو القائد العام الأكبر للممالك النصرانية الأوروبية خلال الحروب الصليبية، حتى إن ملوك إنجلترا وفرنسه بل وأباطرتها كانوا مثل قواد جيوش تحت إمرة البابا (باستثناء الإمبراطور فريدريك الثاني – صديق المسلمين، الذي فصلته الكنيسة مرتين في الحملة الصليبية السادسة).

ثم دبّ الخلاف بين البابا والإمبراطور الروماني المقدس (لقب رئيس الاتحاد الأوروبي للممالك النصرانية آنذاك) حول من يقود جيوش الممالك النصرانية دنيويًّا (لا دينيًّا). فاحتدم الصراع بين فيليب الرابع (ملك فرنسه والمسمى أيضًا الملك الحديدي أو فيليب الوسيم – Philip IV the Fair or Philippe le Bel or the Iron King) ضد البابا بونيفيس الثامن Pope Boniface VIII، وفرض الملك نقل البابوية من روما الى آفينيو Avignon (مدينة فرنسية) وفرض الضرائب على المدينة، ومن ثم صار جميع البابوات السبعة المتتالين فيها من أصل فرنسي من عام 1309م وحتى 1377م، وهذا ما يسمونه بـ "البابوية الآفينيويه" أو "السبيّ البابلي للبابوية" لغيابهم عن روما Avignon Papacy or Babylonian Captivity، وبذلك سنّ الملك فيليب الرابع سُنّة تذليل وتطويع الكنيسة بين ملوك أوروبة، وقد استمر الصراع مجددًا للحقبة من 1378-1417م، وهذا ما يسمونه بـ الانقسام الغربي Western Schism . ومما قام به هذا الملك الحديدي أيضًا هو طرد اليهود واللومبارد من فرنسه عام 1306م، لأنهم التجّار المرابون الذين كانوا يشرفون على عدد من مؤسسات البنوك، فاعتقلهم وصادر جميع أموالهم المنقولة لصالح الدولة. كما قام هذا الملك الوسيم أيضًا بإبادة منظمة فرسان الهيكل (الماسونية) Knights Templar عام 1307م، حيث قصمت هذه المنظمة ظهرَ فرنسه بالديون الهائلة في تمويل الحملات الصليبية بقيادة فرنسه لها (غلب اسم الفرنجة عند العرب بإطلاقه على جميع الصليبيين، وذلك بسبب القيادة الفرنسية لأغلب الحملات)، فرأى الملك فيليب الرابع في منظمة فرسان الهيكل "دولة داخل دولة" a state within the state، فأنهاها بحجة قيادتهم للصليبيين وخسارتهم النهائية أمام المسلمين في عكا وبحجة الاستغلال والهرطقة. وهكذا انتهت الحملات الصليبية بالاندحار والعار والشنار، بل وبدمار مموليها الكبار! فسبحان مُغيّر الأحوال! وما أصدق قول الله تعالى في أمثالهم:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ الأنفال:36. كان لمنظمة فرسان المعبد (عدا جناحهم العسكري): بنك (مصرف) يموّل الصليبيين في أثناء حملاتهم، أي أنهم كانوا عصب الصليبيين الاقتصادي، وكانت علاقتهم بالبابا علاقة إشراف مباشر، وكانوا خلاف عامة الشعب، مُستثنين من ضريبة العُشر (المُسمّاة بضريبة صلاح الدين: وهي ضريبة مُكونةٌ من عُشر دَخْل الفرد الأوروبي، فُرضت أولاً عام 1188، في إنجلترا وفرنسا لدعم الحملات الصليبية ضد صلاح الدين) وضرائب أخرى، ومن قوانين الكنيسة والقوانين الدنيوية. وفي فجر الجمعة الـ 13Friday 13 / من أكتوبر/تشرين أول 1307م اقتحم رجال الملك حُرمة بيوتات ومدارس فرسان الهيكل وقاموا باعتقال كُلّ فارس وجدوه هناك، وفي مارس/آذار عام 1314م أُحرِق حيًّا الأستاذ الأعظم لفرسان الهيكل الماسوني (جاك دي مولي) على نهر السين في باريس أمام نوتردام، وبموته انتهى الفصل الأخير من قصة فرسان الهيكل في فرنسه. منذ ذلك الحين ولحد تاريخ هذا اليوم، صار رقم اليوم 13 رقمًا مشؤومًا منبوذًا عند الأوروبيين، خصوصًا إذا صادف يوم الجمعة (Friday 13)، فترى الأوروبيين اليوم يرفضون رقم 13 في عناوين البيوت وعناوين الشوارع، بل يرفضوا حجز المقعد رقم 13 في الطائرة لتشاؤمهم منه، لدرجة أن الكثير من الطائرات رفعت رقم 13 تمامًا من تسلسل مقاعدها !!!

لكن أول ملوك أوروبا تمردًا على سلطان الكنيسة الكاثوليكية الجائر، دينيًّا ودنيويًّا، هو ملك إنجلترا (الملك هنري الثامن King Henry VIII)، بعد أن رفضَ بابا روما طلبَ الملك لتطليق زوجته الإسبانية الكاثوليكية (كاثرين الأرغونية Catherine of Aragon) للانفكاك منها والزواج بالإنجليزية البروتستانتية (آن بولين Anne Boleyn). فشنّ الملك هنري الثامن عام 1533م هجومًا كاسحًا على الكنيسة الكاثوليكية في عموم إنجلترا وضواحيها مع حملة تشهير وتحقير بالبابوية (ومركزها: فاتيكان روما)، وغيّر الدستور الإنجليزي جذريًّا، ودعم الحركة البروتستانتية الثائرة على الكنيسة الكاثوليكية، وفصل الكنيسة الإنجليزية (الأنجليكانية) من الكنيسة الكاثوليكة ، وأعلن نفسه رأسها الأكبر، ونكّل بالمعارضين له ولزواجه من أتباع الكنيسة الكاثوليكية. وطلق "كاثرين" وتزوج "آن بولين" في نفس العام 1933م، و"آن بولين" هي أم الملكة (أليزابيث الأولى Queen Elizabeth I) التي حاربت إسبانية الكاثوليكية وانتصرت على الأسطول الإسباني (أرمادا)، وتحالفت مع الدولة العثمانية المسلمة، والتي موّلت حركة الإصلاح البروتستانتي أيضًا. بالمناسبة، أخت آن بولين هي: 'ماري بولين Mary Boleyn' تُعدّ السلف الأعلى والجدّة الكبرى - كما يُقال- لـ ونستون شرشل وشارلس دارون، بل وللأميرة 'ديانا سبنسر' التي طلقها الأمير وولي العهد شارلس، لتتزوج بعده رجلَ الأعمال 'عماد الدين محمد الفايد' (المشهور باسم 'دودي فايد' Dodi Fayed) المصري المسلم، ومات الاثنان في حادث سيارة مشتبه به في باريس 1997/8/31م !.

ظهور الديمقراطية وسلطة الشعب المتمرد على الملوك ذوي الحق الإلهي: سرعان ما انقلب الحال وادعى هؤلاء الملوك أنهم مُعيّنون بأمر الله بما يُسمى حق الملوك الإلهي (Divine right of kings) من السماء، واستمروا بنظام التوريث، كما في إمبراطوريتي النظام القيصري الروماني والنظام الكسروي الفارسي، وأنه لا يحق للمحكومين محاكمة الملك ومقاضاته، فهذا من شؤون الله ؟! حتى تمّ التخلّي عن الحق الإلهي عقب الثورة المجيدة في بريطانيا (1688–1689)، وعقيب نجاح الثورة الفرنسية 1799م والثورة الأمريكية (1765 - 1783) في أوروبا والأمريكيتين واستبداله بحكم الشعب من الشعب وباسم الشعب ديمقراطيًّا بنظام جمهوري.

الفلاسفة السبعة الذين صاغوا فلسفة الغرب

هناك رموز غربية كثيرة، لها وزن في حقول الاختصاص، وتحظى بشهرة واسعة في الغرب، مثل: وليم شكسبير في حقل اللغة والمسرحيات الإنجليزية، ومثل آدم سميث الذي يُعدّ أبو الاقتصاد الإنجليزي (كانت رئيسة وزراء بريطانيا "مرغريت ثاتشر" تفخر باقتناء نسخة من كتابه "ثروات الأمم" Wealth of Nations)، وألبرت آينشتاين في علم الفيزياء؛ وهناك إميل دوركهايم الفرنسي في فلسفة الاجتماع، وجورج هيجل الألماني في الفلسفة الغربية المثالية، وهناك كوكبة متألقة من المخترعين والمكتشفين في حقول اختصاصاتهم لهم القدحُ المُعلّى في تطوير تقنيات الحياة وتسهيلها (مثل اختراع التلفاز والثلاجة والغسالة والتلفون والمذياع وتلفون الجوّال والبايسكل والسيارة والقطار والطيارة). لكن هذه الرموز والشخصيات، لم يكن لها تأثير كبير متميز في فلسفة الغرب الحديث، ولا باع لها في صياغة القرار لصُنّاع القرار. انتحل المتأخرون من الفلاسفة ونهلوا من فلسفات قديمة، فأضافوا عليهم وطوّروا وأفرزوا، من بعد ذلك، محصلات فلسفية بأسمائهم، لها تأثير هائل مُدوّي ومُدمّر في فكر الغرب الحديث: حكموا العالم برؤاهم وفلسفتهم، (وهم في قبورهم جاثمون). وهم الذين بذروا بذور الإلحاد في المجتمع الغربي الحديث.

والحقيقة أنّ هناك شخوصًا معينة ساهمت في تغيير شكل العالم الغربي، وصقلت فكر الفلسفة الأوروبية الحديثة؛ والباحث الذي يسبر أغوار الفكر الأوربي الحديث ويغوص في بواطن وأعماق الكتب الفلسفية ويتتبع جذورها بالبحث الدقيق والتقصي العميق، المقارن بتفكير الغرب الحديث وبواقعه العملي، يفضي لأربعة شخوص محورية مركزية أساس ولثلاث شخوص توابع لها مهمة أخرى: تحكم الغرب والعالم (وإن كانوا ميّتين يرزحون في قبورهم منذ زمن بعيد) تركوا بصمات لا تُمحى في التفكير الأوروبي الحديث، وفي النسيج الفلسفي الثقافي الغربي.

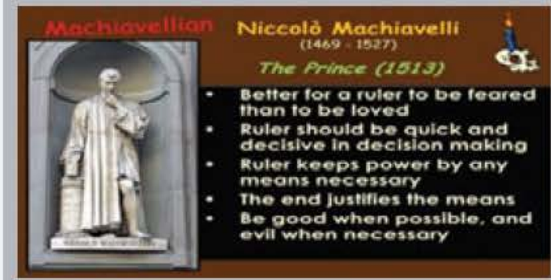
هؤلاء الفلاسفة الذين صاغوا فلسفة الغرب هم:

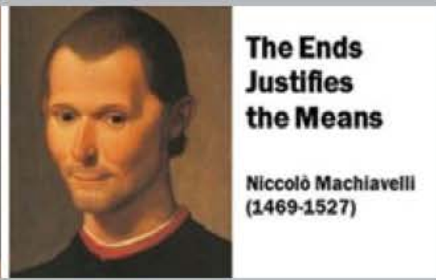
1. الكبار الأربعة:

نيكولو مَكيافيلي (مُنظّر الغاية تبرر الوسيلة لبقاء الحاكم في السلطة).

توماس مالثوس (مُنظّر أزمة مالثوس وقلة الرزق، مُنظر القتل الجماعي الاستعماري، ومُنظر حركة تنظيم النسل)

شارلس دارون (منظر أصل الأنواع، وأنّ أصل الإنسان من خلية أحادية، بالتطور وبلا حاجة لله، وضمّ تحت جناحه ابن عمه كالتون: مُنظر علم تحسين النسل).

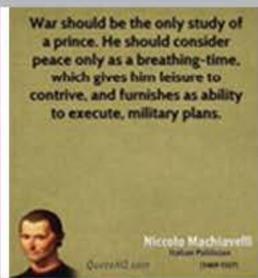


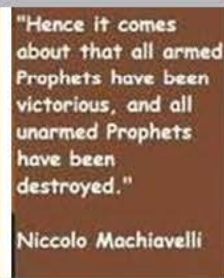


الغايات تبرر الوسائل (نيكولو مكيافيلي 1469-1527م). مبادئ الأمير (1513م): (الأفضل للحاكم أن يُهاب، لا أن يُحبّ). (الحاكم يجب أن يكون سريعًا وحاسمًا في اتخاذ القرار). (على الحاكم البقاء في السلطة بأي وسيلة ضرورية). (الغاية تبرر الوسيلة – الوسائل). (كن خيّرًا إذا أمكن، وشريرًا عند الضرورة).





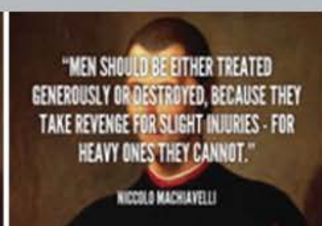




أقوال مكيافيلي في "الأمير": أقصى اليمين: (ومن هنا يتضح أن كل الأنبياء المسلحين قد انتصروا، وكل الأنبياء غير المسلحين قد دُمّروا). الثانية من اليمين: (الحرب يجب أن تكون الاهتمام الوحيد للأمير. وعليه اعتبار السلام فقط بوصفه متنفسًا لمنحه فرصة تجميع قواه لتنفيذ الخطط العسكرية). الثالثة من اليمين: (إذا أراد الحاكم أن يبقى على قيد الحياة، فعليه أن يتعلم ألا يكون خيّرًا). اليسار: (الأفضل أن تفعل وتتوب، على ألا تفعل وتندم)







أقوال مكيافيلي في "الأمير": الصورة الأولى: (يجب أن يُعامل الرجال بسخاء أو أن يُدمروا، لأن ذوي الإصابات الطفيفة سينتقمون، بينما ذوو الإصابات الثقيلة لا يستطيعون). الصورة الثانية: (يجب ألا يفتقر الأمير سببًا مشروعًا لإخلاف وعده).

الصورة الثالثة: (لمعرفة طبائع الناس، يجب أن يكون المرء أميرًا، ولمعرفة طبيعة الأمير، يجب أن يكون المرء من الناس).

كارل ماركس (منظر المادية الجدلية).

2. **التابعون الثلاثة:**

هربرت سبنسر (منظر الداروينية الاجتماعية أو ما يُسمى العنصرية العلمية).

فريدريك نيتشه (منظر موت الإله وولادة الإنسان السوبرمان).

سيجمند فرويد (منظر الثورة الجنسية في العالم، الذي عدّ التدين مرضًا عصبيًّا).

هؤلاء هم الفلاسفة السبعة التي تضافرت نظرياتهم جميعًا، لتصوغ محصلة الفلسفة الغربية الحديثة الملحدة.

1. نيكولو مكيافيلي (1469 - 1527 م) Niccolo Machiavelli:

ولد في فلورنسا (إيطاليا)، وتعلم فيها. شغل مكيافيلي وظائف بسيطة في حكومة مدينة فلورنسا، وحين اجتاحت الجيوش الفرنسية مدينة فلورنسا، وأطاحت بحكم -عائلة مديشي- سارع مكيافيلي لتأييد النظام الجديد، وتنقل في وظائف حكومية تحت ظل هذا النظام، حتى وصل إلى منصب "السكرتير الأول والمستشار الثاني" لجمهورية فلورنسا عام 1498م. وأوفد في عدة بعثات مهمة نيابة عن الحكومة إلى المدن الإيطالية والدول الأجنبية، واستطاع ميكافيلي خلال هذه المدة الاطلاع على خبايا الحياة السياسية وأسرارها عن كثب. في عام 1512م عادت عائلة مديشي للحكم بمساعدة من البابا، وتم القبض على ميكافيلي وتنحيته عن منصبه بعد 14 عامًا من خدمته السياسية لجمهورية فلورنس. وتم نفيه إلى مزرعته الواقعة على أطراف فلورنسا؛ هناك كتب مكيافيلي (الأمير) عام 1513م كـ كُتيب مختصر لتعليم القادة فن السياسة والقيادة. وقد أهداه إلى لوريتزو دي مديتشي (Lorenzo de Medici)، وقد تضمن الكتاب أفكار ميكافيلي وتجاربه السياسية مع مجموعة نصائح لـ الحاكم، وكان يرجو أن ينال رضا الحاكم، لكنه فشل في ذلك، وظل في منفاه، حتى توفي فيه عام 1527م كئيبًا وحيدًا بلا وظيفة (فلم ينفعه كتابه بشيء).

ومبدأ مكيافيلي الأول هو "الغاية تبرر الوسيلة"، فهو يرى أن القائد له شرعيته التي تبرر إضفاء مشروعية جميع الوسائل التي يستخدمها للوصول لهدفه، مهما كانت قاسية أو دراكونية Draconian. أي شديدة القسوة مشتقة من "دراكو" Draco كاتب القانون اليوناني في أثينا، والذي أنزل أقسى العقوبات على أصغر الجرائم). وإنما يتبع أي وسيلة ملائمة لتحقيق هذا الهدف، وبلا اعتبار للدين والخلق لتحقيق الهدف.. فالغاية ... تبرر الوسيلة .. وكان هذا المبدأ هو ما استند عليه في أغلب نصائحه في كتاب الأمير، والمسمى بالميكافيلية.

كتاب "الأمير" يتمحور على تقديس القوة؛ وهو دراسة عملية وتنبؤية بلا قيود الخلق والدين؛ لتأهيل الأمير ليكون هو الإنسان وهو الوحش في آن واحد: بقوة الأسد وبدهاء الثعلب. هذا الأمير هو رئيس الجمهورية.. أو الملك.. أو الزعيم.. أو القائد. من القرن السادس عشر وحتى قرننا الحالي: الواحد والعشرين. بل إنّ مبادئ "المكيافيلية" صارت أسس في فنون الإدارة وقيادة المؤسسات المدنية الأخرى كالشركات والهوتيلات والمطاعم والمستشفيات.

لم يتم نشر كتاب "الأمير" إلا بعد وفاة ميكافيلي بخمس سنين، وأول من هاجم مكيافيلي هو "الكاردينال بولص"، مما أدى لتحريم الاطلاع على كتاب "الأمير" ونشر أفكاره، وعدّت روما كتابه عام 1559م من الكتب الممنوعة وأحرقت جميع نسخه. لكن بحلول عصر النهضة الأوروبية، ظهر من يدافع عن مكيافيلي، ويترجم كتابه. وفي القرن الثامن عشر مدحه "جان جاك روسو" و"فيخته"، وشهد له "هيجل" بالعبقرية، حتى اعتبر مكيافيلي أحد الأركان التي قام عليها عصر التنوير في أوروبا. وقد اختار "بنيتو موسيليني" (حاكم إيطاليا الفاشي) كتاب "الأمير" كموضوع لأطروحته التي قدمها للدكتوراه ، كما قيل: إن "هتلر" كان يقرأ الكتاب قبل أن ينام كل ليلة، ناهيك عمن سبقهم من الملوك والأباطرة كـ"فريدريك" و"بسمارك" وكل من ينشد السلطة.

برغم مرور أكثر من 500 سنة على الكتاب، يبقى كتاب "الأمير" إلى اليوم من أهم المراجع التي تُدرّس السياسة في جامعات العالم، ويقرأه رؤساء الغرب وقادته، لتفعيل فلسفته في حياتهم السياسية. ويستمد الأمير "قوته" من شغف مكيافيلي بالتاريخ لاستقصاء الأحداث، ومعرفة نتائجها، وإمكانية تكرارها – أي محاولة التنبؤ بالمستقبل.

يقول ميكافيلي في كتابه: (أن من الواجب أن يخافك الناس وأن يحبوك ولكن لما كان من العسير الجمع بين الأمرين، فإن من الأفضل أن يخافوك على أن يحبوك، هذا إذا توجب عليك الاختيار بينهما... وقد قال عن الناس بصورة عامة: أنهم ناكرون للجميل، متقلبون، مراؤون ميالون إلى تجنب الأخطار شديدو الطمع، وهم إلى جانبك طالما أنك تفيدهم).

برغم صواب بعض الآراء المكيافيلية، لكن يُنتقد « مكيافيلي » بشدّة على أنه نظّر سياسته بوصف غالبية السلوك الإنساني على المقياس الذي يبرر به وحشية مبادئه، مُهملاً بذلك جوانب العدل والحق والخير، ومتناسيًا سلوك ذوي المشاعر والآلام والشكاوي، وأن تُراعى حقوق الناس المحكومين ومشاعرهم الإنسانية. إن استهانة مكيافيلي بفضائل الأخلاق، والتمسك برذائلها، في سبيل الوصول للحكم والبقاء على كرسيه بالنار والحديد هو الغاية الكبرى عنده. وهو السبب في استشراء وسائل الغش، والفساد، والخديعة، واللصوصية، وأكل أموال الناس بالباطل، وهي الوسائل المفضلة للوصول إلى الثراء

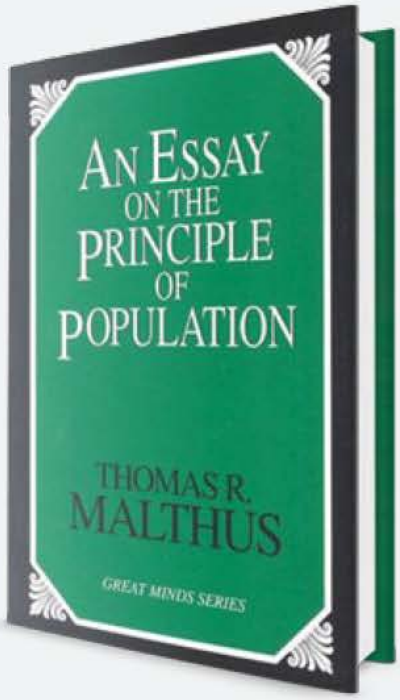
الفاحش، والاستمتاع بلذّات الحياة، وتدعيم الرأسمالية المفرطة. وحينما يروّج المجرمون آراء "مكيافيلي" بأنّ « الغاية تبرر الوسيلة» بإطلاقها على عواهنها، دون قيود وشروط المنطق السليم، والحق الثابت، والفضيلة والخلق، فإنهم يتصرفون تصرّف الشياطين، يخادعون الناس ليفعلوا كل جريمة، دون أن يسمّيهم الناس مجرمين. لقد ستروا أنفسهم بطلاء "نظرية ميكافيلي". فلا يرون مانعًا من تجويع الألوف من البشر، وسرقة خيراتهم، ليستمتع مجرم واحد أو طغمة من المجرمين بمظاهر الترف والرفاهية، فالغاية تبرر الوسيلة. فلا مانع إذن أن يحرق "نيرون" إمبراطور روما المدينة بكاملها ليستمتع بمشاهدة لهيب النيران، ثم يدين بها النصارى الأبرياء، ويعاقبهم بهذه الجريمة النكراء. ولا تحرّج من مصارعة المجالدين Gladiators في حلبة المصارعة في روما حتى الموت أو أن يُلقى بوحش ضاري جائع، ليقتل إنسانًا بريئًا فقط، ليستمتع بمشاهدة الغالب ومصرع المغلوب. باختصار، فإن المبادئ المكيافيلية هي التي وطّدت في الفكر الأوروبي الحديث بأنّ الحياة هي "قانون الغاب" أو Jungle Law يأكل فيه القويُّ الضعيفَ، وأنّ "القوة هي الحق" Might is Right (حقّ القوة لا قوة الحقّ)!

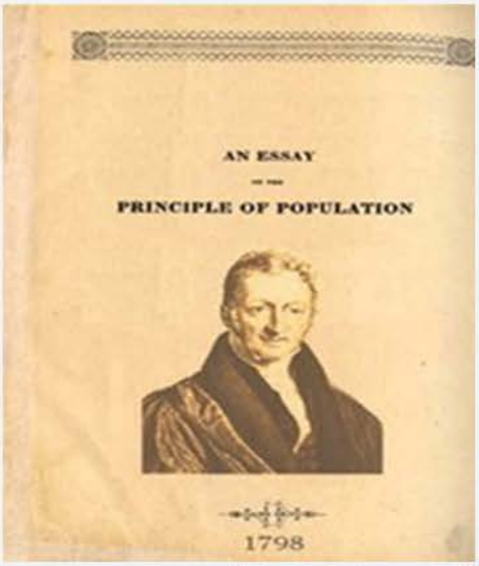
2. توماس مالثوس (1766 - 1834) Thomas Malthus
3. هربرت سبنسر (1820 - 1903) Herbert Spencer
4. شارلس داروين (1809 - 1882) Charles Darwin؛

كتب عالم الاقتصاد البريطانيّ توماس مالثوس «مقالة في مبدأ التكاثر السكانيّ» عام 1798: «إنّ قدرة التكاثر السكانيّ أكبر كثيراً من قدرة الأرض لإنتاج رزق الإنسان» (The power of population is indefinitely greater than the power in the earth to produce subsistence for man)؛

لذا فالتكاثر السكانيّ إذا ما استمر دون توقف، يزداد بمتوالية هندسيّة، في حين أن الرزق يزداد بمتوالية حسابيّة.

ومعرفة بسيطة بالأرقام توضح ضخامة القوة الأولى إذا ما قورنت بالثانية». يرى مالثوس (وهو أصلاً رجل دين أنجليكاني) أن مجتمعات المُساواة الحُرّة عُرضةٌ للانفجار السكاني، يصفها مالثوس بتعبير دراميّ مثير: «تكتسح الأوبئة الجائحة والأمراض المُميتة والطاعون على نحو مروّع لتهلك الآلاف وعشرات الآلاف منهم. فإذا لم تنجح هذه تمامًا، فإنّ موجات المجاعة (والحروب) تأتي متأخرة، وبضربة قاضية واحدة، تقوّض منسوب التعداد السكانيّ وتعدّله ليتساوى مع منسوب الغذاء في العالم». وعدّ أن تكاثر السكان ينضبط متناسبًا مع حدود الموارد المتوافرة بنوعين من الضوابط: الضوابط الإيجابية، التي ترفع نسبة الوفيات (كالمجاعة والأمراض والحروب)، وضوابط سلبية، تخفّض نسبة الولادات، كالإجهاض، وتحديد النسل، والبغاء، وتأجيل الزواج، والعزوبية (الامتناع عن التناسل). يزعم مالثوس أنّ التكاثر السكاني يفوق اعتياديًا موارد الغذاء، مما يؤدّي من ثم إلى موت الأضعف جوعًا، وهو ما يسمّى بفاجعة أو أزمة مالثوس Malthusian Crisis. ولا يزال المؤرخون الأوروبيون يُعلّلون الاستعمار الإسباني والأوروبي للأمريكتين وقتل قرابة 3 مليون من سكانها الأصليين (الهنود الحمر) على أنه جاء نتيجةً طبيعية لأزمة مالثوس!!!





كتاب "مقالة في مبدأ التكاثر السكاني" لـ توماس مالثوس عام 1798م.

وفي الوقت الذي عدّ الآخرون زيادة الإخصاب ذا فائدة اقتصادية (لازدياد عدد العمال المتاحين للعمل)، وقف مالثوس مناقضه، لأنه اعتقد أن الإخصاب بالرغم من رفعه للإنتاج الإجمالي، إلا أنه يخفض الإنتاج للرأس الواحد من العمّال. وكان لـ مالثوس أكبر الأثر فيما يُسمى حديثًا في أوروبا عمومًا وفي بريطانيا خصوصًا بـ تنظيم الأسرة المتمثلة بالعمليات الجراحية اليومية: قطع الحبال المنوية الذكرية Bilateral Vasectomy وربط قنوات فالوبي النسائية Fallopian Tubal Ligation.

مساوئ نظرية مالثوس: تنبأ مالثوس بأزمة سكانية تتفجر في أواسط القرن الـ 19، ولكن لم يحدث شيء! ثم تنبأ أنصار مالثوس الجدد في كتابهم (قيود النمو) لعام 1972 بأزمة مستقبلية أخرى، كذلك كانت نبوءة خاطئة.

كذلك فإنّ محاولات الحدّ من النمو البشري عن طريق تنظيم الأسرة هي محاولات تداخلية جراحية، وأحيانًا قسرية وحشية (مثل عمليات العقم على نطاق واسع، أو سياسة الطفل الواحد المتبعة في الصين) وغالباً ما يرفضها الناس بالفطرة. وحديثًا صارت ظاهرة «تأنيث الطبيعة» Feminization of Nature (بسبب التلوّث الكيميائي الواسع للكون) مثل الوباء الجائح، متسببة انتشار العقم كمرض الطاعون (انظر كتاب ديبورا كادبوري: تأنيث الطبيعة. طبعة حامش هاملتون (بنجوين) لندن 1997). ثم إن مجلة "إيكونومست" (إصدار تشرين الأول/أكتوبر - تشرين الثاني/نوفمبر 2009، ص35-38) نشرت مقالاً عن "انخفاض الخصوبة وكيف أنّ مشكلة السكان تحلّ نفسها بنفسها"، وأنها ستهبط أعداد العالم المتوقعة 9.2 مليار نسمة عام 2050 إلى 8،5 مليار نسمة.

إنّ استعمار الأوروبيين للعالمَ الجديد (والمدفوعين برؤية مالثوس)، تسبب بجشع لا يُشبع في حبهم موارد الغذاء، وطمعهم بالمال بلا حدود، وشغفهم بجبروت القوة، والتسلط على الآخرين (وكأنه حق الولادة لأفراد الجنس الأبيض المتفوق Birth right). وأدى استعمار العالم الجديد أولاً إلى إبادة سكان أمريكا الأصليين مما تسبّبَ بدوره بنقص حادٍّ في عدد الرجال العاملين، مع ازدياد الحاجة الماسة إلى استيراد الأفارقة العبيد (الذين شرّدوهم من ديارهم) لأجل حلّ مشكلات المُستعمرات الزراعية لتزريع الغلاّت المختلفة: القطن، القهوة، التبغ، قصب السُّكر، سِيزال (ليف أبيض متين تتخذ منه الحبال)، أنواع البذور الزيتية، أشجار المطاط.

لقد كانت الحاجة ماسّة إلى ملايين العبيد من أجل تحقيق أحلام المستعمرين التصنيعية، فمثلاً إنشاء "قناة بانما" لوحدها أدّى لوفيات هائلة وموت 28000 عامل (بسبب الحمى الصفراء والملاريا، والانجرافات الطينية).

في الواقع، إنّ المشكلة لا تكمن في ازدياد النمو السكاني (كما يعتقد أنصار مالثوس)، ولكنها تكمن في سوء التوزيع الجائر بين السكان. والأهم من ذلك فإنّ التخطيط الجيد يؤدي اعتياديًا إلى وفرة إنتاج الغذاء؛ لذا، فإنّ أساس المشكلة يكمن في وفرة الإنتاج وسوء التوزيع. إنّ حصة الفرد الواحد من الغذاء، وجبات الطعام البشرية قد صارت اليوم أكبر من ذي قبل؛ حتى صارت السُّمنة المفرطة اليوم داءً مستشريًا كالوباء الجائح في العالم.

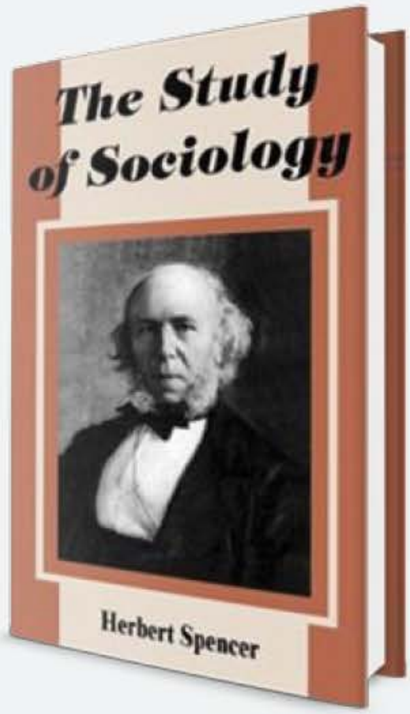
وحقيقةً، فإنّ وسائل الإعلام قلقة بشأن جبال الزبد والجبن المخزّن، الذي ماعَ وتلاشى أو صارَ نفايات (ترمى في البحر) كلّ ذلك من أجل تثبيت ورفع أسعار السلع، بحسب قوى السوق في العرض والطلب. كذلك، فإنّ هناك جبال الحبوب (من القمح والشعير والشوفان)، وبحيرات من الحليب والعسل (هذا عدا بحيرات الخمر)؛ ولم يوزّع شيءٌ من هذا الفائض الغذائي الهائل بالتساوي داخليًا، ولا هو أُرسِلَ إلى الأقطار الفقيرة لتخفيف معاناتها.

بالرغم من مساوئ نظرية مالثوس العديدة، لكن مالثوس أثّر في السياسيين وصنّاع القرار في العالم الجديد لافتعال حروب كوسيلة لتخفيض سكان الأعراق الرديئة لمصلحة العرق الأوروبي الأبيض المتفوق (مُعزّزًا بذلك نظرة مركزية أوروبا للعالم Eurocentric vision). والحقيقة أنّ نظرية مالثوس أثرت في سياسة شركة الهند الشرقية البريطانية (كان جيمس ميل، الحاكم العام للشركة الذي شغل منصبه

1828–1835 صديقًا حميمًا ومُعجبًا كبيرًا بـ مالثوس). ثم إنّ رئيس الوزراء البريطاني وليم بت الصغير (الذي شغل منصبه 1783–1801 وأيضًا 1804–1806) كان أحد المُميّزين المتأثرين بـ مالثوس، فبعد قراءته لكتابات مالثوس، سحب فجأةً قراره الذي قدّمه لتمديد إعانة الفقراء (كونهم البشر الأضعف والدون)!!!

والأهم من ذلك كله أنّ نظرية مالثوس صارت بمنزلة قانون الاقتصاد الاجتماعيّ، وهي التي أثرت في استحداث فكرة البقاء للأصلح، المصطلح المرتبط بعالم علوم الإنسان (الأنثروبولوجي) هربرت سبنسر (1820–1903)، ومرتبط بنظرية «إنجيل الثروة» لكاتبه أندرو كارنيجي (كانت لجنة كارنيجي هذا معنية بمشكلة الرجل الأبيض المسكين (!) في جنوب إفريقيا، ومن ثم لعبت دورًا رئيسيًّا في إقامة سياسة الفصل العنصري في جنوب إفريقيا).

ثم كان مصطلح سبنسر: البقاء للأصلح (survival of the Fittest) هو الذي ألهَمَ شارلس داروِن وألفريد راسيل والاس في استحداث نظريتهما حول «الانتقاء الطبيعي» (لنظرية التطور). ففي 1857 حرّر سبنسر عمله الكبير: «التقدّم: قانونه وسببه»(Progress: Its Law and Cause) بسنتين قبيل نشر داروِن كتابهُ: عن (أصل الأنواع) المطبوع عام 1860. كان سبنسر مُلحدًا وشن حربًا على الدين ورجال الكنيسة الذين وصفهم بـ (فُسّاق المتّقين) ونصح علانيةً بالإلحاد والمادية. كان سبنسر وداروِن متعاصرين، بل كانا صديقين حميمين. فلقد قام سبنسر (المُعاصر لداروِن) بدوره باستخدام نظرية التطور البيولوجي لداروِن أخيرًا في 1870، مُستحدثًا نظرية «تطور الطبقات الاجتماعية» وإضفاء الصبغة العلمية عليها بمزجها بنظرية التطور لداروِن، وتقديم مفهوم جديد (خاطئ) هو: «الداروِنية الاجتماعية -Social Darwinism»، ومن ثم صار يُسمى «العنصرية العلمية -Scientific Racism»، وأهم ما فيها أن أصحاب الأعمال الكبيرة لهم الحق بابتلاع ذوي الأعمال الصغيرة، والتبرير لأعمال المتنفذين السُّراق الكبار في أثناء الثورة الصناعية. ودعمت هذه النظرية موجات التمدد الاستعماري (أو الاستخرابي)، والعنصرية، والقومية، والتسلح في العالم. مات سبنسر وحيدًا فريدًا بسبب عنصريته العمياء.



قرأ جميعُ مُنظري الداروِنية «مقالة في مبدأ التكاثر السكانيّ» لمالثوس. فقد قرأ كلٌّ من "شارلس داروِن Charles Darwin" (1809 – 1882م)، و"ألفريد راسل والاس (1823–1913م)" لـ مالثوس واعترفا بالدور الذي لعبه مالثوس في تكوين أفكارهما. قرأ داروِن مقالة مالثوس في مبدأ التكاثر السكاني عام 1838، أي بعد أربع سنوات من وفاة مالثوس، وأشار أنّ مالثوس هو الفيلسوف العظيم: «مبدأ مالثوس هذا ينطبق بقوة مُضاعفة على ممالك الحيوان والنبات، لأنه في هذه الحالة لا يوجد ازدياد صناعي لموارد الغذاء، وليس هناك انضباط عاقل للزواج»، كما قال 'والاس': «.. ربما كان أهمّ كتاب قرأته هو كتاب مالثوس حول مبدأ التكاثر السكاني».

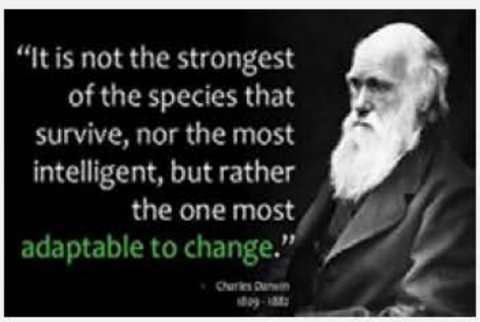
وهذا ما دفع 'توماس كارلايل' أن يعدّ مقالة الاقتصاد السياسي وخصوصًا مقالة مالثوس علمًا موحشًا وقابضًا للصدر: (Political economy is a dismal science).

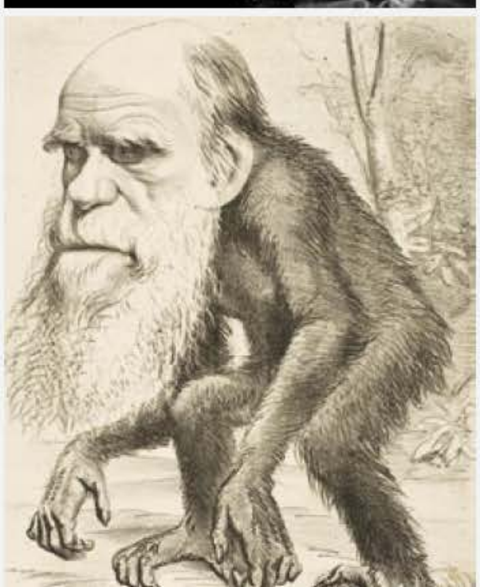
صوّر داروِن جميع الكائنات الحية، نباتات وحيوانات، بارتباطها بشجرة ذات فروع وأغصان. يمثل جذع الشجرة فيها أشكال الحياة البسيطة (البكتريا)، التي تطوّر منها كل شيء. وعدّ داروِن أن البشر لا يُستثنون من هذه العملية التطورية – كانوا أيضًا إحدى الغصون على إحدى الفروع في تاريخ تطور الحياة.

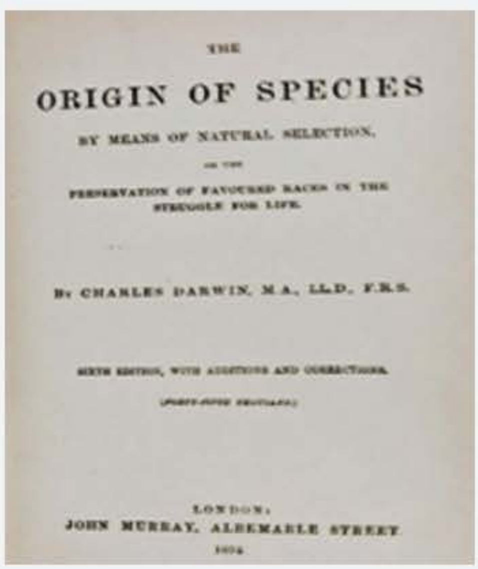
(يتبع)



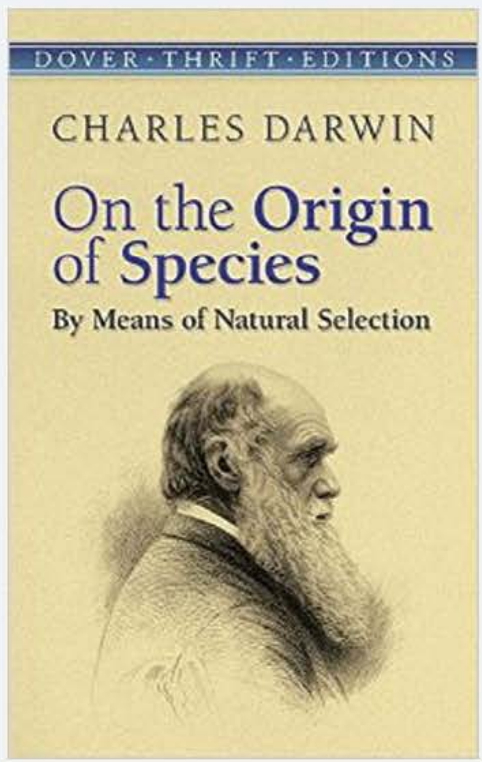
نظرية داروِن في التطور Darwin's theory of evolution







في 1870 صُوِّر داروِن في كاريكتور بريطاني برأسه على جسم قرد، لتأكيد أهمية مساهمته في التطور الذي صار يُعرف بالداروِنية. مع مقولة داروِن الشهيرة: (ليس البقاء للأقوى، ولا للأذكى، بل هو للذي له قابلية التكيّف مع التغيير).



قصة قصيرة

Good bay أيها النيل العظيم

بقلم: محمد الكامل بن زيد

بسكرة - الجزائر



هو ذا نهر النّيل العظيم يعلّنها بعنهجية لم يعتدها من قبل.. إذ لم يتخيّل أن تهتّز أمواجه عن آهات شديدة اللوعة، تخبره صراحة أن لا مكان له في هذا الوجود ..وأنّه من العبث المضي قدمًا بين أغوار أحلام واهيّة، ظلّت تلازم أفكاره بين ماضيه الموغّل في الألم، وبين القادم من عتمة المجهول .. كم كان يأمل أن تأتي مثل هاته اللحظة بردًا وسلامًا عليه، بقدر ما جادت به أنفاسه الحالمة .. شعر بوخزات قاسية تتسلل خفية عبر ثيّابه الممزّقة، لتنغرس بحدة في جسده المرهق .. لم يتفاجأ بالعبارات الأخيرة لهذا النّهر في هذا المساء .. فقد كان ينتظر بشغف كبير آخر الكلمات، ليقنع نفسه إيمانًا أن الحيّاة .. هي الموت ..

لم يصدق كيف مضت السنّوات خلف الجدار الحديدي المسيّج لضفاف هذا النّهر .. ظّن في البدء أنه إطار خارجي للوحة زيتيّة، سيغيّره بنرجسيّته الحالمة إلى صورة بديعة، تحلق به خلف الأنواء .. هناك حيث الأفق الساحر، .. فأنامله لا ترضى، ولن ترضى إلا بالأشيّاء الجّميلة، مثلما رددها عليه - وعلى مسامع زملائه من التّلاميذ - معلم المدرسة ذات مرة "أناملك ستجعل منك أسطورة" .. ابتسم ابتسامة بلهاء كما يبتسم الآن .. قصة الأسطورة تأخرت قليلاً .. فهو إلى حد الساعة بينه وبين النّيل العظيم عمود كهربائي احتمى بساريته هروبًا من برد شديد لم يسبق لقاهرة المعز أن عرفت مثله .. قدماه النحيلتان فشلتا في المقاومة .. الأنوار تتحدّى عينيه المضمحلتين .. فبين اللّحظة والأخرى تمزقت من بين أشعتها صورٌ باهتة لطفل صغير يقف أمام "برج إيفل" يلّوح له من بعيد .. يبتسم ابتسامة بلهاء أيضًا ثم ينخرط في هستيرية البكاء الحار .. صور أخرى لطفل نفسه وهو يحاول التملص من أيادي رجال الشرطة الفرنسيين ومعهم زوجته السابقة .. يصرخ بكل ما أوتي من قوة الفراق "إنه أبي .. هذا أبي" ..تتراكض تلك الصور حتى لا يكاد يميّزها .. انتهى كل شيء ..لا يتمالك نفسه فينكفئ صامتًا.. ليخّر على الأرض مغشيًا عليه .. يحاول مجددًا أن يمسك بالعمود الكهربائي .. فتعاوده الإغفاءة تُلو الإغفاءة .. لم يعد بإمكانه أن يشعر بأمواج نهر النّيل العظيم، وهي تتكالب عليه برغم براثن البرد القارس .. ذاك الذي لم يسبق لقاهرة المعز أن شهدت مثله من قبل.

التراث المادي والتراث المعنوي



د. علي عفيفي علي غازي

أكاديمي وصحفي

يعتقد الكثيرون أن مدلول كلمة "التراث" يقتصر على الخرائب الأثرية وبقايا كسر الفخار واللقى الأثرية، بالرغم من شمول التراث الكثير من الأشياء البسيطة الغالية على القلب في الوقت ذاته، كالتحف التذكارية، والحُلي، والصور الفوتوغرافية، والمجوهرات، والقطع الأثرية، والتحف الفنية، فكل ذلك يندرج ضمن قائمة التراث[1].

يُعرف التراث بمفهومه البسيط على أنه خلاصة ما تُخلفه الأجيال السالفة للأجيال اللاحقة، أو ما يُخلفه الأجداد كي ينهل منه الأحفاد، ويُضيف إليه جيل بعد جيل من خبرات حياتهم، على أي شكل كان من خلال العمارة أو الكتابة أو النقش أو الحاجات أو المصنوعات، أو هو بمعنى آخر "نتاج شعب أو جماعة تعيش في مكان معين، وتعتقد وتمارس وتصنع أمورًا خاصة في زمن خاص". فالتراث إذن معين ثري لا ينضب من المعرفة، ومصدر الهوية، والتراث في الحضارة بمثابة الجذور في الشجرة، وكلما غاصت وتفرعت الجذور كانت الشجرة أقوى وأثبت وأقدر على مواجهة تقلبات الزمن، ومن الناحية العلمية هو علم ثقافي قائم بذاته يختص بأحد قطاعات الثقافة، ويُلقي الضوء عليها من زوايا أثرية وتاريخية وجغرافية واجتماعية ونفسية، ويعني بكل ما بقي على الأرض من دلالات حضارية وأطلال أثرية ترجع إلى العصور الماضية، أما التراث الحضاري فهو "نتاج الحضارات من حقبة ما قبل التاريخ مرورًا بالحضارات المختلفة في مختلف المناطق، وصولاً إلى ما يُسمى اليوم بحقبة التراث الشعبي"[2].

تعني كلمة التراث في اللغة العربية "الإرث" ومن ثم تشمل الحسب والنسب فضلاً عن الميراث المادي بأنواعه المختلفة[3]، وفي دعاء زكريا، عليه السلام، ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾، أي النبوة، وليس المال، وكذلك ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾، أي نبوته وملكه، أما في اللغة الإنجليزية فيُطلق على التراث كلمة Heritage، أي ما يتوارثه الإنسان، ويُحافظ عليه وينقله لمن بعده، وفي اللغة الفرنسية تُعبر كلمة Patrimoine عن التراث، وهي كلمة من أصل لاتيني مكون من شقين، الأول بمعنى الأب، والثاني بمعنى التعليم والإرشاد والنصح، ومن ثم فإن معناها يعكس أهمية الأشياء التي تُذكرنا بالآباء والأجداد، أي تلك التي تربطنا بالأسلاف والتاريخ.

يتمثل الشق المادي للتراث فيما يُخلفه الأجداد من آثار ظلت باقية من منشآت دينية وجنائزية كالمعابد والمقابر والمساجد والجوامع، ومبان حربية ومدنية مثل الحصون والقصور، والقلاع والحمامات، والسدود والأبراج، والأسوار، والتي تُعرف في لغة الأثريين بالآثار الثابتة، إلى جانب الأدوات التي استخدمها الأسلاف في حياتهم اليومية، والتي يُطلق عليها الأثريون الآثار المنقولة[4]، ويُعد كذلك التراث الطبيعي جزءًا مهمًا من التراث الحضاري، ويقصد به التشكيلات الجيولوجية والمواقع الطبيعية، ومناطق الجمال الطبيعي التي تتألف كمواطن للأجناس البشرية والحيوانية والنباتية، وعلى هذا فإن سواحل البحار، والكثبان الرملية، والسلاسل الجبلية، والأخوار، بل وحتى الأغنام، والنمور البرية، والفهود السوداء، كلها تشكل جزءًا من التراث، الذي يجب الحفاظ عليه، بوصفه تراثًا للإنسانية مُعرضًا للانقراض.

يُعرف الشق المعنوي للتراث باسم "التراث الشعبي"، ويتكون من عادات الناس وتقاليدهم، وما يُعبرون عنه من آراء وأفكار ومشاعر يتناقلونها جيلاً عن جيل،

وهو استمرار للفلكلور الشعبي كالحكايات الشعبية، والأشعار والقصائد المتغنى بها، وقصص الجن الشعبية، والقصص البطولية، والأساطير، ويشتمل على الفنون والحرف، وأنواع الرقص واللعب، والأغاني، والحكايات الشعرية للأطفال، والأمثال السائرة، والألغاز، والمفاهيم الخرافية، والاحتفالات والأعياد الدينية. وهذا الشق من التراث لا يقل أهمية عن التراث الثقافي والطبيعي، فهو يُخلد ذاكرة الوطن وهويته، لأنه يرتبط بالمأثورات الشعبية والمعارف، والممارسات المتعلقة بالطبيعة والكون، وكذلك المهارات المرتبطة بالفنون والحرف التقليدية وفنون الأداء. حيث يتجلى واضحًا ضرورة تثمين القيم المعنوية التي تحملها العلوم المختلفة النافعة، وعدها جزءًا من التراث[5]. وبهذا فإن مصطلح "التراث الثقافي" ليس قاصرًا على المعالم التاريخية الأثرية والتحف الفنية، بل يشمل التقاليد الشفهية، والممارسات الاجتماعية، والمعارف والمهارات الحرفية التقليدية، وكذلك الأكلات الشعبية، والوصفات التي تعود لعصور قديمة، فالتراث غير المادي، شأن الثقافة، يتغير ويتطور ويزداد ثراءً جيلاً بعد جيل، ولكن في ظل الحداثة والعولمة باتت كثير من أشكال التعبير ومظاهر التراث الثقافي غير المادي مهددة بالاندثار، وأصبحنا بحاجة لاتخاذ تدابير من أجل أن يظل هذا التراث جزءًا لا يتجزأ من الثقافة الشعبية والهوية الوطنية، فنحن بحاجة لمحاولات جادة لإحياء وتطويع التراث ليُصبح في متناول الجيل الجديد، ويغدو منبعًا ثريًا يُسهم في تحقيق الثقافة والقومية العربية والهوية الإسلامية.

يُمكن تقسيم المأثورات الشعبية إلى أربعة فروع رئيسة كبيرة، تتفاعل وتتكامل معًا، هي: الأدب الشفاهي، كالحواديت والأغاني والسير والأمثال والأساطير والخرافات. والثقافة المادية، كالفنون والحرف والعمارة والأزياء وأساليب التزيين، وطرق الطهي. والعادات والمعتقدات، كالأعياد والاحتفالات والألعاب، وأساليب التداوي، والمعتقدات الدينية والشعبية والنظرة إلى الكائنات والكون وتفسير نشأته ومصيره. وفنون الأداء، كالموسيقى والرقص والدراما[6].

يحمل التراث أهمية كبرى لدوره الفعال في تغذية العقل الجمعي ومده بالقيم، إلى جانب إسهامه في تشكيل الوعي العام، ولهذا كان الحفاظ عليه ونشره ونقله عبر الأجيال والحرص على ضمان استمراريته مسؤولية الجميع بلا استثناء، فكلنا راع وكلنا مسؤول عن صيانة تراثنا الذي يُمثل خيطًا شعوريًا يضمن تواصل الأجيال، كما يحدد ملامح هويتنا. فبعد التطور الذي شهدته دول الوطن العربي، ومن بينها الإمارات، أصبح من الضروري أن نقف على ملامح حضارتنا، ومدى ارتباطها بأصولنا التراثية، وأن نثبت عدم مصداقية الحركات الجانحة نحو الاستغراب سواء بتأثير العولمة أو غيرها من الظواهر التي أسفرت عن تعثر واضح وميلاد هجين لا جذور له ولا خصوصية. ولكن تمسك وارتباط الناس بماضيهم وعراقتهم وجذورهم دفعهم بشكل تلقائي إلى إيجاد سُبل جديدة تتماشى مع ما نحن فيه من طفرة حضارية تتلاءم ورغباتنا العاطفية التي تنزع إلى الحنين إلى الماضي.

تكتمل هوية الإنسان بالتراث، سواء كان ماديًا أو معنويًا؛ فهو ضرورة إنسانية، وأحد ركائز الهوية التي بدونها يُصبح الإنسان كالريشة تتقاذفها الرياح، ويقول المثل الشعبي المصري: "من فات قديمه تاه"، وقديم الإنسان هو تراثه وتاريخه الذي يُمثل المرايا العاكسة، التي ينظر إليها قائد السيارة من آن لآخر في أثناء قيادته؛ كي يُحسن استخدام الطريق؛ وكي يصل إلى مقصده بسلام دون أن يُعرض نفسه لأي خطر مُحتمل أو مُفاجئ. والتراث بشقيه يكتسب يومًا بعد الآخر أهميته من كونه مصدرًا للفخر بحضارات الأجداد، ومن ثم يُعد الحفاظ على التراث والعمل على تنميته خيارًا إستراتيجيًا للدول العربية، التي تنعم بتاريخ طويل وممتد في حضارات عظيمة أوجدت لنفسها مكانة سامية، وتقف شواهدها شامخة، منذ عصور ما قبل التاريخ وصولاً إلى أحدث الإبداعات الإنسانية.



جانب من قصر المصمك في الرياض

والحفاظ عليه ضرورة لها، خاصة وهي تنظر بأمل تستشرف آفاق المستقبل، ولهذا لزامًا عليها أن تسترجع النقاط المضيئة في ماضيها؛ لتستمد منها العون للوصول لغد أفضل. ومن المؤكد أن الحفاظ على التراث، كان، ولا يزال، نواة المفهوم الجديد للتراث العالمي، الذي تضمنته اتفاقية التراث العالمي الثقافي والطبيعي لعام 1972 التي وضعت بنودها منظمة اليونسكو[7].

الهوامش:

1 – أحمد حسين الطماوي: "الذهب في تراث العرب". مجلة تراث. العدد 136. (يناير 2011). ص 48-51.

2 – ناصر حسين العبودي: صفحات من آثار وتراث دولة الإمارات العربية المتحدة. (العين: مركز زايد للتراث والتاريخ. 2002). ص 147. 148. يولد مصطلح "التراث الشعبي" لأول مرة في بريطانيا عام 1864 باسم "فلكلور". أطلقه الآثاري الإنجليزي وليم جون تومز. ومن أوائل دول الخليج التي اهتمت به البحرين والكويت. ثم يلقي اهتمامًا كبيرًا في الإمارات وخاصة الشارقة بفضل جهود القاسمي في الاهتمام بالتراث المادي والمعنوي والثقافي والحضاري. ناصر حسين العبودي: مرجع سابق. ص 183. 184.

3 – ابن منظور: لسان العرب. تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون. (القاهرة: دار المعارف. د. ت.). ص 57.

4 – محمد عبد القادر: "إحياء التراث ونشره دعم للحاضر واستشراف للمستقبل". مجلة الوثيقة. العدد 21 (يوليو 1992). ص 90. 91.

5 – محمد دباغ: "التراث الفقهي بين الثبات والتطور". مجلة آفاق الثقافة والتراث. العدد 32 (يناير 2001). ص 6.

6 – جيهان زكي: وللتراث وجه آخر. (القاهرة: صندوق التنمية الثقافية. 2012). ص 103.

الأخلاق بديل لقيم التقنية



ترجمة: عبد الحكيم برنوص

المغرب

تكاد تكون فجأتنا شديدة، عندما نسمع المفكر، الخارج لتوه من عباءة الراهب يقرر أن: المدرسة بقدر ما تُعلّم بقدر ما تُعمي وتزرع الجهل والتزييف، وأن الطب لا يلبث ينشر المرض ولا يداوي أحدًا، وأن النمو الاقتصادي المتضخم لن يسد حاجيات المجتمعات والأفواه الفاغرة، وأن سائق السيارة بالكاد يصل قبل الراجل ... هي أفكار نشرها إيفان إليتش (1926 – 2002) التي لم ينتبه إليها أحد في حينها، واليوم وأمام هذا التضخم الصناعي الهائل وما يستتبعه من كوارث وأزمات، تكون حاجتنا ماسة إلى إعادة قراءة أفكار هذا النمساوي الأصل، الذي ليس ماركسيًا ولا يساريًا، واختار أن يعيش بورمه (حقيقة ومجازًا) لعشرين سنة رافضًا كل عرض علاجي، إلى حين وفاته. (المترجم)

أعني بالمجتمع التواؤمي نقيض المجتمع القائم على الصناعة المفرطة في الإنتاجية، ففي داخل المجتمعات الصناعية تحدد قيمة الفرد، إما نسبة إلى غيره من الأفراد الآخرين، أو إلى الوسط الذي يعيش فيه، أو نسبة إلى البنية العميقة لأدوات الإنتاج التي يستعملها، وهي أدوات الإنتاج التي لا يمكن أن تحيد عن الثنائية التالية: أدوات متحكمة أو أدوات متوائمة.

إن الانتقال من نمط إنتاج الأداة المسيطرة إلى نمط إنتاج الأداة المتوائمة، هو انتقال من هاجس النقص إلى تلقائية العطاء، بدخول الفرد إلى دورة الإنتاج الصناعي، فإنه يخضع لا إراديًا لعلاقة انعكاس شرطي، وتتكون لديه استجابات نمطية إزاء ما يتلقاه من مستعملين آخرين لا يعرفهم، أو من وسط مصطنع لن يتعرف إليه أبدًا، في حين تبقى العلاقات التآزرية جديدة دائمًا، وهي نتاج الأفراد الذين يشاركون في بناء الحياة الاجتماعية.

الانتقال من نمط الإنتاجية إلى نمط المخالطة الاجتماعية، يعني استبدال قيمة أخلاقية بأخرى تقنية، أي المرور من قيمة مادية إلى أخرى متحققة، التواؤمية هي تحقيق لحرية الفرد داخل علاقات إنتاج، في مجتمع يمتلك أدوات إنتاج أساس، عندما يكبح مجتمع ما، هذه العلاقات التشاركية بين أفراده، يصبح فريسة سهلة للنقص والعوز، لأن أي تضخم في الإنتاج لن يستطيع تلبية الاحتياجات الهائلة والمتنوعة لأفراده.

ينقسم العالم اليوم إلى قسمين: الذين لا يملكون إلا القليل، في مقابل الذين يملكون كل شيء، من جهة: الذين تطردهم السيارات خارج الطريق، وفي الجهة أخرى أولئك الذين يتواجدون خلف مقود السيارة، في هذه المجتمعات، يزداد الفقراء حرمانًا، في حين يزداد الأغنياء جشعًا، إن المجتمعات التي تسير متناغمة وفق إيقاع أفرادها، لا يمكن مقارنتها بأي وجه من الأوجه مع مجتمعات الماضي الشديدة القسوة، كما تستعصي على المقارنة كذلك مع المجتمعات التي بتنا نراها في زمننا الحاضر، وها نحن اليوم ندخل عصر الإنسان - الآلة، العصر الذي أتاح للإنسان إمكانيات غير محدودة، لكنه في الوقت نفسه، قيد حريته وجعلها محصورة داخل دائرة لا يتجاوزها إلا بالقدر الذي تسمح به هذه الأدوات العصرية.

في عقول الناس المعاصرين داخل هذا النوع من المجتمعات، لا مكان للقفزة النوعية التي تتبع اقتصادًا متوازنًا وقارًّا يعيش فيه الناس بتناغم مع العالم الذي يحتضنهم، ولا وجود في تفكيرهم للاستعداد للعيش داخل مجتمع متحرر من ضغط الوقت والتدخلات التي أضحت تمارسها الآلات والأدوات في حياتهم، ففي ظل هذا الواقع أصبح الإنسان - الآلة عاجزًا على العثور على السعادة التي لا تبعد عنه إلا قيد أنملة، وفي ظل تقتير مقصود لا يستطيع الإنسان أن ينتشي بلذة الحياة، نقيض هذا، يمكن للإنسان العيش في مجتمع، يستطيع فيه كل فرد أن يعرف ماذا يعني العيش داخل مجتمع فقير ربما، لكنه سيكون حتمًا مجتمعًا غنيًا و مليئًا بالمفاجآت.

بعض الأدوات أصبح لها دور تدميري في الحياة، بغض النظر عن الأيادي التي تتحكم فيها، مثل شبكة الطرق السيارة، ووسائل الاتصال المتشابكة التي تستعمل المدى الواسع لموجات البث، أو المناجم المكشوفة أو حتى المدرسة، تكرس الأداة المدمرة (المؤسسات) التنميط والاستغلال والتبعية والعجز، وتخفي عن الفقراء حظهم من التواؤم، حتى تحرم الأغنياء من نصيبهم من هذا التواؤم هم الآخرين.

وجد الإنسان المعاصر صعوبة في فهم النمو مرادفًا لخفض استهلاك الطاقة، وليس الزيادة فيها، بالنسبة إليه فإن التقنية الحديثة، لا محيد لها عن التدخل في السيرورة المادية والروحية والاجتماعية، إذا أردنا فهم هذه الأدواتية فهمًا معقولاً، فإنه ينبغي علينا التخلص من وهم الربط بين التقدم و بين الاستهلاك المفرط للطاقات الممكنة.

في الحضارات القديمة كانت توزع مصادر الطاقة بين الأفراد بشكل عادل، حيث يتمتع كل فرد - بالنظر إلى بنيته الجسدية - بكل الطاقة التي تلزمه خلال حياته كلها، لإحداث التغيير اللازم في محيطه، ما دام أن مصدر هذه الطاقة يبقى هو الجسد، مع مراعاة الشرط الوحيد - بأن يكون في صحة جيدة.

إيفان إيليتش، التواؤمية 1973، مجلة le Point، نشر le seuiL، أكتوبر 2015، ص 77

التعليم وثقافة التنمية المستدامة في العالم العربي

وقد أدى التقدم الصناعي الذي يشهده العالم العربي إلى التوسع في استخراج الموارد الطبيعية، خاصة الموارد غير المتجددة منها، مثل الفحم والبترول والغاز الطبيعي والمعادن، وهي موارد يحتاج تكوينها انقضاء عصور جيولوجية طويلة .

ولذلك وجب علينا الانتباه لمعدلات استخدامنا لمواردنا الطبيعية واستنزافها، لما لذلك من تأثير على البيئة العربية وسكانها في الحاضر والمستقبل، ومن ثم ضرورة التوجه نحو تحقيق التنمية المستدامة لمواردنا، بما يعني التنمية التي تحقق حاجات الأجيال الحالية، وتراعي حق أجيال المستقبل في التنمية.

وقد انتشرت ثقافة التنمية المستدامة في العالم كرد فعل على المشكلات التي نتجت التنمية التقليدية، التي ركزت على تحقيق النمو الاقتصادي وزيادة معدلات الإنتاج دون اعتبار للآثار السلبية التي يخلفها هذا التنامي على الإنسان والبيئة، وأيضًا الضغوط المحلية المتزايدة لمواجهة أعباء وآثار الإصلاح الاقتصادي .

وأصبحت التنمية المستدامة قضية حياتية ومستقبلية تهم كل البشر، واهتمت بها المنظمات الدولية من خلال عقد المؤتمرات وورش العمل الدولية من أجل تحديد أهداف للتنمية المستدامة، وسبل تحقيقها، وكانت تلك الأهداف تركز على: الحياة وسبل العيش المزدهرة، والأمن الغذائي المستدام، والأمن المائي المستدام، والطاقة العالمية النظيفة، ونظم إيكولوجية صحية ومنتجة، وإدارة المجتمعات المستدامة .

ونظرًا لأهمية التنمية المستدامة للموارد الطبيعية وضرورة تحقيق أهدافها، وعائد ذلك على المجتمعات في المجالات البيئية والاقتصادية والاجتماعية، كان على التعليم العربي أن يستجيب لمتطلبات ونداءات المنظمات والمؤتمرات المعنية بالتنمية المستدامة. فقد اعتمدت الجمعية العامة للأمم المتحدة، في ديسمبر 2002، القرار 57/ 254 المتعلق بعقد الأمم المتحدة للتعليم من أجل التنمية المستدامة (2005 – 2014) وعيِّنت اليونسكو وكالة مسؤولة عن الترويج لهذا العقد. ويستند اعتماد العقد إلى مثال أعلى هو بناء عالم تتاح فيه لكل شخص فرصة الانتفاع بالتعليم، واكتساب القيم، وأنماط السلوك وأساليب العيش، وكل ما يلزم من أجل بناء مستقبل قابل للاستمرار، وتحويل المجتمعات من أجل تحقيق عالم أفضل. وفي هذا المنظور، حُددت الأهداف الأربعة التالية :

- تسهيل إنشاء شبكات وروابط لتشجيع المبادلات والتفاعلات بين الأطراف الفاعلة في مجال التعليم من أجل التنمية المستدامة.
- النهوض بتحسين جودة التعليم والتعلم في مجال التعليم من أجل التنمية المستدامة.
- مساعدة البلدان على التقدم في طريق بلوغ الأهداف الإنمائية للألفية.
- إتاحة إمكانات جديدة للدول لكي تراعي التعليم من أجل التنمية المستدامة، في إطار إصلاحاتها لقطاع التربية.

وقد حددت اليونسكو المقصود بالتعليم من أجل التنمية المستدامة بأنه:

- تعليم يُمَكِّن الدارسين من اكتساب ما يلزم من تقنيات ومهارات وقيم ومعارف لضمان تنمية مستدامة.
- تعليم يتيسَّر للجميع الانتفاع بمختلف مستوياته أيًا كان السياق الاجتماعي (البيئة العائلية والمدرسية، وبيئة مكان العمل، وبيئة الجماعة).
- تعليم يُعِدُّ مواطنين يتحملون مسؤولياتهم، ويشجع على الديمقراطية بحيث يمكّن جميع الأفراد والجماعات من التمتع بكل حقوقهم إلى جانب قيامهم بجميع واجباتهم.
- تعليم يدخل في منظوره التعلم مدى الحياة.
- تعليم يضمن تفتح الشخص تفتحًا متوازنًا.

واستجابة لمتطلبات التنمية المستدامة، واستفادة من جهود المنظمات الدولية المعنية بهذه القضية، نجد أن نظمنا التعليمية في العالم العربي مطالبة بالتطوير، بحيث يشمل هذا التطوير الجانبين، تطورًا كميًا ونوعيًا معًا.

ويعني التطور الكمي بتوفير فرص تعليمية حقيقية في المجتمعات والبيئات الفقيرة والمهمشة، وإتاحة فرص لكل المواطنين للحصول على التعليم الذي يناسب قدراته وإمكاناته دون تمييز لمنطقة أو بيئة دون أخرى أو تفضيل لطبقة أو جماعة بعينها.

ويعني التطور النوعي بمحتوى التعليم، وتقنياته، بما يزود المتعلمين بالمعارف والمهارات والسلوكيات والقيم المرتبطة بثقافة التنمية المستدامة بمفهومها الشامل للموارد الطبيعية والبشرية معًا، ويكون قادرًا على إعداد مواطنين لديهم القدرة على تحمل المسئولية، والقيام بواجباتهم تجاه مجتمعاتنا العربية إلى جانب التمتع بحقوقهم.

فإذا كانت لغة الأرقام ترصد اهتمامًا متزايدًا في العالم العربي بقضية التعليم، إلا أن الواقع يشير إلى حاجات متزايدة من التخطيط السليم، لكي تتحقق استفادة حقيقية تنعكس على مستوى ثقافة المتعلمين، وتنمية مهاراتهم وقدراتهم؛ ليكونوا على وعي بثقافة التنمية المستدامة، والسعي لتحقيقها ضمانًا لتلبية حاجاتهم الحالية وحاجات أجيالنا القادمة.



د. إدريس سلطان صالح

أستاذ مشارك بجامعة المنيا - مصر

يمتلك الوطـن العربي ثروات طبيعية متنوعـة، ما بـين موقـع إستراتيجي متميز يتوسط قـارات العالم، وموارد مائيـة ومعدنيـة، ومصـادر للطاقة، ومراعـي طبيعيـة، وتربـات خصبـة، جعلتـه مـن أغنـى مناطـق العـالم، إضافة إلى الـثروات البشرية المتمثلة في سكانـه، وما يمتلكونـه من قدرات ومهـارات قادرة على صنع الفارق إذا ما أتيحت لهم الفرص المناسبة.

وتمثـل المـوارد الطبيعيـة والبشرية مصادر أساسية لقوة الوطن العربي، وعناصـر مهمـة تعتمـد عليهـا جميع المشروعـات التنموية، وذلـك اعتمادًا على تعليم وتدريب مـوارده البشرية؛ لتكون قـادرة على توظيف ما يمتلكه مـن مـوارد طبيعيـة بطريقـة فعالة تحقق الأهداف المنشودة.

سؤال الذات

في الرومانسية المغربية

د. مها بنسعيد

المغرب

يُعد الشعر الرومانسي لحظة ثانية في دراسة التحديث الشعري بالمغرب، مستعرضين في ذلك أهم ممارسات الشعر المغربي، منذ الأربعينيات إلى نهاية الخمسينيات، من خلال تتبع تاريخي لعملية الإبدال؛ وذلك بالتخلي عن النظرية التقليدية، ونهج سبيل المغامرة، في تشكيل إيقاع القصيدة، بانفتاحها عن الممارسة النصية الغربية بشكل مباشر أو غير مباشر. ومن المعلوم أن الشعر الرومانسي المغربي لم يتصل بالشعر الرومانسي الغربي مباشرة، في كل من ألمانيا، وإنجلترا، وفرنسا، على الرغم من القرب الجغرافي، ولكن الاتصال عبر وسيط الشعر الرومانسي بالمشرق.

إذن، إلى أي حد انفتحت القصيدة المغربية الرومانسية على الآخر؟ وكيف ساهمت في تطور القصيدة المغربية؟

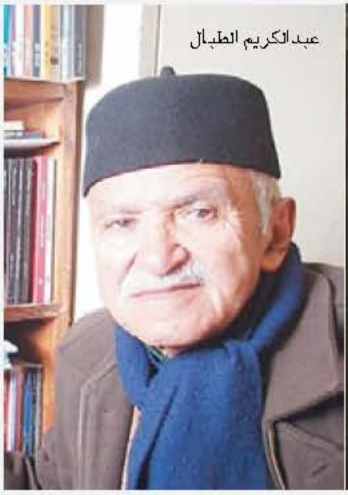
ظهر مصطلح الرومانسية حوالي سنة 1674 في إنجلترا، وتوطد حضوره في مقدمة كتاب توماس وارتن: تاريخ الشعر الإنجليزي الصادر سنة 1774، الذي كان له أثره البعيد في التعريف والدفاع عن الشعر، والقصص المازج بين عناصر الخيال، وخرق المعايير والقواعد الكلاسيكية. أما في فرنسا فقد تحددت بداية استعمال المصطلح، انطلاقًا من اللحظة التي وصف فيها شعر (أرستو) و(تاسو) بالرومانسي. وابتدع جان شبيلان مصطلح الملحمة الرومانسية ولو تأخر عن ألمانيا وإنجلترا. فقد بدأ استعماله فيها بتأثير من عمل شليغل. فارتبط المفهوم بمعنى الثورة، وتقاطع حضوره مع ممارسات الكلاسيكية، التي جعل الانتصار لها تبخيسًا وإدانة للأدب الرومانسي[1].

أما الرومانسية الألمانية فقد تحددت مع جماعة يينا (1798)، التي أسسها الإخوان شليغل وأوغست. وأنشأت مجلة الأثينيوم، حيث نشرت فيها أفكارها ونصوصها النظرية، المبنية على تصور فلسفي شمولي معارض للنظام السائد في أوروبا. كان الغرض منها بناء مجتمع مغاير غير خاضع لقيود العقل المتحجرة.

تمكنت هذه الجماعة من إغناء الساحة الأدبية بتصورات نظرية، حيث طرحت مسألة الأدب طرحًا نظريًا نقديًا من خلال شعارها النظري المطلق الأدبي L'absolu Littéraire، وهو عبارة عن ترجمة لأهم


محمد السرغيني


عبد الكريم بن ثابت


عبدالكريم الطبال


إدريس الجاي


عبدالمجيد بن جلون


محمد الصباغ

النصوص المنشورة في مجلة الأثينيوم مع تقديمات لها. وقد حصر محمد بنيس مشروع جماعة بينا النظري في ثلاث نقاط:

- تجديد الرؤية إلى القديم.
- إنتاج ما لم يقل.
- المطلق الأدبي[2].

أما تاريخ الرومانسية العربية فليس واحدًا، فلبنان تعرفت على الرومانسية منذ بداية القرن الحادي والعشرين، وبرزت نماذجها الأولى في شعر مطران خليل مطران، الذي كتب قصيدة المساء سنة 1902 في مصر، وكذا في أعمال جبران خليل جبران، الذي ألف كتاب الموسيقى سنة 1905 في أمريكا، ولم يتعرف المغرب على الرومانسية إلا في الأربعينيات والخمسينيات[3].

يمكن اعتبار الرابطة القلمية، أكثر مدرسة لها تأثير واضح في الأدب والشعر المغربي، وعلى الخصوص الرومانسي منه، حيث نفحت فيه مزيجًا من الفلسفة والصوفية والوجدانية.

أدرك الرومانسيون المغاربة حاجة الشعر إلى التحرر من القيود، ومن الاجترار المتواصل، والنظم على منوال القديم، لكن مع الرومانسية العربية والمغربية بالخصوص، أصبح ولأول مرة النموذج الشعري للمجددين متجهًا مباشرة نحو الآخر الأوروبي[4]. ساهمت هذه النقلة في انفتاح ثقافي واسع على الثقافة الغربية. فالرومانسية كان هدفها إبدال التقليدية وتأسيس وبناء حداثة شعرية عربية مغايرة ومضادة للحداثة التقليدية، متجاوبة مع الرومانسية الغربية، مما نتج عن هذا التأثر «إعادة تعريف الشعر والشاعر معًا»[5].

ظهرت الرومانسية المغربية بعد الحرب العالمية الثانية من مناطق ثقافية مختلفة. وقد أنصتت هذه الحركة إلى كل من شعراء مدرسة الديوان، وشعراء المهجر، وتعرفت على شعر أبي قاسم الشابي، فكانت حركة شعرية التقى بعض شعرائها مع الشرق وفي مصر تحديدًا، بعد أن سافر كل من عبدالمجيد بنجلون، وعبدالكريم بن ثابت، لمتابعة الدراسة، أو مع الغرب مباشرة، تبعًا للاستعمارين اللذين كان يحتلان المغرب[6].

مثل أصحاب الرومانسية المغربية، النزوع إلى تحرير القصيدة من نموذجها التقليدي في العروض والمتخيل معًا. ومن هنا كان اللقاء مع الشعر الحر، معبرًا عنه بالشعر المنثور. وقد زاوج هؤلاء الشعراء بين القصيدة الموزونة والشعر المنثور، كما زاوجوا بين الشعر، والقصة، والرواية. وأبرز وجه لهذه المزاوجة هو عبدالمجيد بنجلون، الذي كتب في الطفولة، أول سيرة ذاتية رومانسية، ثم محمد الصباغ، الذي مارس الشعر بتحرر يكاد يكون متعدد الاتجاه.

"يمكن اعتبار الرابطة القلمية، أكثر مدرسة لها تأثير واضح في الأدب والشعر المغربي. وعلى الخصوص الرومانسي منه، حيث نفحت فيه مزيجًا من الفلسفة والصوفية والوجدانية."

"ظهرت الرومانسية المغربية بعد الحرب العالمية الثانية من مناطق ثقافية مختلفة وقد أنصتت هذه الحركة إلى كل من شعراء مدرسة الديوان، وشعراء المهجر، وتعرفت على شعر أبي قاسم الشابي"

"ركزت الرومانسية المغربية على مفهوم الذات، والحرية، والتلقائية، والعفوية في التعبير الأدبي. وارتبطت بالفلسفة، وعلم الجمال، والبحث عن معرفة جديدة"

تأخرت الحركة الرومانسية المغربية كثيرًا في الظهور، بالمقارنة مع نظيرتها في لبنان، ومصر، والمهاجر الأمريكية، وتونس. تأخرٌ تزامن مع ظهور القصيدة الحرة في العراق، مما قلص من الفاعلية العربية للرومانسية المغربية، وفعل في غياب أي اسم عن التداول في الخطاب النقدي العربي. ويعود هذا التأخر لسيادة البنية التقليدية، إذ «لم يكن حلول الرومانسية إذن في أدب المغرب الحديث، إبان بداية تشكله، يحظى بالرضى الأدبي، الذي حظي به حلول الأدب الإحيائي فيه»[7].

ثمة أسماء رومانسية شابة، ظهرت في بداية الخمسينيات مثل: عبدالكريم الطبال؛ ومحمد (نسيم) السرغيني؛ ومحمد الصباغ؛ وإدريس الجاي؛ وعبدالكريم بن ثابت؛ وعبدالقادر المقدم؛ ... أدركت هذا التأخر، فانتقلت، في مرحلة تالية، إلى كتابة قصيدة حرة ثم معاصرة. ومع ذلك فإن الحركة كانت مؤثرة في الحياة الثقافية المغربية. من ثم، لا بد من النظر إلى قيمتها لا بالقراءة العمودية التي تلغي السياق، بل الأفقية، التي تستكشف فاعليتها في نسق الثقافة المغربية[8].

ركزت الرومانسية المغربية على مفهوم الذات؛ والحرية؛ والتلقائية؛ والعفوية في التعبير الأدبي. وارتبطت بالفلسفة؛ وعلم الجمال؛ والبحث عن معرفة جديدة. لذا اهتم الرومانسيون بالخيال لأنه مملكة الداخل وموطن المعاني اللانهائية. خضعت الرومانسية لعدة إبدالات في قواعد القصيدة. تمثلت في: غياب الاستهلال، وإحلال المقطع محله، واستعمال الأوزان. وذلك بالتخلي شيئًا فشيئًا عن تقسيم البيت إلى شطرين. يقول محمد بنيس: «إن انعدام الاستهلال في البنية السائدة للشعر الرومانسي العربي، هو أول »طريقة أقل« يمكن ملاحظتها في البناء النصي. وحذف هذا العنصر أعطى للقصيدة حركية تتخلص بها من جمود النص الأولي، في الوقت نفسه الذي انبثق فيه المقطع كبنية قاعدية هي أساس النص بكامله»[9].

تمرد الرومانسيون المغاربة على القصيدة التقليدية شكلاً ومضمونًا. وبناء ولغة. بتحريرها من القوالب الجاهزة. فثاروا على نظام القصيدة الطويلة، ونظام القافية الموحد، وفقدان ذاتية الرؤية، وخصوصية الأسلوب. وجنحوا إلى شعر المقطوعات، وشعر التواشيح، ونظموا الشعر القصصي، والروايات التمثيلية، والأقصوصة، وتغنوا بالطبيعة، ووصفوا الجمال. أما من حيث المضمون فقد تمرد الشعراء الرومانسيون على محدودية الفضاء المتداول، ومحدودية الطموح. ودعوا إلى ضرورة التغيير، وتقريب العمل الشعري من حركة العصر، وحيوية المعاناة وتأمل الفكر وإشعاع الوجدان.

تعد مرحلة الأربعينيات محطة حاسمة في ظهور شعراء رومانسيين، اختاروا إرساء علاقات جديدة مع اللغة والحياة والإبداع والعالم الجديد. وقد راهنوا على إعادة النظر في القصيدة الكلاسيكية. يقول محمد بنيس: «أما القصيدة الإيقاعية الدلالية فقد عرفت في الأربعينيات وخاصة في نهاية الحرب العالمية الثانية، تحولاً نوعيًّا يتمثل في تعدد جمهرت الشعراء الممارسين للمفهوم الرومانسي، القائم على استغلال تجربة الموشحات الأندلسية، بعدما التفت إلى هذه التجربة شعراء المهجر، وشعراء المشرق العربي معًا. ونجد في طليعة المغاربة، الذين نوعوا الأوزان والقوافي داخل النص الشعري، بعد علال الفاسي في الثلاثينيات كلاًّ من عبدالمجيد بنجلون، وعبدالكريم بن ثابت، وعبدالقادر المقدم، ومحمد الحلوي»[10].

أثرت الرومانسية الغربية بشكل كبير في تجديد أسلوب الشعر المغربي من الناحية الفلسفية والشكلية. ومن ثم يمكن اعتبار الشعر الرومانسي المغربي طفرة أساسية في تجديد الأدب بصفة عامة في المغرب. فبواسطة الشعراء الرومانسيين، تمكن الشعر المغربي من أن ينعطف مع التيار الأوروبي، الإنساني، والعالمي. سواء من ناحية الشكل أو المعنى، ومن ثم يأتي بشعر عربي أصيل مطور، ومساير للآداب، والإنتاج الأدبي الغربي الأوروبي[11].

مع الرومانسية المغربية اختلفت الوضعية اللغوية عند الشعراء. استطاع هذا الجيل التعرف أولاً على الثقافة الأوروبية بطريقة مباشرة، حيث سمحت له الظروف (الاستعمار) بتعلم اللغات الأجنبية كالإسبانية، والفرنسية، والإنجليزية وغيرها. كما سمحت له بالانفتاح على ثقافة الآخر ودراستها، مما أدى به إلى توسيع عمق رؤيته، وانتقالها من مفهومها الضيق الشعر إلى مفهوم أوسع هو الأدب؛ أي أن الشاعر المغربي أصبح يتحدث عن جميع الأجناس الأدبية من رواية وقصة ومسرح وغيرها. كما أقدم الاستعمار أيضًا على إنشاء معاهد لتعريب الأشكال الفنية كالموسيقى التي أصبحت حاضرة في القصيدة المغربية الرومانسية وملازمة لبنائها من خلال البناء المقطعي الذي يعود إلى الموشح.

إن توجه المغاربة نحو المشرق المستفيد من الغرب. جعلهم ينتجون شعرًا أكثر رونقًا، وأكثر تعبيرًا عن أحاسيس الإنسان وهمومه، مستفدين من تجارب الشعر الأندلسي والعربي الأصيل. وعيًا بضرورة التجديد في بنية القصيدة المغربية الحديثة. بوصفها الخطاب القادر على التغيير ومواكبة العصر. فكانت الحرية أول عنصر تبناه الشاعر الرومانسي لمواجهة التقليد.

الهوامش:

1 - يوسف ناوري، الشعر الحديث في المغرب العربي، ج1، دار توبقال للنشر، ط1، 2006، ص.182.
2 - محمد بنيس، الشعر العربي الحديث بنياته وإبدالاتها، ج 2، الرومانسية العربية، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط 2، 2001، ص.19.
3 - المرجع نفسه، ص. 15 - 16 .
4 - المرجع نفسه، ص.25.
5 - المرجع نفسه، ص،7.
6 - ديوان الشعر المغربي الرومانسي، إعداد عبد الجليل ناظم ، وزارة الثقافة، بتعاون مع بيت الشعر في المغرب، ط 1، ماي ، 2003، ص،5.
7 - محمدجاري، تدوين الذات الرومانسية في أدب المغرب الحديث، المطبعة الوراقة الوطنية، الحي المحمدي، الدوديات، مراكش، ط1، 2004، ص، 29.
8 - ديوان الشعر المغربي الرومانسي ، إعداد عبد الجليل ناظم ، م.س، ص،6-8.
9 - مجمد بنيس، الشعر العربي الحديث بنياته وإبدالاتها، ج2، الرومانسية العربية، م. س ، ص،87.
10 - محمد بنيس، ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب، مقاربة بنيوية تكوينية، دار العودة، ط 1979.1 ، ص،287-288.
11 - المرجع نفسه، ص، 126.

المراجع والمصادر:

محمد بنيس، ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب، مقاربة بنيوية تكوينية، دار العودة، ط 1979.1 .
محمد بنيس، الشعر العربي الحديث بنياته وإبدالاتها، ج 2، الرومانسية العربية، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط 2، 2001.
ديوان الشعر المغربي الرومانسي، إعداد عبد الجليل ناظم ، وزارة الثقافة، بتعاون مع بيت الشعر في المغرب، ط 1، ماي، 2003.
محمدجاري، تدوين الذات الرومانسية في أدب المغرب الحديث، المطبعة الوراقة الوطنية، الحي المحمدي، الدوديات، مراكش، ط1، 2004.
يوسف ناوري، الشعر الحديث في المغرب العربي، ج1، دار توبقال للنشر، ط1، 2006 .

كل المواقيت نائمة عند منتصف العمر



محمد الشحات

القاهرة

كان يرسم
في بؤرة العين موجًا
ليغسل ما قد يعوق
رؤاه
ويحمل من شاطئه
مواجعه
ويمضى بها
باتجاه البيوت التي
لم تعد تحتوي دفؤها
هاله
حين أفرغ في آخر الليل
بعض الذي عاشه
أن كل المواقيت نائمة
عند منتصف العمر
وأن جيوشًا من الحزن ترقبه
لتمرح فى رئتيه
تنفس
ثم أطال البكاء
وراح يعدد
كم مرة هاجرته المواجع
وكم مرة صاحبته
أنا الآن ما بين
يوم سيأتي
ويوم مضى
فكيف أقاوم ضعفي
وأرسم
في بؤرة العين موجًا
ليغسل ما قد يعوق
رؤاه

اللوحة بريشة الفنان التشكيلي ANDREA PRAMUK

مساهمات المجتمع المدني في تحسين أوضاع التعليم في النصف الأول من القرن العشرين

نسمة سيف الإسلام سعد

باحثة كلية الآداب -جامعة القاهرة

تعد العلاقة بين التعليم والمجتمع علاقة وثيقة، فالتعليم جزء من نظام أعم وأشمل هو المجتمع، وانطلاقًا من أهمية دور المجتمع المدني في مشاركة الحكومات في تحسين الأوضاع الاجتماعية نجد أن أهم أهداف المجتمع المدني بكافة تكويناته الارتقاء وتحسين أوضاع المجتمع، نعد المشاركة في حل مشكلات التعليم من أهم الأهداف التي تسعى منظمات المجتمع المدني لحلها منذ مطلع القرن العشرين وحتى الوقت الحاضر.

يُقصد بمصطلح المجتمع المدني أو النشاط الأهلي القطاع داخل المجتمع لا يكون له توجه واحد بعكس "المجتمع الاشتراكي" أو "المجتمع الرأسمالي"، وإنما إلى فئة يجمع بينها الرغبة في تقديم خدمات تنموية للمجتمع الذي تعيش فيه[1].

ارتبطت نشأة المجتمع الأهلي في مصر بقيام الدولة الحديثة في عهد محمد علي (1805-1848)، بعد الحملة الفرنسية على مصر (1898-1801)، ولكن لما كان المشروع التحديثي لمحمد علي قد خُطط له ونفذ بمبادرة واحتكار الدولة لم يكن واردًا أن ينشأ مجتمع مدني قوي، وبالرغم من ذلك فقد نشأت أولى منظمات المجتمع المدني في مصر خلال عهده وهي الجمعية اليونانية في الإسكندرية 1821، وبعد إجهاض المشروع التحديثي لمحمد علي وتدفق الأجانب على مصر في صورة رجال أعمال ورؤوس أموال وانتشار الجاليات الأجنبية، ثم الاحتلال البريطاني بدأت تظهر وتنمو تكوينات جديدة تدخل في نطاق المجتمع المدني، وكان في مقدمتها:

- الجمعيات الإسلامية والمسيحية.
- روابط الجاليات الأجنبية.
- الجمعيات والنقابات المهنية.
- الأحزاب السياسية.
- الجمعيات الأهلية[2].

وسوف تتناول هذه الدراسة أهم إسهامات المجتمع المدني في تحسين أوضاع التعليم باعتباره كان ولا زال من أهم مشكلات المجتمع المصري حتى الوقت الحالي.

عندما تولى محمد علي حكم مصر عام 1805 تبين له أن السبيل إلى بناء دولة عصرية يكون بتحديث التعليم وإقامة بنائه على النسق الأوربي لسد حاجة البلاد للعناصر المتعلمة؛ لذلك شهد عصر محمد علي نهضة تعليمية واسعة كانت من أهم نتائج تجربته الإصلاحية وقد ظل التعليم ينحدر من السيئ إلى الأسوأ في عصر خلفاء محمد علي، فعلى سبيل المثال في عهد عباس باشا تم إغلاق جميع المدارس الابتدائية بالأقاليم والاكتفاء بمدرسة المبتديان في القاهرة، التي أنشأها محمد على عام 1833، واستمر الأمر على هذا السوء، حتى مجيء الخديوي إسماعيل الذي اعتبر التعليم واجبًا قوميًا، ليس الهدف منه إعداد موظفين فحسب وإنما اعتبره عاملاً مهمًا في تثقيف أفراد الشعب، فشهد عصره نهضة تعليمية موسعة وبنهاية حكمه، ومع مجيء الاحتلال البريطاني عام 1882 حدث تدهور شامل لأحوال التعليم

بكافة مراحله واللورد كرومر أوضح بنفسه في تقريره عن عام 1901م الأهداف البريطانية من العملية التعليمية في مصر، حيث اختصرها في شقين هما " الأول: نشر التعليم البسيط بقدر الطاقة بين الذكور والإناث على أوسع نطاق ممكن ينحصر في الإلمام بمبادئ اللغة العربية والحساب، والثاني: الرغبة في إعداد طبقة متعلمة تعليمًا راقيًا تفي بمطالب الخدمة في الحكومة لكي يتقلدوا وظائفها"[3]، وحتى يتم تطبيق هذه الأهداف على أرض الواقع تم اتخاذ عدة خطوات منها خفض نسب الإنفاق على التعليم بصفة عامة، وعدم الاهتمام بإنشاء المدارس والتوسع فيها، فضلاً عن زيادة المصروفات الدراسية، ولم تكتف سياسة الاحتلال بذلك، وتم إصدار قرار في عام 1902 بأن يكون التعليم بالمصروفات بحيث لا يكون مجانيًا إلا بوجه الاستثناء[4]، فقد كان اللورد كرومر يَدَّعي أن الحكومة الصالحة تحتاج إلى عنصرين أساسيين هما الجهاز الإداري الجيد والموظفين الأكفاء، ولكن أكبر خطأ تخريج أعداد متعلمين تفوق حاجة الحكومة من الموظفين، وكذلك إعطاء الانطباع بأن التعليم في المدارس الابتدائية خير أداة للعمل الحكومي، وكانت زيادة المصروفات الدراسية وسياسة تشجيع أولياء الأمور على إلحاق أبنائهم بالتعليم الفني، بدلاً من الثانوي على أساس أنه أجدى نفعًا أهم الأسس التي قامت عليها سياسة الاحتلال البريطاني تجاه التعليم، مما أدى إلى أن بلغت نسبة المتعلمين من الشعب المصري عام 1927 م (9% فقط)[5].

بدأت الجهود الأهلية تتخذ شكلاً منظمًا لتعويض الشعب عن النقص في عدد المدارس، وقد تمثل هذا الشكل في ظهور بعض الجمعيات الخيرية، والأحزاب السياسية، التي سعت إلى تقديم التعليم للشعب بالمجان، أو بمصروفات ضئيلة، معتمدة في ذلك على التبرعات والإعانات. وتناولت هذه الجهود الأهلية التعليم في كافة مراحله، وتنوعت حتى فاقت إلى حد كبير جميع الجهود الحكومية في هذا الميدان، وقد كان من أبرز الجهود الحكومية ما قام به سعد زغلول في أثناء توليه نظارة المعارف ومن الجهود الحزبية ما قام مصطفى كامل، ومن بعده محمد فريد من خلال الحزب الوطني سواء عن طريق إنشاء المدارس الليلية لتعليم العمال أو الدعوة لإنشاء الجامعة المصرية، وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك مشاركات مجتمعية لنشر التعليم والحد من الأمية، ومنها أن طلاب جامعة القاهرة على سبيل المثال قاموا بتشكيل جمعيات طلابية الهدف منها العمل على محو الأمية بين صفوف الفلاحين في الريف والأحياء الشعبية في المدن، ومن هذه الجمعيات جمعية "الطلبة لنشر الثقافة" والتي ضمت بين صفوفها الطلبة المتطوعين الذين كانوا يقوموا بتعليم القراءة والكتابة للمواطنين، كما يقومون كذلك بإلقاء دروس في الصحة وكيفية الوقاية من الأمراض وطرق تنظيم منازلهم، وكانت هذه

> "من أبرز الجهود الحكومية ما قام به سعد زغلول أثناء توليه نظارة المعارف ومن الجهود الحزبية ما قام مصطفى كامل ومن بعده محمد فريد من خلال الحزب الوطني سواء عن طريق إنشاء المدارس الليلية لتعليم العمال أو الدعوة لإنشاء الجامعة المصرية، وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك مشاركات مجتمعيه لنشر التعليم والحد من الأمية"

الأنشطة تتم خلال الإجازة الصيفية للطلاب، ونالت هذه الجمعية الدعم من علي باشا إبراهيم رئيس الجامعة، وتعاونت الجمعية مع الحكومة فرخصت لها استخدام المدارس الحكومية في مختلف أنحاء البلاد، وخصصت لها إعانة سنوية ورحب الشيخ مصطفى المراغي شيخ الأزهر بالدعوة لنشاط الجمعية بين طلاب الأزهر[6]، وكان أيضًا للصحافة النسائية دورًا في الاهتمام بقضايا التعليم فقد كان التركيز على قضايا التعليم، وقوانينه من أهم الأمور التي تناولتها مجلة الفتاة للسيدة نبوية موسى وقد هاجمت أيضًا استبدال المعلمات المصريات بالأجانب وسياسات وزارة المعارف تجاه التعليم الحر، وشاركت في هذه الحملة مجلة المصرية لصاحبتها بلسم عبدالملك[7].

دور الجمعيات الأهلية في نشر التعليم:

وأما الجمعيات الأهلية فنجد أنه كان هناك العديد من الجمعيات كان لها مساهمات في نشر التعليم، ومنها جمعية المساعي الخيرية التي تأسست عام 1881، وكان لها الفضل في تعليم عدد كبير من أبناء الفقراء وتعليم التدبير المنزلي والتطريز بالمدارس الابتدائية والأولية[8]، ومن أهم الجمعيات التي كان لها مساهمات مهمة في نشر التعليم:

- الجمعية الخيرية الإسلامية :

كان من أهم الجمعيات التي كان لها دور في تحسن أحوال التعليم الجمعية الخيرية الإسلامية التي تأسست عام 1892، وكان من أهم أعضائها (محمد عبده وسعد زغلول ومحمد فريد) أسهمت إسهامًا فعالاً في نشر التعليم عن طريق مدارسها، التي انتشرت ليس في القاهرة وإنما امتدت في مختلف إنحاء البلاد، وكان يتم قبول التلاميذ بهذه المدارس من الذين يتراوح أعمارهم بين سبع وعشر سنوات، وكان منهج التعليم بهذه المدارس يجمع بين العلوم الدينية والعلوم الحديثة بالإضافة إلى وقوفه على ما يسمى بالعلوم العصرية، واستمرت الجمعية الخيرية الإسلامية تسهم في نشر التعليم بجميع أنواعه وكافة مراحله، وقد وصل عدد تلاميذ مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية عام 1904م إلى 766 تلميذًا، ارتفع في عام 1915م إلى (4733 تلميذًا منهم 2095 بالمجان و 2638 بمصروفات)، إلى أن ضمتها وزارة المعارف إليها في الثامن من أغسطس عام 1938، وأصبحت خاضعة لسلطة الوزارة من الناحية الفنية والإدارية[9].

- الاتحاد النسائي المصري:

تم تأسيس الاتحاد النسائي المصري في 16 مارس 1923، برئاسة السيدة هدى شعراوي، وكان من أهم أهدافه في المجال الاجتماعي الدعوة إلى نشر التعليم الابتدائي بصفة إلزامية وطالب بالإكثار من البعثات العلمية وفتح باب التعليم الثانوي وتشجيع حركة الترجمة لدورها البالغ الأهمية في نشر المعرفة ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فقد تم إنشاء عدد من المدارس تابعة لنشاط الإتحاد النسائي[10].

جمعية المرأة الجديدة:

تم تأسيس جمعية المرأة الجديدة عام 1919، برئاسة السيدة هدية بركات، وكان الهدف من إنشائها نشر التعليم للمرأة، وأقامت لهذا الغرض مدرسة أولية للفتيات من سن الثامنة إلى سن الثانية عشرة، لتعليمهن مبادئ القراءة و الكتابة والحساب، مع إتقان الحياكة والتطريز، وساهمت عدد من السيدات في إنجاح وتطوير الفكرة.

ويتضح مما سبق أنه على الرغم من مدى خطورة مشكلة الأمية واستمرارها في المجتمع المصري حتى الوقت الحالي، إلا أن جهود المجتمع المدني والمشاركات المجتمعية كان لها دور بارز في التخفيف من حدة المشكلة .

الهوامش:

1 - فريد زهران: النشاط الأهلي أو المجتمع المدني في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2006 ، ص 86 .
2 - خالد عبد الفتاح: قيم العمل الأهلي في مصر، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، القاهرة 2006 ، ص 102 .
3 - ماجدة محمد حمود: المندوبون الساميون ودورهم في نشر التعليم والثقافة الإنجليزية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2001 ، ص 23 .
4 - عوض توفيق عوض: موقف الاحتلال البريطاني من تعليم البنات، ملتقى المرأة والذاكرة، القاهرة 2010 ، ص 215 .
5 - محمد علي علوبة: ذكريات اجتماعية وسياسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1988 ، ص 75 .
6 - نسمة سيف الإسلام سعد: دور الحركة الطلابية في الحياة العامة في مصر (1908- 1945)، دورية كان التاريخية، العدد السابع والعشرون، مارس 2015 ، ص132-143 .
7 - ليلي عبدالمجيد: المجلات النسائية في مصر، الهلال، يناير 2000 ، ص 40 .
8 - عوض توفيق عوض: موقف الاحتلال البريطاني من تعليم البنات، ملتقى المرأة والذاكرة، القاهرة 2010 ، ص 218 .
9 - بسنت فتحي محمود : تعددية التعليم الابتدائي في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة2009 ، ص 132 ، ص 105 .
10 آمال كامل بيومي السبكي: الحركة النسائية ما بين الثورتين 1919 و 1952 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1986 ، ص 105 .

مسمياتنا الإسلامية 1 - 2



عبدالله بن محمد اليوسف

الرياض

مدن الحضارة الإسلامية

- كانت بداية الدولة العربية الإسلامية على يدي النبي عليه أفضل الصلاة والتسليم محمد بن عبدالله بوضع وثيقة المدينة التي أدخلت كثيرًا من العادات القبلية لصالح دولة حضارية، وتوسعت بعد ذلك في زمن الدولة الأموية والعباسية، حتى بلغت في العصر الأموي الدولة الأموية أكبر دولة في التاريخ الإسلامي من حدود الصين وبورما شرقًا وأراكان المسلمة والهند وباكستان الشرقية (منطقة صاتغاونغ) شرقًا، وحتى حدود فرنسا الأندلس غربًا وفي عصر الدولة العثمانية توسعت الأراضي إلى أوروبا واليونان، وبعد سقوط الدولة العثمانية بدأ التوسع الأوربي في البلاد الإسلامية. (الموسوعة الحرة- باختصار)

جغرافيات الحضارة الإسلامية

- إن مصطلح العالم الإسلامي يغطي المساحة من مضيق جبل طارق حتى مضيق Malaka، ومن نهر الفولغا إلى بحر العرب، إن هذا العالم الإسلامي الذي يحتوي على ما يقارب مليار ونصف من البشر يمتد من الشرق إلى الغرب على طول 15 ألف كيلو متر، ومن الجنوب إلى الشمال إلى 9 آلاف كيلو متر من جبال الأورال إلى موريتانيا، ويغطي مساحات واسعة جدًا.

- ولو نظرنا إلى العالم الإسلامي الممتد الواسع بهذا الشكل سنظهر من البداية أن من وضع الخرائط الخاصة بمواجهة الحضارات مثل صموايل هونتنجتون قد أخرج الهندوس والبوذيين من هذه المنظومة وترك المسلمين والمسيحيين ليتحاربوا، وسنرى أيضًا من هذه النظرة الواسعة لهذه الخريطة الواسعة الأطراف أن العالم الإسلامي غني بالثقافات، لأنه بني على حضارات النهر الأصفر والهند وبلاد مابين النهرين ومصر وروما وغيرها من الحضارات وسنجد أيضًا هذا العالم الإسلامي غني بالموارد الطبيعية البحرية، حيث إنه يحتوي على العديد من البحار والأنهار والبحيرات مثل النيل والبحر الأبيض المتوسط وبحر الخزر ونهري دجلة والفرات والبصرة وبحار وبحيرات المغرب العربي وبالإضافة إلى تلك الموارد المائية فالموارد الجوفية فتحتوي هذه البقعة من العالم على أعلى كميات الموارد الجوفية من المعادن والبترول والذهب والماس.

- فباختصار إن هذا العالم الإسلامي المترامي الأطراف من سواحل إفريقيا الأطلنطية إلى جنوب المحيط الهادي ومن متجمدات سيبيريا إلى الجزر البعيدة في شرق أسيا، يحتوي على العديد والعديد من الثقافات والحضارات مثل الصينية والمغولية والماليزية والإندونيسية والطاجيكية والتركية والشيشانية والفارسية والكردية والعربية والرومية والبربرية والسواحيلية، وغيرها من الحضارات والثقافات الأفريقي. (الحضارة الإسلامية - منتديات ستار تايمز)

- وهذه المسميات التي أرى أن تستمر بهذا الاسم في التعليم وفي مسميات الشوارع والمجمعات التجارية والطبية والتعليمية وغيرها.

سواء المدن الإسلامية التي ما زالت تحمل الاسم على سبيل المثال: الكوفة والبصرة ودومة الجندل والقاهرة والرباط أو المدن الإسلامية التي غيرت أو حرفت على سبيل المثال العاصمة الفلبينية مانيلا. حيث كان اسمها أمان الله. والعاصمة التركية استانبول حيث كان اسمها اسلام بول ... وغيرها، أو الدول التي كانت لها علاقة وتاريخ مع الإسلام مثال اسم الحبشة، وهذا الاسم له ارتباط في بدايات الدعوة الإسلامية، التي غيرت إلى



أثيوبيا.

- لتربط الأجيال بماضيها المجيد ولتعزيز العديد من الأهداف المهمة منها التأكيد على القيم الدينية والاجتماعية التي تمتد جذورها في أعماق التاريخ لتصور البطولات الإسلامية وبما صنعه الأجداد بدءًا من الأوائل من الرعيل الأول، الذين كانوا حول رسول الله صلى الله علية وسلم ومن بعده من الخلفاء الراشدين، وبعد اتساع الدولة الإسلامية كالدول الإسلامية الأموية، والعباسية إلى الخلافة الإسلامية العثمانية.

- لأن البعض من تلك المسميات تغيرت قد تكون مقصودة بهدف عزل الأجيال عن تاريخهم المجيد، لأن معظم عالمنا الإسلامي رزح تحت الاستعمار الصليبي عقود عديدة من السنين. والمسميات الأخرى قد تغيرت إما إهمالاً أو عدم مبالاة .

البصرة

هي من أقدم المدن التي بناها المسلمون، ولا تزال باقية إلى الآن.

مصّرها عتبة بن غزوان سنة 16 للهجرة، فعمرت البصرة واتسعت عمارتها، حتى بلغت مساحتها في إمارة خالد بن عبدالله (القسري) 16 ميلاً مربعًا في أرضٍ منبسطة لا جبال فيها.

بنيت الكوفة بعد البصرة ببضعة أشهر، بناها سعد بن أبي وقاص، وكان للكوفة شأن كبير عند الشيعة لأن الإمام علي (عليه السلام) جعلها عاصمة ملكه إلى أن قتل.

الفسطاط

هي أول مدن المسلمين في القطر المصري بناها عمرو بن العاص سنة 18هـ في ما بين القاهرة اليوم ومصر العتيقة. وبلغ طولها على ضفة النيل ثلاثة أميال.

بغداد

هي عاصمة العباسيين بناها المنصور سنة 145هـ، ولا تزال باقية إلى اليوم وقد تغير موضعها مرارًا، وبلغت بغداد معظم عمارتها في أيام المأمون حتى امتدت أبنيتها وبساتينها على بقعة.

وقد أراد صاحب (سِيَر الملوك) بيان مقدار عمارة بغداد، فقال: (وكان عدد الحمامات في ذلك الوقت ببغداد ستين ألف حمام، وأقل ما يكون في كل حمام خمسة نفر: حمامي وقيم وزبال ووقاد وسقاء، يكون ذلك ثلاث مئة ألف رجل، وذكر أن إزاء كل حمام خمسة مساجد يكون ذلك ثلاث مئة ألف مسجد، وتقدير ذلك أن أقل ما يكون في كل مسجد خمسة نفر يكون ذلك ألف ألف وخمس مئة ألف إنسان)، ناهيك عما كان من العمارة حول بغداد وفي سائر بلاد السواد، قال ابن حوقل، وقد رآها في أثناء القرن الرابع للهجرة: (وبين بغداد والكوفة سواد مشتبك غير متميز تخترق إليه أنهار من الفرات.. إلخ).

- فلو استعرضنا بعضًا من هذه المسميات غربًا ونأخذ مثالاً:

بلاد الأندلس: التي تسمى إسبانيا وعاصمتها مدريد والأصل العربي مجريط يقول المؤرخ الفرنسي دريبار – نحن الأوروبيون مدينون للعرب بالحصول على أسباب الرفاهية في حياتنا العامة، فالمسلمون علمونا كيف نحافظ على نظافة أجسادنا. أنهم كانوا عكس الأوروبيين الذين لا يغيرون ثيابهم إلا بعد أن تتسخ وتفوح منها روائح كريهة. فقد بدأنا نقلدهم في خلع ثيابنا وغسلها. كان المسلمون يلبسون الملابس النظيفة الزاهية، حتى إن بعضهم كان يزينها بالأحجار الكريمة كالزمرد والياقوت والمرجان. وعرف عن قرطبة أنها كانت تزخر بحماماتها الثلاث مئة (ويذكر بعض المؤرخين أنها وصلت الى تسع مئة حمامًا)، في حين كانت كنائس أوروبا تنظر إلى الاستحمام كأداة كفر وخطيئة. لقد ازدهرت العلوم والآداب والفنون تحت سماء الأندلس، وتطور فن الشعر وغدا زاهيًا، فتح لخيال الشعراء آفاقًا رحبة للعمل المبدع، وأصبح الأسلوب الشعري أكثر غنىً ومتانة، والأقدر على التعبير عن جمال المشاعر الإنسانية ورفاهة ورقة الأحاسيس.

قرطبة

قرطبة مدينة أندلسية في أسبانيا وعاصمة مقاطعة قرطبة، يبلغ عدد سكانها 300.229 نسمة. وتقع على بعد 138كم شمالي شرق صقلية؛ احتل الرومان قرطبة عام 206ق.م. وقد بلغت ذروة أهميتها في القرن العاشر الميلادي، حيث كانت مركزًا شهيرًا للفن والثقافة الأندلسية؛ وكانت قرطبة عاصمة الأندلس قبل دخول المسلمين فيها؛ ثم اتخذها بنو أمية ومن بعدهم عاصمة للمسلمين في الأندلس، حيث كانت أم المدائن ومستقر دار الخلافة؛ وما زالت آثار المسلمين باقية فيها إلى الآن، وأشهرها جامع قرطبة الشهير.

عاصمة منطقة الأندلس ومقاطعة إشبيلية في جنوب إسبانيا، وتقع على ضفاف نهر الوادي الكبير؛ يبلغ عدد سكان مدينة إشبيلية نحو 699.145 نسمة (2007) مما يجعلها رابع أكبر مدينة في إسبانيا من حيث عدد السكان.

الوادي الكبير

الوادي الكبير أو النهر الكبير هو نهر إسباني يجري في منطقة الأندلس ويصب في المحيط الأطلسي غربي مضيق جبل طارق. أطلق المسلمون عليه هذه التسمية في حين كان الرومانيون يسمونه بيتيس Baetis نسبة إلى منطقة بيتيك الأندلس حاليًا يبلغ طول النهر 657 كلم، و يعد خامس نهر في شبه الجزيرة الإيبيرية.

لشبونة

لشبونة عاصمة البرتغال وأكبر مدنها؛ ويقطنها حوالي خُمس تعداد سكان البرتغال، حيث يبلغ تعداد السكان 663.315 نسمة، ويصل إلى 2.062.200 نسمة بضواحيها؛ واسم المدينة باللغة البرتغالية ليسبوا؛ وتقع لشبونة عند مصب نهر تاجو.

مملكة غرناطة

مملكة إسلامية قامت في جنوبي أسبانيا؛ ويجوز أن يكون الاسم مأخوذًا من كلمة غرانادا الإسبانية، التي تعني الرومان، أو من الكلمة العربية غرناطة، وتعني تل الغرباء؛ وفي القرن الثامن الميلادي قام المسلمون الفاتحون بدخول غرناطة وأجزاء أخرى من جنوب أسبانيا؛ وصارت غرناطة مملكة مستقلة عام 336هـ، 1238م؛ واستمرت مركزا للعلوم والحضارة التي ابتكرها المسلمون في أسبانيا. (الألوكة)



كيف كانت القدس في ظل الحكم العثماني خلال أربع مئة عام؟

وللقدس أبوابها الواسعة
وأسماؤها الرائعة
وأسماؤنا الحلوة المرّة اللاذعة
وللقدس نجمتها الطالعة
وللقدس أقدامنا، فلتحجَّ إليها الشعوب
جميع الشعوب،
قلوب بإيمانها خاشعة
وطهر أكفٍّ إلى ربها ضارعة

سميح القاسم

بقلم: سميحة خليف
فلسطين - بيت لحم

الدولة العثمانية هي دولة لامتداد الخلافة الإسلامية في الأرض، حيث أسسها عثمان الأول بن أرطغرل، وامتدت جذورها لتحكم آسيا الصغرى، ومناطق جنوب شرق قارة أوروبا، ومناطق شمال قارة أفريقيا، وشرق قارة آسيا، وبهذا الامتداد كان لفلسطين نصيب من حكمها، حيث بعد معركة مرج دابق التي وقعت في 1516/8/22م، وانتصار الدولة العثمانية على الدولة المملوكية، اندرجت فلسطين عامة، ومدينة القدس خاصة كغيرها من المدن تحت راية الحكم العثماني الإسلامي بعد أربعة شهور من الانتصار الكبير.

التشكيلات الإدارية العثمانية في القدس

لقد اختلفت التشكيلات الإدارية في مدينة القدس بين مدة وأخرى، وذلك لعدة أسباب منها: مكانة القدس الحضارية كونها مدينة دينية للديانات السماوية الثلاث، وتطور الأنظمة الإدارية في الدولة العثمانية، والتهديدات التي هددت بلاد الشام من الجهة الجنوبية مصر من قبل حملات نابليون بونابرت، وقيام الدولة العثمانية بفرض النظام المركزي مدة ما بعد عام 1841م، والصراعات الداخلية التي بدأت في فلسطين بعد عام 1841م، بعد الحكم المصري للبلاد، التصدي للهجرة الصهيونية، وحركات التغلغل الأجنبي.

والتشكيلات الإدارية في القدس كانت كالآتي:

- من العام 1516م إلى العام 1841م، سميت سنجق القدس، وكانت تتألف من مقاطعات الخليل، وجبال القدس.
- من العام 1841م إلى العام 1864م، سميت ولاية القدس الشريف، وكانت تتألف من كافة مقاطعات وسط فلسطين، ومقاطعات جنوب فلسطين، أي لواء القدس، ولواء نابلس، ولواء جنين، ولواء الخليل، ولواء غزة.
- من العام 1864م إلى العام 1874ن، سميت متصرفية القدس، وكانت تتألف من مقاطعات جنوب فلسطين ووسطها، لكن في العام 1869م، انفصل عنها لواء نابلس، ولواء جنين.
- من العام 1874م إلى العام 1918م، سميت متصرفية مستقلة، حيث أصبحت القدس مستقلة، وذلك بعد انفصال ولايات الشام، وبعد العام 1918م، كانت بداية التغلغل الأجنبي، ورحيل الدولة العثمانية.

قدوم الحملة المصرية إلى بلاد الشام في العام 1831م

قاد الحملة المصرية إلى بلاد الشام محمد علي باشا، حيث وضع جميع ولايات الشام تحت إشراف حكمدار إيالات بر الشام، وبتلك السيطرة، انقطعت أخبار وتبعية مدينة القدس عن إسطنبول، وكانت أسباب الحملة تتلخص بعدد من العوامل أهمها: ضم ولايات بلاد الشام إلى حكمه في ولايات مصر، وذلك لإقامة دولة كبرى، استغلال الموارد البشرية، والموارد الطبيعية المتواجدة في بلاد الشام، وتعويض الخسائر التي وقعت في مصر بسبب الحروب مع السلطان، وإرجاع كافة الجنود الذين هربوا من الخدمة العسكرية، وزيادة قوة الجيش المصري.

لكن بعد ثلاث سنوات من الحكم المصري على فلسطين، أي عام 1834م، انتفضت مدينة القدس بثورة كبيرة جدًّا، والتي من أسبابها: فرض الضرائب الباهظة جدًّا على السكان، وإلغاء كافة الامتيازات التي تمتع بها أصحاب الزعامة المحلية، وإجبار جميع السكان على تسليم الأسلحة، وفرض بند التجنيد الإجباري في الخدمة العسكرية، وفتح أرض فلسطين أمام الامتيازات الأجنبية.

حياة السكان أيام الحكم العثماني

بلغ عدد سكان مدينة القدس في بداية الحكم العثماني 16.000 ألف نسمة، لكن عدد السكان كان في تذبذب مستمر، وذلك بسبب انتشار الأمراض بين السكان كمرض الطاعون، والسل، والكوليرا، وتتابع الكوارث الطبيعية كالجفاف، وزلازل، وغزو الجراد، وتراكم الثلوج، وعدم الاستقرار والأمن في المدينة، الذي أدى إلى نزوح الكثير من السكان، وعدم توفر الخدمات الطبية لكافة السكان، أما حياتهم الاقتصادية فكانت تعتمد على كل من: القطاع الزراعي، وتربية الحيوانات، والقطاع التجاري، والحرف المهنية، وقطاع الوظائف والخدمات.

وفي مجال التعليم، كان التعليم أيام الحكم العثماني يسير وفق عمل المؤسسات التعليمية التي بنيت في العصر الأيوبي، والعصر المملوكي، كما انتشرت الحركة العلمية في القدس، وذلك بسبب مكانة القدس الدينية، التي كانت محطة لالتقاء العلماء فيها من كافة دول العالم الإسلامي، وتسامح الدولة العثمانية مع كافة المذاهب الدينية، بالرغم من أن المذهب الرسمي في المدينة كان يتبع المذهب الحنفي، وتنافس وتحدي الولاة على دعم التعليم، وحرص عائلات المدينة في الحفاظ على امتيازاتها المعنوية، والمادية، وفي القرن الثالث من حكم العثمانيين، أصبحت مدينة القدس رائدة في النهضة التعليمية، وذلك يرجع إلى امتلاء المدينة بالمكتبات، والمخطوطات، وصدور قانون المعارف الذي ينظم التعليم في المدينة، ودخول أدوات القرطاسية، والمطابع، والتنافس الأجنبي في إنشاء المدارس التبشيرية وفتحها، وتشييد الجامعات العثمانية، والأجنبية.

التغلغل الأجنبي والهجرة اليهودية

في القرن الرابع والأخير من الحكم العثماني، مع الحكم المصري للبلاد، واضطرابه، واجهت فلسطين الهجرة اليهودية، والتغلغل الأجنبي في أرضها، حيث وضعت الحركة الصهيونية الإسرائيلية قدمها لأول مرة في فلسطين في العام 1854م، عندما امتلكت قطعة من الأرض بمرسوم سلطاني عثماني بشرائها، وذلك بحجة تشييد مستشفى لعلاج مرض الجذام، لكن نية الصهيونية كانت هي بناء مستوطنة لتأوي كافة المهاجرين اليهود، وبهذا بدأت نواه الاحتلال تكبر مع تقدم السنوات، وبالرغم من جهود السلطان عبدالحميد التي ظهرت في منع انتقال وبيع الأراضي لليهود، والحد من هجرتهم، ومنعهم دخول مدينة القدس، إلا أن كل جهوده لم تكلل بالنجاح.

من أعلام الفكر الإسلامي

العلامة المحدث الشيخ أحمد محمد شاكر 1309-1377هـ



صبري بن سلامة شاهين

الرياض

شمس الأئمة أبو الأشبال الشيخ أحمد بن محمد شاكر ابن أحمد بن عبد القادر من آل أبي علياء، ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وأصله من مديرية جرجا محافظة سوهاج بصعيد مصر، ولد بعد فجر يوم الجمعة 29 جمادى الآخرة سنة 1309هـ الموافق 29 من يناير سنة 1892م، وكان مولده بدرب الإنسية قسم الدرب الأحمر بالقاهرة.

ويعد الشيخ أحمد شاكر من أئمة الحديث في العصر الحديث، درس العلوم الإسلامية، وبرع في كثير منها، فهو فقيه ومحقق وأديب وناقد، لكنه برز في علم الحديث حتى انتهت إليه رئاسة أهل الحديث في عصره.

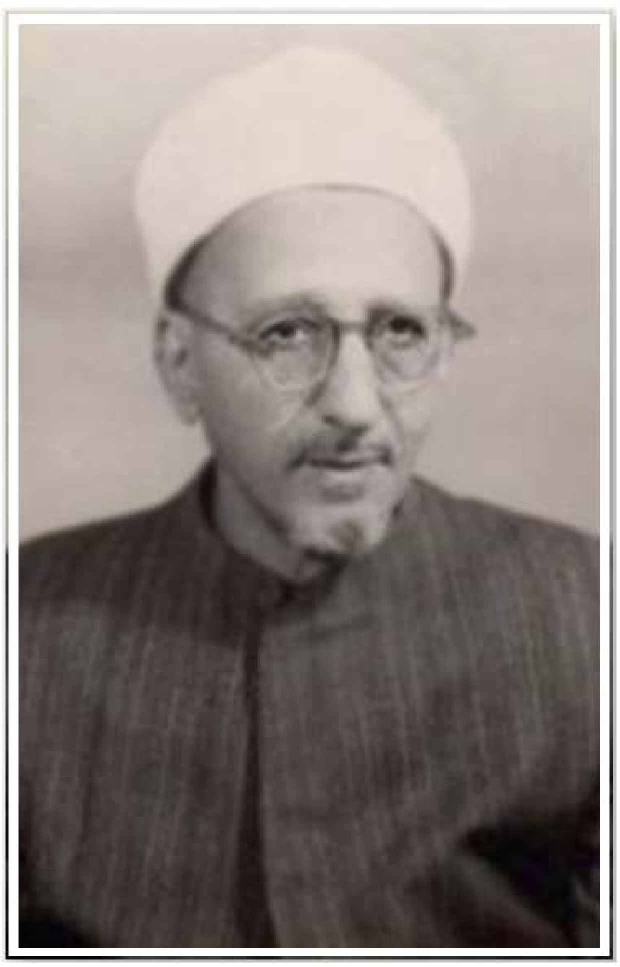
أما والده: فهو الإمام العلامة الشيخ: محمد شاكر، من علماء الأزهر النابغين، عمل أمينًا للفتوى ثم وكيلاً للأزهر، ولما عُيّن والده قاضيًا بقضاء السودان 1900م أخذه معه، وأدخله كلية غوردون، فبقي بها حتى رجع إلى الإسكندرية سنة 1904م، فالتحق بمعهد الإسكندرية، وفي سنة 1909م عين والده وكيلاً لمشيخة الأزهر الشريف، فالتحق أحمد شاكر بالأزهر، واتصل بعلمائه وأدباء القاهرة.

ثم بدأ يتنقل بين المكتبات، ويستفيد من العلماء، ويكثر من المطالعة، وقد حاز على الشهادة العالمية من الأزهر سنة 1917م، وعمل في التدريس لمدة أربعة أشهر فقط، ثم عمل في سلك القضاء، حتى أحيل على التقاعد سنة 1951م.

ولم ينقطع خلال مدة اشتغاله بالقضاء عن المطالعة والتصنيف، بل إنه أثرى المكتبة الإسلامية بأبحاثه القيمة وتحقيقه لأمهات كتب التراث، في علوم الشريعة وعلوم اللغة العربية وآدابها.

فلقد تربى الشيخ أحمد شاكر في بيئة علمية ، فوالده وكيل الأزهر ،وجده لأمه العالم الجليل هارون عبد الرزاق؛ بالإضافة إلى وجوده في الأزهر فأتيحت له الفرصة أن ينتفع من روافد العلم والعلماء.

فتلقى معارف العربية والشريعة الإسلامية على أيدي ثلة من كبار العلماء، منهم: والده، وكان أعظم الناس أثرًا في حياته، والشيخ عبد السلام الفقي، وقد تعلم منه كتب الأدب واللغة والشعر، والشيخ محمود أبو دقيقة، وتعلم منه الفقه وأصوله، وعلامة الشام الشيخ جمال الدين القاسمي، وعلامة المغرب ومحدثها الشيخ عبد الله بن إدريس السنوسي، وقد أجازه برواية صحيح البخاري وبقية الكتب الستة، والشيخ طاهر الجزائري من كبار علماء الشام، والعلامة محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار، وغيرهم من جهابذة العلم.



ولقد عاش الشيخ أحمد شاكر في حقبة اضطربت بكثرة الأحداث وتواليها، وكان وضع الدول الإسلامية مزريًا، وتحت نير الاستعمار الإنجليزي والفرنسي، وأدى خور المسلمين وعجز معظم العلماء عن القيام بواجبهم، إلى الشعور بالانهزامية والدونية، فعاشوا في ذلة ومهانة وصغار أمام هجمات الصليبيين وتلامذتهم من المستشرقين والملفقين، الذين أشربوا حب المستعمر في قلوبهم، وتسلطوا فكريًا على عقول العامة والدهماء، وطعنوا في الدين، واعتدوا على ثوابت الشريعة وقواعد الملة، وكان جل تركيزهم على مصر المركز العلمي للعالم الإسلامي، وفي ظل هذه الهجمات والمسلمون في نوم وسبات عميق، فطفق اليهود يخططون لاحتلال فلسطين، وأقصوا أحكام الشريعة الإسلامية عن حياة الناس، وبفعل التخطيط الصليبي الماكر ضد هذه الأمة، صار التدين والتمسك بدين الإسلام وصمة عار وتخلفًا ورجعية في حس كثير من المسلمين الذين أصابتهم الهزيمة النفسية، والشعور بالدونية والتبعية.

وأمام هذه الموجات المتلاطمة والطعنات الجارفة التي هبت بالفساد وقمعت الصالحين من العباد، نصبوا لذلك رايات في كل هضبة وواد، فانبرى لهم الأسد الجسور الشيخ المقدام، متسلحًا بسلاح العقيدة التي لا تقهر، ومتوشحًا بالسنة التي لا تقبل التنازل، أو تداهن إرضاء للطواغيت، فالشيخ ينطلق من عقيدة صحيحة سليمة لا تشوبها بدعة إرجاء أو تتقفه صولة خارجي، فالشيخ كان على منوال السلف الصالح: دينًا وخلقًا وسمتًا وتعبدًا.

وإن الصمود والمواجهة أمام هذه العواصف الهوجاء والفتن التي ترقق بعضها بعضًا لا يقوى عليها من الرجال إلا العظماء، المؤيدون من رب الأرض والسماء، وقد قيل: لكل زمان رجال، فقد هيأ الله سبحانه وتعالى الشيخ أحمد أبا الأشبال ليذود عن حياض هذه الأمة، ويدافع عن شرفها وعزتها، ويهدم صروح الغزو الفكري الذي بدأ يدب دبيبه بين جنبات الأمة الإسلامية، وطفق ينخر في جسدها، ولا يكون ذلك إلا بالتمسك بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فانبرى الشيخ للتصدي لهذه الأفكار الهدامة، وهو مستمسك بحبل الله المتين، ملتزم بعقيدة السلف الصالح، مقتف آثار القرون الثلاثة الفاضلة، فتئ يقارع الأعداء وتلامذته من المستشرقين والملفقين، دون أن تلين له قناة، أو تخور له عزيمة، أو تضعف له إرادة، مع قلة من أمثاله من الرجال.

وبارك الله في قلمه، فصار يدبج ببراعة مقالات بديعة وتعليقات مفيدة وردود نفيسة على كل من يخالف دين الله ويدعو للتحرر والانفلات من الدين بدعوى التمدن

> ”فالشيخ كان على منوال السلف الصالح: دينًا وخلقًا وسمتًا وتعبدًا، وإن الصمود والمواجهة أمام هذه العواصف الهوجاء والفتن التي ترقق بعضها بعضًا لا يقوى عليها من الرجال إلا العظماء“

> ”كانت آيات الحاكمية وقضية الولاء والبراء، ومسألة تحرر المرأة، من أهم القضايا التي أخذت حيزًا كبيرًا من فكر الشيخ واهتمامه، ولم يحجبه خوف اتهامه بانتحاله فكر الخوارج أن أعلن تكفيره لمن لا يحكم بشريعة الله“

والتقدم، الذي خدعوا به كثيرًا من المتعلمين، فضلاً عن الرعاع، وكانت آيات الحاكمية وقضية الولاء والبراء، ومسألة تحرر المرأة، من أهم القضايا التي أخذت حيزًا كبيرًا من فكر الشيخ واهتمامه، ولم يحجبه خوف اتهامه بانتحاله فكر الخوارج أن أعلن تكفيره لمن لا يحكم بشريعة الله، وتشنيعه على الذين يرتمون في أحضان أعداء الله من اليهود والنصارى الداعين لتقليدهم الأعمى تحت مسمى التحضر والتقدم، وهو في الحقيقة تأخر وانهزامية أمام بريق الحضارة الاستعمارية المقيتة، وما زالت تعليقاته إلى الآن مصدرًا مهمًّا لمن جاء بعده من طلبة العلم والعلماء الذين فتح الله أعينهم وبصائرهم، وكتاب (كلمة الحق) وتعليقات الشيخ على تفسير الطبري واختصاره لتفسير ابن كثير (عمدة التفسير) وحواشيه على مسند الإمام أحمد كلها شاهدة على ما أقول، ليس من سمع كمن رأى وقرأ، لذا أوصي قارئ مقالي هذا أن يكلف نفسه عناء الوقوف على هذه التحف والذخائر والنفائس التي قلما يجدها في موضع آخر.

إن الشيخ أحمد قد متعه الله بمقدرة على البيان والفصاحة، التي كانت سلاحه في دحر الباطل والدفاع عن هذا الدين الحنيف، وتصديه للمبتدعين والمشعوذين والمستشرقين وغيرهم من أعداء الملة والدين. وإن لم يقدر قارئ مقالتي على تتبع كل ما قاله الشيخ، فلا أقل من أن ينظر في ثلاثة مقالات، هي: (أيتها الأمم المستعبدة)، (بيان إلى الأمة المصرية خاصة وإلى الأمة العربية والإسلامية عامة)، (تحية المؤتمر العربي في قضية فلسطين).

سترى أيها القارئ الأريب مدى الحرقة التي جعلت هذا الإمام أن يقف هذه المواقف الحازمة، وكم كان بغضه لأعداء الله، وحرصه على تحريض الأمة الإسلامية لمناهضة المستعمر ومجاهدة العدو، الذي غزا ديار الإسلام، فنهب خيرات البلاد، ونشر فيها الفساد.

ومن مواقف الشيخ أحمد شاكر الفذة والنادرة والقوية في الدفاع عن جناب النبي صلى الله عليه وسلم، ما حكاه عن موقف لوالده في مقال بعنوان (جهل وسوء أدب، ثم إصرار وقحة وغرور) خاطب فيه الأستاذ الصحفي محمد زكي عبدالقادر، صاحب عمود (نحو النور) في جريدة الأخبار المصرية، وقد كنت وأنا طالب في الإعداي والثانوي معجبًا بكتابته جدًّا، وخاصة بعد قراءة روايته (أجساد من تراب) وأنا في ريعان الشباب.

هذا الكاتب كتب مقالاً تعرض فيه لمقام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، والشيخ أحمد شاكر ظن به خيرًا، فلم يتهمه بتعمد التعرض لجناب النبي صلى الله عليه وسلم، وعزا خطأه ذلك إلى عدم القصد، وزلة القلم، فنصحه ودعاه للتوبة، ولكن الكاتب أخذته العزة بالإثم، فلم يتب ولم يعتذر، بل تمادى في غيه وضلاله، ونفخ في روحه الغرور بالباطل والكبرياء الكاذبة بأنه رجل من رجال القانون وكاتب معروف، على حد تعبير الشيخ شاكر نفسه.

وطفق الشيخ شاكر يلقن هذا الصحفي درسًا في ألف باء الإسلام وكيفية قبول النصح من الناصح، أيا كان سنه أو مكانته أو وضعه، ولكن لم يأخذ بالنصيحة، فتكبر وعتا، ونفخ فيه شيطانه، ألا يقبل من أحد نصحًا، بل راح المسكين يخوض في وحل التكبر والغطرسة، فخاطبه الشيخ شاكر معاتبًا إياه، ألا يكون قبل النصيحة، ثم عرج الشيخ على بيان حكم من شتم الرسول صلى الله عليه وسلم، وبين له أن حكمه أنه مرتد، ويجب قتله، وأحاله على قراءة الكتاب الماتع الرائع (الصارم المسلول على شاتم الرسول) لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، ثم حكى له قصة تشبه إلى حد كبير قصته فيما وقع فيه من التعريض في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقعت القصة مع أحد الفصحاء البلغاء الخطباء عندما أراد أن يمتدح السلطان حسين رحمه الله الذي أكرم طه حسين بهديه قيمة المغزى والمعنى، فكان من الخطيب المفوه أن قال في أثناء خطبته: جاءه الأعمى، فما عبس في وجهه وما تولى. فيفهم من قوله من طرف خفي: أن السلطان حسين في تصرفه ذاك مع طه حسين أفضل من تصرف الرسول مع عبدالله بن أم مكتوم الأعمى الذي جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما كان يخاطب القادة من كفار قريش، عسى أن يكون في إسلامهم خير ومنفعة لدين الله عز وجل، فعبس في وجه ذلك الأعمى، فعاتبه ربه بقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ٢﴾.

وكان من شهود هذه الواقعة والده الشيخ محمد شاكر، فوقف من هذا الخطيب الموقف الشرعي، الذي يمليه عليه دينه، ودفعته غيرته الدينية أن يزود عن عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم، وينكر هذا المنكر الشنيع الذي وقع فيه ذاك الخطيب، حتى وإن كان دون قصد منه أو تعمد الإساءة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقام في المصلين يحثهم على إعادة الصلاة، لأن صلاتهم خلف هذا الإمام باطلة، ذلك بأن الخطيب كفر بما شتم رسول الله صلى الله عليه وسلم تعريضًا لا تصريحًا.

ووشى كثير من المتملقين بذاك الخطيب لكي يرفع دعوى جنحة للقضاء في حق الوالد الشيخ محمد شاكر بتهمة سبه علنًا، وأوزعه إلى ذلك قربه من أحد المستشارين الكبار، حيث كان متصلاً به اتصال التابع بالمتبوع، ولم يعبأ الوالد بكل ذلك، فهو قد قام بواجب شرعي يلزمه أن يؤديه طاعة لله وقربة له سبحانه، وغيرة على دينه، ودفاعًا عن رسوله، وإن كلفه ما كلفه، ولكن شاء الله أن تطوى القضية دون النظر فيها من قبل الحكومة خشية ما يكون من وراء هذه القضية من أحداث وأخطار، فيقول الشيخ أحمد شاكر: ولكن الله لم يدع لهذا المجرم جرمه في الدنيا، قبل أن يجزيه جزاءه في الأخرى، فأقسم بالله لقد رأيته بعيني رأسي بعد بضع سنين، وبعد أن كان متعاليًا منتفخًا معتزًّا بمن لاذ بهم من العظماء والكبراء، رأيته ذليلا مهينًا، خادمًا على باب مسجد من مساجد القاهرة، يتلقى نعال المصلين يحفظها، في ذلة وصغار، حتى لقد خجلت أن يراني، وأنا أعرفه وهو يعرفني، لا شفقة عليه، فما كان موضعًا للشفقة، ولا شماتة فيه، فالرجل النبيل يسمو على الشماتة، لكن لما رأيت من عبرة وموعظة.

ثم درج الشيخ أحمد شاكر رحمه الله على تذكيره للصحفي محمد زكي عبدالقادر بالنصح المحض، خشية أن يريه الله آيته في نفسه.

فهذه طبيعة الشيخ أحمد شاكر لا يجامل أحدًا مهما علا قدره، ولا يداهن في إحقاق الحق ودمغ الباطل، مهما كان ومع من كان.

أما تراثه العلمي:

فلقد ترك الشيخ أبو الأشبال رحمه الله إرثًا علميًّا نافعًا وقيمًا ومفيدًا للعلماء وطلبة العلم، فما زالت مؤلفاته وتحقيقاته وردًا عذبًا ومنهلاً لرواد العلم والمعرفة في علوم الشريعة وعلوم العربية وآدابها، ومنها:

المسند للإمام أحمد، وعمدة التفسير اختصار تفسير الحافظ ابن كثير، وسنن الترمذي بالاشترك مع عبدالباقي وعطوة. وتفسير الطبري، تحقيق أخيه: محمود محمد شاكر، مراجعة وتخريج أحمد شاكر. وكتاب الرسالة للشافعي. وإحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام لابن دقيق العيد. وألفية الحديث ويليها شرحها فتح المغيث للحافظ العراقي. وشارك في إخراج المفضليات للمفضل الضبي، والأصمعيات للأصمعي.

وله أيضًا :تحقيق لباب الآداب لأسامة بن منقذ. والجزء الأول من مسند ابن حبان. وكتاب الإحكام لابن حزم الظاهري في أصول الفقه ، وجزءين من كتاب المحلى. وكتاب العمدة في الأحكام للحافظ عبدالغني المقدسي. وكتاب جماع العلم للشافعي. وكتاب المعرب للجواليقي في اللغة.

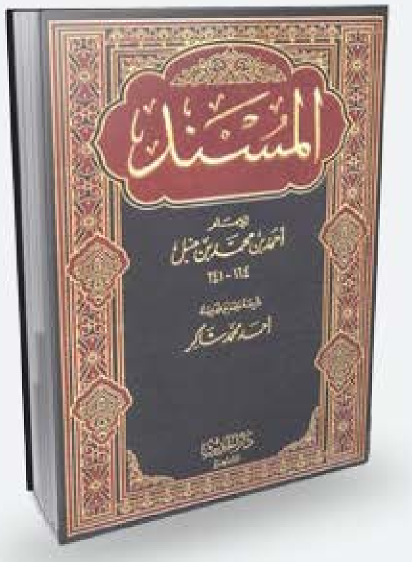
كما ساهم في تحقيق كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت مع عبدالسلام هارون. وكتاب الخراج ليحيى بن آدم. وله تحقيق الروضة الندية شرح الدرر البهية للعلامة صديق حسن خان. والكامل في اللغة والأدب لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد. وكلمة الفصل في قتل مدمني الخمر. وتصحيح الكتب وصنع الفهارس المعجمة وكيفية ضبط الكتاب وسبق المسلمين الإفرنج في ذلك. والشعر والشعراء، لابن قتيبة. وله أيضًا: الكتاب والسنة يجب أن يكونا مصدر القوانين. وجمعت مقالاته في كتاب: جمهرة مقالات العلامة أحمد شاكر.

من أقواله في الحكم بغير ما أنزل الله:

القرآن مملوء بأحكام وقواعد جلية، في المسائل المدنية والتجارية، وأحكام الحرب والسلم، وأحكام القتال

والغنائم والأسرى، وبنصوص صريحة في الحدود والقصاص، فمن زعم أنه دين عبادة فقط فقد أنكر كل هذا، وأعظم على الله الفرية، وظن أن لشخص كائنًا من كان، أو لهيئة كائنة من كانت، أن تنسخ ما أوجب الله من طاعته والعمل بأحكامه، وما قال ذلك مسلم ولا يقوله، ومن قاله فقد خرج عن الإسلام جملة ورفضه كله، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم.

فانظر إلى ما يفعل المسلمون- بل المنتسبون للإسلام- في عصرنا من التشبه بالكفار في كل شيء، حتى ليريد الوقحاء من الكتاب أن يدخلوا شعائرهم أو ما يشبهها في عباداتنا، وحتى ضربوا على أنفسهم الذلة والصغار باصطناع تشريع أوربا الوثنية الملحدة في قوانينهم الوضعية المجرمة الكافرة، أعاذنا الله من الفتن، وأعاد للمسلمين عقولهم ودينهم.



من أقواله في الموالاة الكفرية:

وقال أحمد شاكر رحمه الله في كتاب كلمة الحق: أما التعاون مع الإنجليز بأي نوع من أنواع التعاون، قلّ أو كثر، فهو الردّة الجامحة، والكفر الصّراح، لا يقبل فيه اعتذار، ولا ينفع معه تأول، ولا ينجي من حكمه عصبية حمقاء، ولا سياسة خرقاء، ولا مجاملة هي النفاق، سواء أكان ذلك من أفراد أو حكومات أو زعماء، كلهم في الكفر والردة سواء، إلا من جهل وأخطأ، ثم استدرك أمره فتاب وأخذ سبيل المؤمنين، فأولئك عسى الله أن يتوب عليهم، إن أخلصوا من قلوبهم لله لا للسياسة ولا للناس...

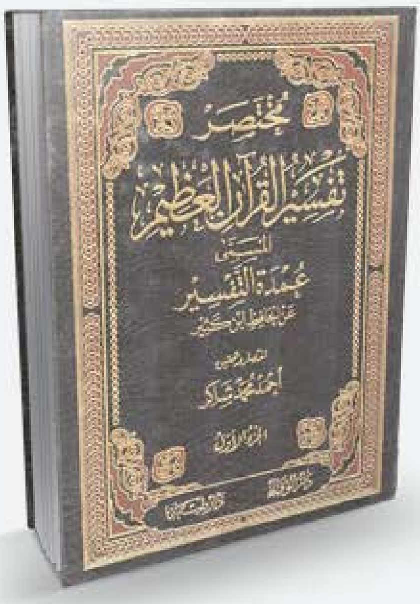
وقال: ولا يجوز لمسلم في أي بقعة من بقاع الأرض أن يتعاون معهم بأي نوع من أنواع التعاون، وإن التعاون معهم-أي الفرنسيين- حكمه حكم التعاون مع الإنجليز: الردة والخروج من الإسلام جملة، أيا كان لون المتعاون معهم أو نوعه أو جنسه.

أقوال أهل العلم فيه:

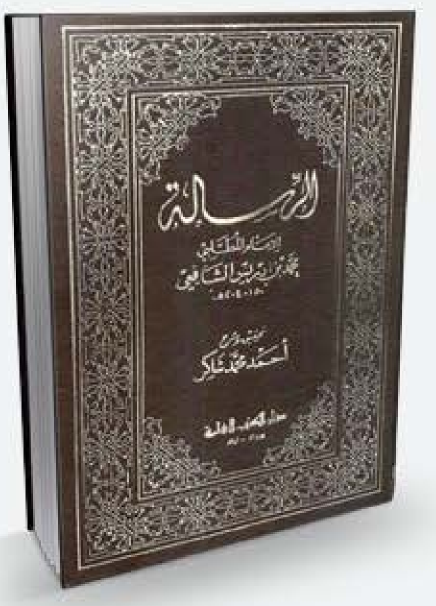
قال عنه المحقق الأستاذ عبدالسلام محمد هارون: إمامًا يَعْسر التعريف بفضله كل العُسْر، ويقصر الصنع عن الوفاء له كل الوفاء.

وقال عنه الشيخ محمود محمد شاكر: هو أحد الأفذاذ القلائل الذين درسوا الحديث النبوي في زماننا دراسة وافية، قائمة على الأصول التي اشتهر بها أئمة هذا العلم في القرون الأولى، وكان له اجتهاد عُرف به في جرح الرجال وتعديلهم، أفضى به إلى مخالفة القدماء والمحدثين، ونصر رأيه بالأدلة البينة، فصار له مذهب معروف بين المشتغلين بهذا العلم على قلتهم.

وقال عنه صديقه الشيخ محمد حامد الفقي: أحب صديقي الشيخ أحمد محمد شاكر السنة النبوية المطهرة منذ شبابه الأول، وشغف بفقهها والتعمق في علومها وروائعها ونفائس كتبها، وما زال يتعهد هذا الحب وينميه ويسقيه بما يتيح الله له من التوفيق وجمع كتب الحديث وعلومه، المخطوط منها والمطبوع في كل بلدان العالم، مما جعل مكتبته لا نظير لها مطلقًا عند عالم ممن أعرف، مع كثرة من أعرف في البلدان الإسلامية، وقد وهبه الله صبرًا دائبًا على الدرس، وحافظة قوية لا يند عنها شيء، وذوقًا رفيعًا في استكناه الآثار واعتبارها بالعقل والنقل، وإحاطة النظر وإعمال الفكر دون تقليد لأحد أو تقبُّل لرأي من سبق، وقد ساهم الأستاذ في إحياء كتب السنة مساهمة مشكورة، فنشر كثيرًا من كتبها نشرًا علميًّا ممتازًا، وكانت حياته حافلةً بالعلم والتحصيل خاصةً جهوده العظيمة في تحقيق وفهرسة كتب السنة.



وقال الشيخ ابن باز رحمه الله : أخي لقد كنت منذ أمد طويل مشتاقًا إلى مكاتبة فضيلتكم؛ للتعارف والتذاكر، والسلام عليكم، والاستفسار عن صحتكم، ومن لديكم من الأولاد والإخوان في الله، وإبداء ما أكنه لفضيلتكم من المحبة في الله، ولكن لم يقدر ذلك إلا هذا الوقت؛ لقلة الفراغ، وتزاحم الأشغال المتعلقة بالقضاء والتعليم، أحسن الله لي ولكم العاقبة آمين، وإني لأدعو الله كثيرًا لفضيلتكم على ما مَنَّ به عليكم من خدمة السنة، ونفع المسلمين، بإبراز المسند العظيم بهذا الوضع الجليل، الجامع بين فائدتين عظيمتين: إحداهما: إبقاء المسند على حاله، والثانية: بيان حال أسانيده، والتنبيه على ما هناك من غريب أو خطأ أو اختلاف نسخ مع ما انضم إلى ذلك من الأحاديث، وفهرستها بفهرس نافع واف بالمطلوب مريح للطلاب؛ فجزاكم الله عما فعلتم خيرًا، وضاعف لكم الأجر، وزادكم من العلم والبصيرة، وختم لي ولكم ولسائر المسلمين بالخاتمة الحسنة: إنه ولي التوفيق.



وأثنى عليه كثيرًا الشيخ الألباني رحمه الله في مواضع متعددة من كتبه، يذكره فيها بالعلامة والشيخ والأستاذ الفاضل والقاضي، وينقل عنه ما وافقه عليه، وإن كان خالفه في بعض التعليقات، خاصة فيما يتعلق ببعض الرجال والأسانيد والحكم على بعض الأحاديث غفر الله لهما ورحمهما ربهما.

توفي رحمه الله في السادسة بعد فجر يوم السبت الموافق 26 من ذي القعدة سنة 1377هـ، الموافق 14 من يونيه سنة 1958م ، فرحم الله هذا العالم المحقق النحرير، وبعث في هذه الأمة من يعوضها عن فقده، ويسد مسده، ويقوم بإتمام ما ابتدأه وانتهجه.

قراءة في كتاب:

«الاستشراق وسحر حضارة الشرق» للدكتورة إيناس حسني



محمد سيف الإسلام بوفلاقة

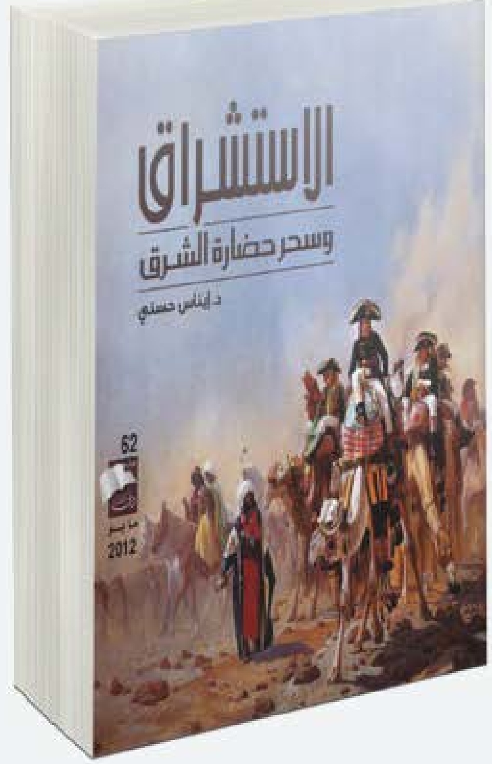
الجزائر

حظي الخطاب الاستشراقي باهتمام واسع من لدن مختلف الباحثين والدارسين العرب، وذلك باعتباره ظاهرة ثقافية غربية، تتصل بجملة من الاهتمامات العلمية، التي تركز على دراسة الشرق الإسلامي والعربي، وتنكب على البحث في جميع ما يتعلق به من تاريخ، ودين، وأوضاع اجتماعية ومعيشية، ولغة، وأرض، وحضارة، فهو توجه يركز بشكل رئيسي على الحياة الحضارية للأمم الشرقية، ولا سيما منها حضارة الإسلام والعرب، وكما يرى الدكتور عمر فروخ فالاستشراق هو اهتمام علماء الغرب بعلوم المسلمين وتاريخهم ولغاتهم وآدابهم وعلومهم وعاداتهم ومعتقداتهم وأساطيرهم.

ومن يطلع على الكثير من الدراسات والأبحاث التي أنجزت عن الاستشراق وقضاياه في العقود الأخيرة في الوطن العربي، يجد أن هناك جانبًا من جوانب الخطاب الاستشراقي، لقي صدودًا وإعراضًا كبيرًا من لدن الكثير من الباحثة العرب، وهو جانب تجليات الاستشراق في ميدان التصوير والرسم، ومن هذا المنطلق ندرك أهمية كتاب الباحثة المصرية الدكتورة إيناس حسني الموسوم بـ«الاستشراق وسحر حضارة الشرق»، فقد كرس المستشرقون فنهم لتصوير الشرق بكل ما فيه من طبيعة وعمران وبشر، وركزوا على الآثار والأزياء والعادات والتقاليد، ونمط الحياة الاجتماعية والطقوس الدينية، حينما أتوا رفقة بعثات دبلوماسية أو علمية أو آثارية وعسكرية، كما تذكر المؤلفة من خلال مقدمة الكتاب، وكما ترى فإن أكثر ما يلفت الانتباه في اللوحات الاستشراقية ذلك الميل إلى تصوير الحياة الشعبية بما فيها من مبالغات في موضوع الجواري والعبيد والسحرة والمشعوذين، وهذا يدل على افتتانهم بالشرق.

وتشير المؤلفة إلى أن الدراسات المتعلقة بالفنون الشرقية وإبداعات الفنانين المتأثرة بالشرق أصبحت جزءًا من مظلة هذا النشاط وفرعًا من تخصصاته، ولذلك تعد ظاهرة الاستشراق في الفن ذات ضرورة للبحث والنقد، حيث إنها قديمة في رحلتها، متنوعة في أشكالها فعالة التأثير في نتاجها الفني، واستدعت ضرورة البحث، وكشف النقاب عن الكثير من الجوانب السيكولوجية والاجتماعية والثقافية والسياسية التي انعكست بنسب متفاوتة على شكل و مضمون العمل الفني.

وتذكر الدكتورة إيناس حسني أن أهمية دراستها تتجلى في كشفها النقاب عن منهج الرؤية الفنية والعلمية لدى الدول المستشرقة، كما أن المدة الزمنية التي تركز عليها دراستها تكتسي أهمية بالغة، فهي حقبة القرن التاسع عشر، والتي تمثل مرحلة الدراسة الفنية الاستشراقية بشكل دقيق ومتخصص، وهي المدة التي عرفت ظهور مدرسة الاستشراق بخصائصها ومقوماتها الفنية، كما أن هذه المدرسة واكبت مدة حساسة من التاريخ القومي الذي يمثل نهضة مصر، وقضايا التراث الفني المفقود



سواء ذلك الذي زخرت به متاحف ومكتبات أوروبا، أو الذي اندثر بفعل تحديث مصر وتغيير ملامحها الشكلية، الذي تجلى في أعمال المصورين المستشرقين.

كما تؤكد المؤلفة على أن هذه الفترة «تميزت بغزارة إنتاج المصورين المستشرقين وتنوع أجناسهم وكثرة عددهم مما أعطى لشكل ظاهرة الاستشراق في ظل النهضة الأوروبية العلمية هذا الطابع المميز الجدير بالدراسة، خصوصًا أنه يتعلق بحقبة مهمة للتاريخ الفني تعد بدايات الفن الأوروبي الحديث والمصري المعاصر، ولقد أولى المصورون المستشرقون الفرنسيون والإنجليز قدرًا كبيرًا من الاهتمام بالشرق، وتميزوا به عن سائر المستشرقين الذين تعددت أجناسهم في ذلك الوقت» (ص:35).

وترى المؤلفة أنه برغم تعدد أغراض وأهداف الاستشراق الاستعمارية منها والدينية، إلا أنها لم تكن خالية أبدًا من الفائدة العلمية، حيث إن المستشرقين قاموا بجمع المخطوطات العربية والإسلامية وفهرستها، وحققوا العديد منها بأعلى المقاييس العلمية المتعارف عليها آنذاك ونشرها نشرًا علميًا خالصًا، وترجموا الآلاف من هذا التراث إلى اللغات العالمية، إضافة إلى توجيههم إلى الأخذ بالمناهج الحديثة في البحث والدراسة، وعرّفوا الآخرين بالحضارة والتراث العربي، كما قدموا الكثير من المنافع التي لا يمكن صرف النظر عنها.

وتصف الدكتورة إيناس حسني دراستها هذه بأنها تقوم على محورين، «أحدهما فني ذو محور رأسي، يتتبع خلالها تطور الشكل الفني في التصوير من حيث أسلوب التعبير وطريقة الأداء بامتداد ظاهرة الاستشراق. أما المحور الآخر فيناقش الجوانب المؤثرة والمرتبطة بالنتاج الفني، وهي تتعلق بالجانب السياسي والاجتماعي والبيئي والعلمي وعلم الآثار، ومن خلال هذين المحورين تحقق هذه الدراسة أهم أهدافها في تأكيد أهمية مصادر الرؤية الفنية في البيئة بشكل عام ومقوماتها الحضارية مما كان له من قيمة إبداعية في تصوير المستشرقين»، ولتسليط الأضواء على هذين المحورين قسمت دراستها إلى ثلاثة أبواب وسبعة فصول.

مفهوم الاستشراق ودوافعه وأثره على فن التصوير

ينقسم الباب الأول من الكتاب إلى فصلين.

في الفصل الأول من الكتاب توقفت الدكتورة إيناس حسني مع مفهوم الاستشراق، فرجعت إلى مصادر مختلفة، وذكرت في البدء المعنى اللغوي، ثم انتقلت إلى المعنى الاصطلاحي، إذ يرى البعض أن المقصود بالشرق ليس الشرق الجغرافي، وإنما الشرق المقترن بمعنى الشروق والضياء والنور والهداية.

كما عرضت المؤلفة مجموعة من الآراء المعاصرة في مفهوم الاستشراق، من أبرزها رأي المستشرقة آنا ماري شيمل التي ترى أن الاستشراق علم له أصوله وقواعده ومناهجه، وقد تعاملت معه على هذا الأساس، وبالنسبة للمفهوم العام للاستشراق فيمكن تعريفه – كما ترى المؤلفة – بأنه «أسلوب من الفكر قائم على تمييز وجودي (أنطولوجي)، ومعرفي (ابستمولوجي) بين الشرق والغرب، ويستخدم دراسات أكاديمية يقوم بها علماء من الغرب للإسلام والمسلمين من شتى الجوانب: عقيدة وشريعة وثقافة وحضارة وتاريخ ونظم وثروات وإمكانات.

”الدراسات المتعلقة بالفنون الشرقية وإبداعات الفنانين المتأثرة بالشرق أصبحت جزءًا من مظلة هذا النشاط وفرعًا من تخصصاته، ولذلك تعد ظاهرة الاستشراق في الفن ذات ضرورة للبحث والنقد، حيث إنها قديمة في رحلتها، متنوعة في أشكالها فعالة التأثير في نتاجها الفني“

”تؤكد المؤلفة على أن هذه الحقبة «تميزت بغزارة إنتاج المصورين المستشرقين وتنوع أجناسهم وكثرة عددهم مما أعطى لشكل ظاهرة الاستشراق في ظل النهضة الأوروبية العلمية هذا الطابع المميز الجدير بالدراسة، خصوصًا أنه يتعلق بحقبة مهمة للتاريخ الفني تعد بدايات الفن الأوروبي الحديث والمصري المعاصر، ولقد أولى المصورون المستشرقون الفرنسيون والإنجليز قدرًا كبيرًا من الاهتمام بالشرق وتميزوا به عن سائر المستشرقين الذين تعددت أجناسهم في ذلك الوقت“

سواء كانت لغة هذه الشعوب العربية أم غير العربية، كالتركية والفارسية والأوردية، وغيرها من اللغات، لأهداف متنوعة ومقاصد مختلفة» (ص:41).

وانتقلت المؤلفة إلى بحث الكلمة من أوجه مختلفة، فحددت المفهوم الجغرافي للاستشراق، والمفهوم الفلسفي، وعرضت مجموعة من الرؤى المقدمة من قبل بعض الفلاسفة المعاصرين، وفي الأخير توقفت مع المفهوم الفني، فأكدت على أن الدارس حينما ينظر إلى نشاط الاستشراق في الفن، لا بد من مراعاة الفرق بين معنيين، الأول منهما يقصد به (الفنون الشرقية)، وهي التي من إنتاج فناني الشرق أنفسهم، أو نتاج حضاراتهم الشرقية المتعاقبة على مر العصور، أما المعنى الثاني: فيقصد به (الفن الاستشراقي) أو (الاستشراق في الفن) الذي يختص به المستشرقون أو المستعربون سواء بإنتاجهم الفني أو بدراستهم المتعلقة بذلك الإنتاج المرتبط في الوقت نفسه بالفنون الشرقية، كدراسات تاريخ الفن أو علم الجمال وعلم الآثار.

وفيما يتعلق بأهمية تصوير المستشرقين في القرن التاسع عشر، فقد لمست الباحثة تلك الأهمية من عدة جوانب، من جانب الأهمية الفنية، كون ذلك الإنتاج شمل فنونًا متنوعة مثل التصوير الزيتي، والرسم، والحفر، وتمثلت الأهمية العلمية في أن الكثير من المجلدات الضخمة التي أخرجها بعض المصورين المستشرقين، ارتبطت بطابع التحقيق العلمي في موضوعات شرقية كثيرة من بينها علم الآثار، وعلم المصريات، ولما كانت هذه العلوم وظفت العمل الفني لتأكيد دلالة البحث العلمي، فقد أصبحت مرجعًا مهمًّا للدراسات الاستشراقية العالمية، وتظهر أهميتها التاريخية والقومية في أن الأعمال الاستشراقية تعد تسجيلاً أمينًا لحقبة تاريخية، في وقت لم تكن آلة التصوير قد استخدمت، مما أسبغ على تلك الأعمال قيمة وثائقية فريدة تتصل في جانب كبير منها بعلم الوثائق التاريخية، كما أن نشاط الاستشراق الفني قد ارتبط بالفنون الشرقية، والتراث الموروث الذي ذهب إلى أوروبا.

في ختام هذا الفصل تتبعت المؤلفة علاقة دوافع الاستشراق بالاستشراق الفني، وحصرت هذه العلاقة في:

- الدافع الديني: حيث أوجزت الباحثة مظاهر حركة الاستشراق الدينية من حيث تأثيرها على الاستشراق الفني من خلال هذه النقاط:

«1 - أدت حركة الاستشراق الديني، المتمثلة في نشاط الرهبان والدعوة للتبشير في الشرق على امتداد الحقبة التي تلت الحروب الصليبية، إلى انتقال المخطوطات المسيحية وفنونها إلى أوروبا، كما ساهمت حركة الحجاج المسيحيين في الشرق في التبادل التجاري لفنون المصنوعات الشرقية.

2 - تطلبت مراكز الاستشراق الديني من خلال كراسي اللغات الشرقية التي أنشأتها الكنيسة الاهتمام بتغذية هذه المراكز من حيث تشجيع شراء المخطوطات الشرقية وإعداد الدراسات عن فنون الشرق وأسفار الرحالة، حيث غدت مرجعًا مهمًّا لفناني أوروبا.

3 - اهتم المصورون في القرن التاسع عشر بدراسة المخطوطات الشرقية وشرائها، وقد بدا ذلك واضحًا على سبيل المثال في تجوال المصور الفرنسي (بريس دافين) في بلاد الشام وفلسطين قبل زيارته مصر، كما اهتم بذلك أيضًا إدوارد لين، حينما ألف كتابه الكبير (المصريون المحدثون عاداتهم وشمائلهم)» (ص:63).

أما الدافع الاستعماري فقد ارتبط بالدافع الديني بهدف تحقيق الأطماع الأوروبية، وقد تبدى للباحثة أن أهمية الدافع الاستعماري ظهرت بصورة عامة في أنه شكل تفاعلاً بين هذين المجتمعين من خلال حدثين عسكريين مهمين، وظفا الاستشراق لخدمة أهدافهما التوسعية الأوروبية في الشرق العربي، وهما:

«1 - الحروب الصليبية التي استمرت لقرنين من الزمان، اندمج خلالها المجتمع الشرقي والغربي، وتأثرت أوروبا بمعالم الحضارة العربية وفنونها إثر ذلك خلال العصور الوسطى.

2 - الحملة الفرنسية على الشرق العربي، وكانت ذات تأثير بالغ في اتساع مجال الاستشراق وتفاعل حركة الاستشراق الفني في مصر بصورة فعالة، تأثر بها الفن الأوروبي، وأثمرت ظهور مدرسة (الأورينتاليزم)، التي تعني فن تصوير المستشرقين» (ص:64). ويعد الباعث العلمي للاستشراق، من أهم دوافعه من حيث إيجابية منهجه وفاعلية تأثيره وكثرة إنتاجه.

المؤثرات الشرقية المبكرة في التصوير الأوروبي

كرست المؤلفة الفصل الثاني من الباب الأول للكتاب للحديث عن العوامل المؤثرة في الاستشراق الفني المبكر، إذ ترى المؤلفة أن ظهور دور الفن الإسلامي في الاستشراق الفني كان خلال مدة امتداد الحضارة الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط وإسبانيا، وقد ازداد نشاط الاستشراق المكثف على مصر خلال القرن التاسع عشر بصورة مباشرة، وتذهب الباحثة إلى أن الاستشراق الفني قد شكل من خلال الأندلس ميدانًا فسيحًا، نظرًا لما احتوته من فن عربي وإسلامي سواء فيما يتعلق بالفنون الكبرى التي تمثل فن العمارة، وكذلك الفنون الصغرى التي تمثل منتجات ومصنوعات الفنون التطبيقية، إضافة إلى فن تصوير المخطوطات.

وترجع أهمية الأندلس في ميدان الاستشراق الفني المبكر- كما ترى المؤلفة- إلى عاملين:

«أ. عامل زمني: حيث إنها مثلت التواجد الحضاري الإسلامي مدة زمنية طويلة من(711 - 1492م)، وهي مدة كافية للتأثير الفني، فضلاً عن أنها تميزت خلال تلك الحقبة بالاستقلال السياسي، الذي تحقق في ظله اندماج العرب والمسيحيين واليهود بصورة متفاعلة أثرت على النتاج الفني المشترك بين الشرق والغرب، ويعلق المؤرخون أن هذا التأثير لم ينقطع بفعل من حملوا تيار الحضارة العربية فيما بعد. أي بعد جلاء العرب عن إسبانيا، وما زالت حتى الآن تحتفظ بطابعها العربي الإسلامي، سواء في شكلها الفني أو تراثها الأدبي الموروث عن العرب والمسلمين».

«ب. عامل جغرافي: ويتمثل في ارتباط أوروبا الوثيق بإسبانيا بحكم موقعها الجغرافي، فمنذ العصور الوسطى سهل هذا الموقع المتاخم للإمبراطورية الرومانية المسيحية في الغرب من وصول المستعربين إلى شمالها. كذلك ساعدت هجرة طوائف اليهود من قشتالة إلى أوروبا على نقل تلك المؤثرات الفنية الشرقية معهم، هذا بجانب حركة الحجاج المسيحيين، الذين توافدوا على أماكنها المقدسة»، ويضاف إلى ذلك حركة الرحلات والبعثات بين الشرق والغرب، التي كان لها أثر عميق في نمو النشاط الاستشراقي ووصول مؤثراته الفنية الشرقية إلى الفن الأوروبي.

في مبحث مستقل تعرضت الدكتورة إيناس حسني إلى المؤثرات الفنية الشرقية في الفن المسيحي البيزنطي، وقد وصفتها بأنها «المؤثرات الفنية التي توارثها المصورون الأوروبيون عن الفن البيزنطي، والتي ارتبط الكثير منها بالشرق، بفعل ميلاد الديانة المسيحية في فلسطين وامتداد الإمبراطورية الرومانية فيما بعد في الشرق، وقد انتقلت هذه المؤثرات بما احتوته من عناصر الفن الآسيوي والهيلينستي إلى الفنون الأوروبية خلال العصور الوسطى، وعرفت بما يسمى بـ(الاصطلاحات التشكيلية)».

في المبحثين الأخيرين ناقشت المؤلفة موضوع «دور الحضارة الإسلامية في الفن الأوروبي»، و«ملامح المؤثرات الفنية الإسلامية في التصوير الأوروبي»، فلا يختلف اثنان في أن ملامح الحضارة العربية الإسلامية في شكلها الفني قد انعكست على الفنون الأوروبية، وهذا ما تجلى في فن المخطوطات المسيحية المصورة، ومدرسة تصوير البندقية التي تأسست في القرن الخامس عشر، كما ظهرت في بعض لوحات المصورين الأوروبيين في عصر النهضة، وتجلت في حقبة ما بعد عصر النهضة حتى القرن التاسع عشر.

أثر البيئة العربية والعمارة القديمة في أعمال المصورين المستشرقين

في الباب الثاني من الكتاب، الذي ينقسم إلى فصلين، تحدثت المؤلفة عن أثر البيئة على أعمال المصورين المستشرقين، فتوقفت مع المدرسة الفرنسية ممثلة في المصور جان ليوم جيروم (1824-1904م) فقد كان واحدًا من أنجح فناني مجموعة المستشرقين، وقد عُرف بكثرة ترحاله في الشرق الأدنى، وقد استمر شغفه بالرحلات الطويلة حتى قارب الثمانين من عمره، ورسوماته ذات صبغة تاريخية وأسطورية، وتشير المؤلفة

إلى أنه على الرغم من كثرة أسفاره إلى العديد من بلدان العالم، إلا أن القاهرة ومصر عمومًا ظلت هي معشوقته الأثيرة، وتذهب إلى أن أهمية إنتاجه الفني يكمن في أنه يمثل خصائص (مدرسة الاستشراق) في القرن التاسع عشر من حيث اتجاهاته الفنية، التي تميزت بالتسجيل الواقعي للشكل في إطار الدراسة الفنية الأكاديمية، وقد اتسم تأثير إنتاجه على الحركة الفنية الأوروبية آنذاك بالقوة، وانعكس على أعمال كثير من المصورين الذين ساروا على نهجه، كما تميز كذلك في فن التصوير الاستشراقي بالغزارة، وقدم حصيلة وافرة من المراحل التخطيطية، واللوحات الزيتية الفريدة.

أما المصور جون فريدريك لويس الذي ينتمي إلى المدرسة الإنجليزية، فقد تفاعل كغيره من المستشرقين مع الحياة المصرية، وتميز بقدرة التكيف، وتؤكد المؤلفة على أن أهميته لا ترجع لما أنتجه من حصيلة وافرة من التخطيطات الأولية واللوحات المتنوعة الأساليب فحسب، بل لما حققه من تأكيد كيان التصوير الاستشراقي وتأثيره في الحركة الفنية الأوروبية.

ويُعد المصور دافيد روبرتس من أبرز المصورين المستشرقين الذين ينتمون إلى المدرسة الإنجليزية في(الاستشراق)، وقد كان صاحب إنتاج غزير اتسم بالروعة والإتقان تناول في أكثره موضوعات العمارة الإسلامية والآثار الفرعونية المصرية، والمدة التي قضاها بالشرق هي التي جعلته أكثر التصاقًا بواقعه، ومكنته من أن ينتج فنًا نكتشف من خلاله عبق الشرق الذي جعل من (دافيد روبرتس) أسيرًا له على حد تعبير المؤلفة.

وأهمية إنتاجه تكمن في كونه أحد الفنانين الكلاسيكيين، ونظرًا لأنه مستشرق فني وعلمي، وقد قدم خلال هذا الإنتاج تسجيلاً شاملاً لرحلته في الشرق، كما سجل يومياته وملاحظاته عن طابع الحياة الشرقية، وقد اتسم إنتاجه الفني بالتنوع في الرسم، والتصوير، والصورة المحفورة (الحفر)، وقد أخرج مؤلفًا ضخمًا عن زيارته إلى مصر والشرق الأدنى وسمه بـ« الأراضي المقدسة ومصر والنوبة»، وهو ينقسم إلى ثلاثة مجلدات، وقد أحاط في هذا الكتاب إحاطة شاملة بالطابع الفني والاجتماعي لمدينة القاهرة.

وقد قدم باسكال كوست مجموعة من الدراسات الفنية الوافية حينما صور العمارة الإسلامية، وتؤكد المؤلفة على أن تفرد شخصيته في المعالجة التشكيلية لهذه الموضوعات أدى إلى إضافة جديدة كانت من أهم الترجمات للمنهج الفني الكلاسيكي، حيث ظهرت دقته في النقل والتقليد المثالي الذي انعكس من عقليته الهندسية، وقد التزم التسجيل الواقعي للشكل المعماري، ووظف صياغته الفنية لخدمة الغرض العلمي، والتزم بالقواعد الفنية القائمة على الخط الأكاديمي، والذي اتفق مع غايته العلمية في المنظور والظل والنور والألوان المحلية التي تتميز بها واقعية الشكل وخصائصه المكانية.

وقد لاحظت الدكتورة إيناس حسني أنه كان يبحث دائمًا عن سر جمال الفن الإسلامي، فتتعدد وتختلف زاوية التقاطه المنظر أو إعداده التصميم حسبما يبدو الشكل المراد دراسته في أجمل هيئة، وبالرغم من صعوبة الدراسة الفنية المعقدة للمقرنصات الإسلامية التي تجمل أعلى المدخل، فإنه يتفانى في إبرازها مستخدمًا الانعكاسات الضوئية وظلالها، حتى يشعرنا بأبعاد النحت الزخرفي الغائر والبارز.

الشرق وديلاكروا وفنانو الطليعة

يشتمل الباب الثالث من الكتاب على ثلاثة فصول، في الفصل الأول منه قدمت المؤلفة بحثًا وافيًا عن ديلاكروا، وتتبعت مسيرته بدقة، وذكرت أنه كان منذ بداية اشتغاله بالرسم مفتونًا بجموح ووحشية الحيوانات، ولطالما أثارت اهتمامه بشكل خاص الخيول وصراعاتها الدامية فيما بينها. وهو أمر رآه رأي العين في أثناء زيارته إلى شمال إفريقيا، حيث رسم العديد من اللوحات من وحي إقامته في المغرب صوّر فيها عدة مظاهر تجسد صراع الحيوانات بين بعضها البعض، وصراعها مع الإنسان، وقد ألهمت رسوماته عن الحيوانات والخيل خصوصًا، عددًا من الرسامين مثل الفنان الإنجليزي(جورج ستبس)، الذي رسم الخيل في عدد من لوحاته، ويرجع اهتمام ديلاكروا بالشرق إلى ما قبل زيارته إلى الشمال الإفريقي بمدة طويلة، إذ اشترك مع معظم معاصريه في الاهتمام بالشرق الذي أعادته الحملة الفرنسية إلى بؤرة الاهتمام، ولا سيما بعد نشر (فيفان دينون) كتابه عن مصر، كما ظهر كذلك كتاب (وصف مصر) الذي تميز بلوحاته الفريدة عن آثار مصر الفرعونية والإسلامية.

في الفصل الثاني تطرقت الدكتورة إيناس حسني إلى علاقة ديلاكروا بشمال إفريقيا، إذ كانت رحلته القصيرة إلى المغرب والجزائر من أشهر الأحداث الفنية في تاريخ فن القرن التاسع عشر، إذ لفتت نظر الفنانين الفرنسيين، وللمرة الأولى كانت الرحلة إلى شمال إفريقيا تعادل في الأهمية الرحلة التقليدية إلى إيطاليا. كما أنها ألهمت الفنانين بعض الصور التي تعد من أكثر اللوحات متعة وإثارة على الإطلاق.

وفي الفصل الأخير من الكتاب بينت المؤلفة رمزية ديلاكروا عند التأثيريين، فرأت أن ديلاكروا لم يكن رمزًا للفنان الثائر فقط، بل إنه نقل أفكاره عن اللون إلى الجيل الأصغر، حيث نقل إلى التأثيريين ما أخذه عن كونستابل، كما أضعف سيطرة آنجر على الجيل، بتركيزه على اللون وليس الخط، وتجنب الإعداد المتناهي في الدقة للفراغ والخطوط الخارجية الدقيقة المحكمة التي كانت معتادة في ذلك الوقت، من خلال استخدامه للضوء، وبذلك فقد مهّد ديلاكروا الطريق لتجارب التأثيريين.

> "وفيما يتعلق بأهمية تصوير المستشرقين في القرن التاسع عشر، فقد لمست الباحثة تلك الأهمية من عدة جوانب، من جانب الأهمية الفنية، كون ذلك الإنتاج شمل فنونًا متنوعة مثل التصوير الزيتي، والرسم، والحفر، وتمثلت الاهمية العلمية في أن الكثير من المجلدات الضخمة التي أخرجها بعض المصورين المستشرقين، ارتبطت بطابع التحقيق العلمي في موضوعات شرقية كثيرة من بينها علم الآثار، وعلم المصريات، ولما كانت هذه العلوم وظفت العمل الفني لتأكيد دلالة البحث العلمي، فقد أصبحت مرجعًا مهمًا للدراسات الاستشراقية العالمية، وتظهر أهميتها التاريخية والقومية في أن الأعمال الاستشراقية تعد تسجيلاً أمينًا لحقبة تاريخية، في وقت لم تكن آلة التصوير قد استخدمت"

> "ترى المؤلفة أن ظهور دور الفن الإسلامي في الاستشراق الفني كان خلال مدة امتداد الحضارة الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط وإسبانيا، وقد ازداد نشاط الاستشراق المكثف على مصر خلال القرن التاسع عشر بصورة مباشرة، وتذهب الباحثة إلى أن الاستشراق الفني قد شكل من خلال الأندلس ميدانًا فسيحًا، نظرًا لما احتوته من فن عربي وإسلامي"

الأبعاد القيمية في أدب الأطفال

(المجموعة القصصية أحلام العصافير لعبد الله لالي نموذجًا)

د. دليلة مكسح

أستاذة جامعية - جامعة الحاج لخضر - باتنة - الجزائر

أن تكتب للطفل وتنجز لأجله منجزًا ما، فأنت تسهم في بناء إنسان، وصقل شخصية، وتلوين ورقة بيضاء بألوان معينة، لذلك يُعد أدب الطفل من النوع الكتابي المهم والصعب في الآن نفسه، لما يحتاجه من خبرة، وتغلغل عميق في شؤون الطفولة قبل شؤون الكتابة، وليس جميع الكتاب بقادرين على الدخول في هذا المجال والنجاح فيه؛ لأن صنع الإنسان مهمة عظيمة، لذا من الجدير بمن يريد الخوض في هذا الشأن، أن يعتني بتزويد نفسه بمختلف المعارف الفكرية والنفسية والاجتماعية المتعلقة بالطفل، وأن يكون على دراية تامة بخصوصية العصر، والظروف التي يعيشها الأطفال الذين يريد الكتابة لهم، وأن يحمل في ذاته أهدافًا تربوية وتقويمية، يسعى من خلالها إلى تأسيس مجموعة خطوات، وآليات تعينه على تحقيق مبتغاه النبيل، وليس مجرد الكتابة دون ضوابط ومرجعيات أصيلة، لأن أدب الطفل يؤسس بأثره أجيالاً ويبني أممًا، ويحتاج لتحقيق ذلك مراسًا وخبرة.

يعد الأديب والناقد الجزائري عبد الله لالي من الكُتّاب الذين يشتغلون على الكتابة للطفل، بخاصة في جنس القصة، والمتتبع لمجموعته القصصية (أحلام العصافير) يكتشف حجم القيم التي تبرز أهدافه من الكتابة للطفل، ومستوى حسه بالمسؤولية تجاه هذا النوع من الكتابة، إذ يشتغل على العناية بجانبين مهمين، وهما الموضوع والشكل، ويسعى إلى استثمار خصوصية كل جانب من أجل تقديم قصة وافية، وشافية يمكنها القيام بأدوار عدة تربوية وتثقيفية وجمالية في الآن نفسه، تجعل عملية الكتابة رافدًا مهمًا لأي طفل، تصقل شخصيته، وتوجهه نحو السلوكيات التربوية الصالحة، وتثري رصيده المعرفي واللغوي، وتنمي فيه الحس الجمالي والإبداعي؛ فالقصة في عمقها عمل فني، ورسالته الأولى إثارة انبهار الطفل والترفيه عنه، وتثقيفه في الآن نفسه.[1]

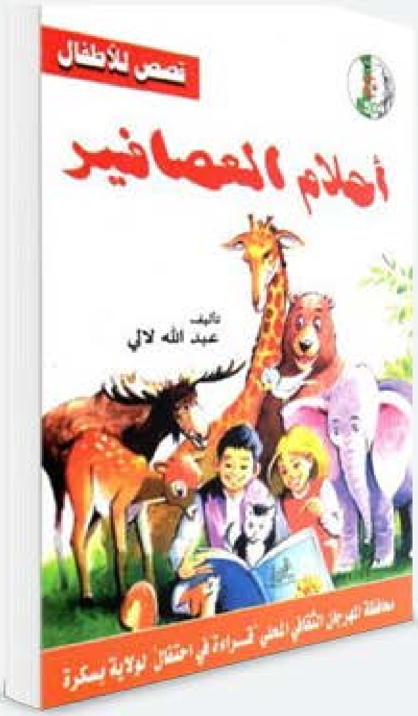
إن ما يلفت انتباه الدارس لنصوص (أحلام العصافير) ذلك الاشتغال الحثيث على مجموعة من الأبعاد القيمية

الموضوعية والفنية التي لا يمكن الاستغناء عنها، إذ إن غنى النص بالمعلومات والقيم يزود الطفل بالمعرفة، وينمي فكره، ويساعده على بناء شخصيته بناء سليمًا[2]. وتتنوع تلك الأبعاد بين قيم تاريخية ووطنية ودينية واجتماعية وإنسانية وجمالية، وحضورها في مجموعة قصصية واحدة يمكن عَدُّه ثروة متنقلة بين أيدي القراء الصغار، لما سترسخه من قيم سامية في نفوسهم، ولما ستصقل به شخصياتهم، فعلى مستوى القيم التاريخية والدينية اهتم الكاتب بغرس بعض الثوابت، التي تُمكّن الطفل من فهم ذاته، ومعرفة مكونات هويته، وخصوصية انتمائه، الذي يجمع بين البعد الأمازيغي والعربي، وصقل شخصيته في جانبها الأخلاقي والعقائدي، الذي يمنحها قيمًا تعينها على الخوض في غمار الحياة بشخصية متزنة، مثل قيم الوفاء والتضحية وتحمل المسؤولية والعدل والمحبة،... التي يؤطرها جميعًا البعد الديني الإسلامي، ويظهر ذلك بشكل وافر في قصة رحلة على ظهر تنين بأجزائها الأربعة[3]، وفي قصة كنز الكنوز[4] التي اشتغل فيها الكاتب على مقومات الهوية الجزائرية، وعلى مستوى القيم الوطنية، فإن الكاتب اعتنى عناية شديدة بالإحالة إلى قيمة الانتماء في جوانبه المحلية (الانتماء للجزائر)، والعالمية (الانتماء للعالم العربي والإسلامي)، وسعى إلى توجيه ذهن الطفل نحو ضرورة الحفاظ على مقومات هذا الانتماء بشقيه المذكورين، بخاصة في قصتي رحلة على ظهر تنين الجزئين الثالث، والرابع[5]. أما على مستوى القيم الاجتماعية والإنسانية، فقد اهتم الكاتب اهتمامًا شديدًا ببعض المبادئ التي تؤسس ثمرة العلاقات بين الإنسان والإنسان، وبينه وبين بقية الكائنات، التي يربطها رابط الانسجام والاحترام والتوافق، ففي قصتي العصفور الأخضر[6]، وانتقام الأسد[7]، وقطتي[8] يظهر جليًا ذلك الاحتكام إلى البعد التربوي، الذي ينمي سلوك الخير في الطفل حين يتعامل مع الطبيعة أو الإنسان، ويطبع في ذهنه معاني التلاحم والترابط الأسري، ما يعينه على التكيف مع حاجيات مجتمعه، ويمنحه الآليات المناسبة لمواجهة "المتغيرات الجديدة"[9]

ولقد صاحبَ مجموع القيم التي اعتنى بها الكاتب في تأسيس مضامين قصصه، عناية بارزة بالتقنيات التجريبية، التي تنم عن خبرة الكاتب بأصول الكتابة للطفل، وبأدوات التأثير فيه، ولفت انتباهه، وتمكينه من تذوق القصة، وترسيخها في ذهنه، وتشويقه وتحفيزه في الآن نفسه، ما يؤسس في نفسيته قيما جمالية وفنية متنوعة، ومن أهم تلك التقنيات:

- الاستعانة بلغة سهلة وبسيطة وواضحة، والتنويع بين أسلوبي الوصف والحوار، ما يجعل القصة الواحدة غنية بالحركة والأصوات الساردة للحكاية.
- الاعتماد على تقنية الحلم في سرد مجريات القصة الحاملة للبعد الخرافي، ما يُخرج الطفل من قيد الخرافة، الذي يجعله غير قادر على التفرقة بين حدود الخيال وحدود الواقع، إلى فسحة الحلم الذي يُمكّنه من فهم الموضوع والأفكار دون تشويش، وقد برزت هذه التقنية في قصة رحلة على ظهر تنين الجزء الأول[10]، لتكون وسيلة إقناع للطفل، وتوصل له الفكرة دون جعله يؤمن بالخرافة.
- التقليل من الإرشاد المباشر الذي قد يُشعر الطفل بالملل، وبدلاً من ذلك يستعين الكاتب بتقنيات أخرى كالمحاورة مع شخصية معينة، أو مصاحبة حيوان للطفل، مع الاهتمام بجعل الشخصيات الرئيسة أطفالاً، ما يمكن من إيصال المحتوى دون تقريرية.
- استثمار عنصر الراوي، وذلك من خلال التنويع في الشخصيات الراوية للحكايات، كان من أهمها عنصر الجدة الذي يحبب للطفل الحكاية، ويثير في نفسيته أهمية وقيمة وجود الجدة في حياته، ودورها في تمتين العلاقات الأسرية، وقد ظهر ذلك في قصة انتقام الأسد.[11]
- العناية بالتسميات ومنحها مدلولات خاصة، سعى الكاتب إلى ترسيخها في ذهن الطفل حتى إذا صادفها لاحقًا، تذكر ما قرأه عنها مثل ميمونة التي رمز لها بمعاني اليُمن والخير، وتيهنان التي ضمنها معاني الخير، ويعرب، ومازيغ، اللذين منحهما معنى التعاون والتآزر.
- الاهتمام بتقنية السؤال الذي يحفز خيال الطفل، وينمي فيه الحس المعرفي والعلمي، ويزرع فيه الثقة بالنفس.

إن نجاح الكتابة للطفل هو رهين الاشتغال على أهمية الحكاية المسرودة للطفل في قيمتها الموضوعية من جهة، وفي الأدوات المستخدمة لإيصالها، وترسيخها في ذهنه من جهة، وإن كان الكاتب عبد الله لالي قد نجح في تأسيس مجموعته القصصية على المقومات التي تحتاجها الكتابة للأطفال، إلا أن عنصرًا رئيسيًا تم إهماله، وهو العنصر الأنثوي في القصة، إذ تغيب في مجموع الشخوص الرئيسة فئة البنات، وتغيب حركتها وفاعليتها في أحداث الحكايات، وهو أمر يتوجب الالتفات إليه لتكون القصص جامعة، ومؤثرة في الطفولة بفئتيها، وأن تكون القيم المشتغل عليها في رحاب البياض، مقرونة بتطلعات الذكور والإناث معًا، ما يجعل عملية الكتابة للطفل منصفة ومؤسسة لجيل يافع ونافع، وإذا كان المصلح الجزائري عبد الحميد بن باديس قد قال ذات يوم: (إذا علّمتَ ولدًا فقد علمتَ فردًا، وإذا علمتَ بنتًا فقد علمتَ أمة)، فإننا فعلاً بحاجة إلى كتابة تكون منفتحة بقيمها التربوية والتثقيفية والترفيهية لجميع الأطفال.



الهوامش:

1 - عواطف إبراهيم: قصص الأطفال ودور الحضانة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د. ت، ص 8، 9.
2 - هدى علي الشمري، وسعدون محمود الساموك: مناهج اللغة العربية وطرق تدريسها، دار وائل للنشر، الأردن، ط1، 2005، ص 254.
3 - عبد الله لالي: أحلام العصافير (مجموعة قصصية)، دار علي بن زيد للطباعة والنشر، بسكرة، الجزائر، د.ت، ص 39..... ص 82.
4 - أحلام العصافير: ص 9..... ص 21.
5 - أحلام العصافير: ص 61..... ص 82.
6 - أحلام العصافير: ص 23..... ص 28.
7 - أحلام العصافير: ص 29..... ص 34.
8 - أحلام العصافير: ص 35..... ص 38.
9 - حنان عبد الحميد العناني: أدب الأطفال، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الأردن، ط 4، 1999، ص 45.
10 - أحلام العصافير: ص 39..... ص 50.
11 - أحلام العصافير: ص 29..... ص 34.

الإسلام العالمي: البحث عن أمة جديدة

Globalized Islam: The Search for A New Ummah

Olivier Roy أوليفير روي

مراجعة: Jonathan Steele جوناثان ستيل



ترجمة: عمر عثمان جبق

محاضر في كلية المجتمع بالرياض

عادة ما يستند الخوف إلى تبسيط الأخطار التي تحيط بالإنسان الخائف أو حتى إيجاد مثل هذه الأخطار، و انطلاقًا من هذه المقدمة فإن مهنة أوليفير روي Olivier Roy بوصفه أحد أكثر الباحثين في الغرب اطلاعًا على "ممارسة الإسلام" مكرسة لمحاربة شيطنتها، فمن خلال تقديم (روي) نماذج متعددة لسلوك المسلمين، فهو يهدف دائمًا إلى إظهار عدم وجود نموذج واحد للإسلام، تمامًا كما هي الحال مع المسيحية، ويقول، بنوع من الاستفزاز، إن الحركات الإسلامية بدأت مغادرة الاتجاه الثوري بعد فشل الإسلام السياسي في مطلع التسعينيات من القرن العشرين، فقد أصبحت هذه الحركات إما أحزابًا سياسية عادية، كما حدث في الأردن فيما بعد وتركيا، أو أنها أخذت تقود نوعًا من الأصولية الغريبة الجديدة، بحيث أخذ أتباعها بالانسحاب من الحلبة السياسية، مفضلين أن يصبحوا مسلمين ولدوا من جديد، يركزون على القضايا الاجتماعية والأخلاقية وأسلوب الحياة، عوضًا عن التركيز على التغيير السياسي أو تشكيل ولاية إسلامية.

يقدم كتابه هذا إحدى أفضل الصور وأكثرها تفصيلاً عن "الإسلام الحقيقي الموجود" حاليًا، ويتابع في الكتاب مناقشته من خلال التركيز على ما يسميه ما بعد الحركات الإسلامية أو "الإسلام العالمي". هناك الآن ثلث تعداد المسلمين في العالم يعيشون كأعضاء أقلية معظمهم في البلدان الغربية وذلك بفضل الهجرة. وهذا ما جعل من الإسلام يتخطى الحدود الجغرافية، إن محاولة تشكيل ولاية إسلامية أمر غير منطقي لجماعات تشكل أقليات وستبقى أقليات لعقود قادمة، ويرى الكاتب أزمة في السلطة الاجتماعية للإسلام في كل مكان يرافقها تصادم حتمي بين أجيال المهاجرين المختلفة وتمرّد الأولاد أو انفصالهم فكريًا عن أبويهم، وبعضهم يتخلى عن ذلك كليًا، بالنسبة للآخرين، فإن الطريق يقود إلى تحول باتجاه التدين أكثر من الدين لأنهم يبحثون عن تفسيراتهم الخاصة عما يشكل السلوك والاعتقاد الصحيحين: إذ هناك نوع من الخصخصة في العقيدة.

ويؤثر هذا التغيير على المسلمين في البلدان المسلمة تأثرًا مماثلاً، ويؤثر زحف الغرب باتجاه الداخل على



معلومات عن الكتاب:

الكتاب: الإسلام العالمي: البحث أمة جديدة
المؤلف: أوليفير روي
تاريخ النشر مارس 2006
الناشر: Columbia University Press
عدد الصفحات: 320

مجتمعاتهم أيضًا، وحتى مع وجود ردة فعل معاكسة لهذا التوجه فإن الهدف العادي يكمن في عدم الرجوع إلى العصر الذهبي قبل العصر الحديث، وإنما يكمن في كيفية "أسلمة الحداثة". وبما أن الكاتب صحافي وأكاديمي في آن واحد، فإن أفكاره مستندة إلى بيانات حقيقية ملموسة على نحو متجدد؛ فهو يعيش في مدينة فرنسية صغيرة، حيث يشكل المسلمين ثلث سكانها، ويمتلك معرفة موسوعية عن الاتجاهات الإسلامية في العالم، فهو يبحث بلا هوادة عن أدلة وأفكار من عدد كبير من المواقع الإلكترونية المسلمة وغرف المحادثات حتى هذه اللحظة.

ويذكر في كتابه مثالاً نموذجيًا عن التدين المعقد لرجل تونسي يبيع الخمر في محل على إحدى نواصي باريس، ويحضر إلى المسجد (للصلاة)، ويتبرع بالمال لمنظمة أصولية، ويصوت للجبهة الوطنية Front National لأنه مستاء من الجريمة، و يذكر أيضًا في كتابه أمثلة عن مسلمين فرنسيين يدعون أولادهم يحضروا حفلات رأس السنة الميلادية في المدارس، أو أنهم انضموا إلى اتحاد بقيادة الشيوعيين في مصانع السيارات حيث يعملون، وهذا دفع الاتحاد في المقابل للضغط لتخصيص غرف للصلاة في أماكن عملهم. ويتطرق (روي) إلى فكرة أن مشكلات العالم المسلم المعاصر يمكن تفسيرها من خلال الإسلام، ويسره كثيرًا مبيعات المصحف الكبيرة في الغرب بعد أحداث 11/سبتمبر؛ إذ اندفع غير المسلمين لمعرفة ما يقوله القرآن عن هذا الأمر وذاك، ويكتب قائلاً: "ليس السؤال ما يقوله القرآن حقًا، ولكن ما يقول المسلمون: إن القرآن يقول". "وليس مدهشًا أو مفاجئًا أنهم يختلفون في حين يؤكد جميعهم أن القرآن واضح، فالقضية هنا ليست الإسلام كمجموع وثائق دينية، ولكنها حوارات المسلمين وممارستهم." ويشير الكاتب إلى أن السبب الرئيسي للتخلف السياسي للعالم العربي قد يكون في الثقافة العربية وليس في الإسلام، نظرًا لأن معظم مسلمي العالم ليسوا عربًا. و ليس صحيحًا أن التحول إلى فصل الدين عن السلطة يقود إلى الديمقراطية، ففي الشرق الأوسط التحول يرافق فصل الدين عن السلطة الديكتاتورية، كما هي الحال مع شاه إيران أو صدام حسين أو رئيس تونس بن علي، أو إلغاء الانتخابات البرلمانية في الجزائر عام 1992 بسبب فوز الإسلاميين. ويتابع الكاتب قوله: إن القضية ليست إذا كانت الديمقراطية تحرز تقدمًا ما، فالذي يحدث هو التحديث الاجتماعي، ومع أن جمهورية إيران الإسلامية قد خفضت سن زواج النساء إلى تسع سنوات، إلا أن متوسط سن الزواج الحقيقي ارتفع ووصل إلى سن الثانية والعشرين في عام 1996، كما ارتفعت معدلات التعلّم بين النساء الإيرانيات من 28% إلى 80% بين عامي 1976 و1996.

ومن إحدى أفكار الكاتب (روي) الرائعة فكرة أن المسلمين في الغرب لم يعودوا أجانب، ولا يعني ذلك أنهم اندمجوا بالمعنى الفرنسي أو بالمعنى الإنجليزي بوصفه مكونًا من مجتمع جديد متعدد الثقافات، إذ يتقبل كل فرد مسلم – كأي شخص آخر – هويات محتملة عديدة يمكنه إبرازها في أي لحظة ما حسب اختياره، ولذلك لا يمكن وضعه في قوالب جامدة بعد الآن. ويعدّ احتمال عدم عودة طلاب الشرق الأوسط إلى أوطانهم نهائيًا إحدى نتائج زوال الحدود الجغرافية، فقد يدرس شخص مصري هو عضو في حركة الأخوان المسلمين في كوالالمبور قبل انتقاله إلى فلوريدا أو برلين، وفي كلا الحالتين يشكل هذا الشخص جزءًا من طبقة المفكرين المسلمين العالميين المهجّرين (وقد تكون لغتهم الشائعة اللغة الإنجليزية وليست العربية)، ولا يمكن وصفها بالتشرد، لأنها بعيدة جدًا جدًا عن بلد الأصل "يمكن لكردي عراقي في المنفى أن يقرر إذا كان بالأول عراقيًا أو كرديًا أو مسلمًا"، عندما ندرك أن الدين والثقافة تم عزلهما عن بعض عندها يصبح حوار "صراع الحضارات" غير ذي صلة.

ويختم الكاتب (روي) قائلاً: إن العولمة والتحول باتجاه الغرب لا يمكن إيقافهما بين المسلمين الذين يعيشون في الغرب، والمسلمين الذين ما يزالون يعيشون في مجتمعات مسلمة، ومكونها المركزي هو التركيز الجديد على الفرد، قد يعني هذا تحولاً لبعض باتجاه الأصولية، أو إحياء للإسلام أو العودة إلى الإسلام، ويقول (روي): إن "هناك تأكيدًا على الذات، والبحث عن تحقيق الذات الشخصية، وإعادة بناء المواقف الفردية تجاه الدين، فالإيمان أهم من العقيدة". ويروق هذا النوع من الدين غالبًا للشباب المثقفين جيدًا والمحبطين، وغالبًا ما يحتوي على جرعة ضخمة من اللاعقلانية، ويقود إلى تدين أكثر عاطفية يستند إلى الإيمان، ويزود المسلمين بهوية بالإضافة إلى تضامن مع الناس الذين "يمارسون" دينهم بانتظام، ومع صدق الكاتب تجاه مبدأه العام هذا في محاولة إزالة الغموض عن الإسلام، يشير أيضًا إلى أن العوامل نفسها موجودة في إحياء الأصولية البروتستانتية، قد تشجب غياب المفكرين الإصلاحيين الإسلاميين المتحررين في الإسلام، ولكن هذه مشكلة البروتستانتية العالمية أيضًا، والأخبار السعيدة كما يراها الكاتب (روي) هي أن التحول باتجاه فصل الدين عن السلطة هي اتجاه الأغلبية.

رابط المراجعة:

http://www.theguardian.com/books/2004/nov/13/highereducation.news

تنصير المسلمين

إسبانيا 1491 - 1609



د. عبدالرحيم الرحوتي

أستاذ الألسن وعلم الترجمة بالمعهد العالي الدولي للسياحة، طنجة، المغرب

تنصير المسلمين بالإكراه في إسبانيا استمر على امتداد قرن من الزمان، من سقوط غرناطة (1491) إلى أن تم إقرار طرد نحو ثلاث مئة ألف موريسكي من ذرية المنصرين خارج تراب شبه الجزيرة الإيبيرية (1609). ينظر اليوم إلى هذه السياسة التي استلهمت نموذج اضطهاد اليهود في العصور الوسطى بأوروبا، على أنها كانت تحمل في طياتها كل أسباب الفشل، وذلك منذ انطلاقها. لماذا تم إكراه المسلمين على التنصير، هذا في الوقت الذي يبدو واضحًا تمامًا أنهم لن يؤمنوا بالمسيح؟

لماذا تم طرد ذريتهم بعد كل المجهودات التي بذلت لكي يقطعوا صلتهم بالإسلام؟

بإعطائها الكلمة لمختلف الفاعلين المعنيين بملابسات هذه القصة، الموريسكيون وكبار النبلاء وقضاة محاكم التفتيش وعلماء الدين ومستشارو الملك، فإن إيزابيل بوئران قدمت إضاءة جديدة ونوعية لحقبة مؤلمة بالنسبة للمسلمين، ومأساوية بالنسبة لإسبانيا وحاسمة في العلاقات بين الكنيسة المسيحية وغير المسيحيين.

في كتابها الصادر حديثًا «تنصير المسلمين، إسبانيا 1491 – 1609»، اختارت إيزابيل بوئران تناول المأساة التي عاشها المسلمون تحت الحكم المسيحي بعد سقوط الأندلس بهدف الكشف عن الخلفيات التي تحكمت في القرارات التي اتخذها ملوك إسبانيا المسيحية (فيرديناند، إيزابيلا، شارلكان، فيليب الثاني، فيليب الثالث) في حق المسلمين لما آل أمرهم إليهم. لم تعر المؤلفة أي اهتمام بذكر لمفهومي التسامح واللاتسامح اللذين اعتاد الباحثون اللجوء إليهما عند تناول مسألة الأقليات الدينية في المجتمعات الأوروبية بشكل خاص، حتى وإن قادها اختيارها، كما تنص على ذلك في مقدمة الكتاب، إلى الوقوع في مغالطة تاريخية. هذا التخصيص يجد ما يدعمه في كتاب آخر لمؤلفته لوسيت فاليتسي بعنوان «هؤلاء الغرباء المألوفون، المسلمون في أوروبا من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر» (2012) الذي خصصته لدراسة وضعية المسلمين في أوروبا وتحتل فيه، كما يمكن أن نتوقع، مسألة الموريسكيين مكانًا مركزيًا، لا تتردد المؤلفة، وذلك منذ الصفحة الأولى، بالمطالبة بالحق في المغالطة التاريخية مهما سيقودها إلى تناول المسألة الموريسكية بوصفها حالة من حالات التطهير العرقي الكبرى التي عرفتها القارة الأوروبية.

لم يكن هدف إيزابيل بوئران الإسهام في كتابة تاريخ الموريسكيين، بحيث إن الحقبة المهمة (1568 – 1570)، تلك التي تتعلق بالانتفاضة المشهورة التي عرفتها منطقة غرناطة، انتفاضة البُشرات، لم يتم تناولها في الكتاب إلا بشكل مقتضب، وإنما اختارت تركيز اهتمامها حول خلفيات وأبعاد السياسة التي نهجها حكام إسبانيا المسيحية إزاء المسلمين، وهو ما جعلها تمفصل كتابها حول ثلاثة تواريخ أساسية هي 1491، 1525، 1609 وهي تواريخ شكلت لحظات قوية عرفت فيها أوضاع الأقلية الإسبانية ذات الأصول الإسلامية تقلبات حادة بموجب قرارات حاسمة اتخذت في حق أفرادها. في سنة 1491 تم توقيع معاهدة الاستسلام بين الملكة إليزابيث والملك فيرديناند من جهة، وأبو عبد الله آخر أمراء مملكة غرناطة من جهة أخرى، وهي المعاهدة المعروفة باسم «سانتا في» التي يرمج نصها استسلام إمارة غرناطة للمسيحيين مع ضمان حقوق المنهزمين، بشكل خاص حقهم في حرية العبادة والمعتقد وإدارة شؤونهم وفق تعاليم الشريعة الإسلامية وتوفرهم على مؤسساتهم الخاصة بهم لتنظيم أمور حياتهم الداخلية وحمايتهم من التنصير بالقوة وإعفائهم من حمل شارة خاصة تميزهم عن غيرهم.

بعد استسلام إمارة غرناطة واستقرار الأمور للحكام الجدد، شجعت الملكة إيزابيلا والملك فيرديناند، في مرحلة أولى، رحيل المسلمين عن إسبانيا نحو إفريقيا الشمالية، وهو ما سمح بإبعاد العناصر الأكثر عداءً وتشددًا التي يمكن أن تشكل خطرًا على الحكم المسيحي، الأعيان والخواص والقواد العسكريون، وكذا الفئات الأشد فقرًا، التي ليس لديها ما تخسره. كل هؤلاء حزموا أمتعتهم ورحلوا بحثًا عن ملاذ أكثر أمانًا لهم

ولذريتهم. حركة الهجرة هذه كانت منسجمة بشكل تام مع موقف الفقهاء المسلمين، الذين كانوا يرون بأنه يستحيل ممارسة الإسلام بالشكل الصحيح في بلاد لا تخضع لحكم المسلمين. وجد هذا الموقف ما يدعمه في شخص العالم أبي العباس الونشريسي (توفي 914 هـ / 1509م) الذي ارتكز على فتوى كان قد أصدرها في وقت سابق أبو بكر ابن العربي المعافري الإشبيلي (توفي 543 هـ / 1148م) التي تفيد أن من يقبلون المكوث في بلاد الكفار يُعدون مثلهم مثل الذميين في بلاد الإسلام. لم يمض وقت طويل حتى أدرك الحكام الإسبان أن استمرار الهجرة سينتهي بإفراغ شبه الجزيرة الإيبيرية من سكانها بشكل مفاجئ مع ما يشكله مثل هذا السيناريو من خطر كبير على مستقبل البلاد. فكان أن حثهم ذلك على التراجع عن إقرار طرد جماعي في حق كل المسلمين منذ البداية والإحجام عن مواصلة تشجيع الهجرة وإخضاعها تدريجيًا لشروط جعلت إمكانية مغادرة التراب الإسباني أمرًا صعبًا ابتداءً من 1495.

في المقابل عمل الحكام الجدد على تشجيع مجيء المعمرين المسيحيين للإقامة في المناطق التي استولوا عليها، بين 1485 و1500، انتقل نحو أربعين ألفًا من سكان قشتالة المسيحيين للاستقرار في مناطق مختلفة من إمارة غرناطة السابقة. كانت السياسة الديمغرافية للملوك الإسبان تقوم على استصلاح الأراضي وتهيئ الظروف لاستقرار المعمرين الجدد بهدف تعديل الميزان الديمغرافي لصالح المسيحيين. فتح أبواب الإمارة السابقة أمام الهجرة، ساعد على مجيء مسلمين من مناطق مختلفة من إسبانيا بشكل سري ولكن لم يدم الحال طويلاً حتى لوحظ أن تزايد أعدادهم بتراب الإمارة السابقة صار يشكل تهديدًا حقيقيًا لاستقرار الأوضاع بها. فتقرر إجراء تهجير قسري في 1498. إعادة التعمير عن طريق الهجرة ستترجم على الأرض بتراجع العنصر الإسلامي. في نهاية القرن لم يكن يوجد بإمارة غرناطة إلا نحو خمسين ألف مسلم. وهو ما يعني أن نحو نصف ساكنة الإمارة السابقة اختاروا الهجرة، سواء حين سقوط غرناطة أو خلال الانتفاضات والمواجهات بين المسلمين والمسيحيين. وبشكل خاص الانتفاضة التي عرفتها المنطقة بين 1499 و1500 عند إقدام السلطات الدينية المسيحية على إحراق كمية هائلة من الكتب الإسلامية في ساحة البيازين بغرناطة.

إلى جانب سياسة تعديل الكفة الديمغرافية في المناطق التي كانت الغلبة فيها للمسلمين، عملت السلطات المسيحية على تشجيع سياسة التنصير مستغلة الغموض الذي اكتنف صياغة عدد من بنود المواثيق الموقعة بينها وبين المسلمين. الشيء الذي سيسمح بفتح الباب على مصراعيه أمام عمليات تنصير واسعة في غالب الأحيان تحت الإكراه، وباستعمال القوة والتهديد بالطرد أو القتل.

معلومات عن الكتاب:

الكتاب: تنصير المسلمين. اسبانيا 1491 - 1609
Convertir les musulmans. Espagne 1491-1609

المؤلف: إيز ابيل بوتر ان Isabelle POUTRIN

تاريخ النشر: باريس، 2013

الناشر: المنشورات الجامعية الفرنسية PUF

الرقم المعياري الدولي للكتاب: 9782130589143

بسبب الضغوط التي كانت تمارس عليهم والاعتداءات التي كانوا يتعرضون لها. كان المسلمون ينتفضون كلما استطاعوا لذلك سبيلاً دفاعًا عن أنفسهم وعن عقيدتهم، مما حدا بالملكة إيزابيلا إثر تمرد عنيف ودموي كانت غرناطة مسرحًا له إلى إصدار مرسوم في 1499 يقضي بإجبار جميع مسلمي إسبانيا على اعتناق المسيحية وإلا تعرضوا للطرد. وفي 1502 أصدرت مرسومًا ثانيًا يلغي جميع أشكال التسامح مع المسلمين في مملكة قشتالة التي كانت تضمنها لهم المواثيق التي بموجبها انتقلوا للعيش في ظل الحكام الجدد.

مسلسل التضييق الذي بدأ في 1499 بمملكة قشتالة وقاد إلى إنهاء وضع المسلمين بها بموجب المرسوم الذي أصدرته الملكة إيزابيلا في الموضوع، سترتفع درجة حدته في 1525 عندما وجد المسلمون في إمارة بلنسية بدورهم أنفسهم أمام اختيارين لا ثالث لهما: التنصير أو القتل. جاء ذلك عقب تمرد معقد اعتدت فيه عصابات مسلحة على المسلمين الذين كانوا يشكلون اليد العاملة الأساسية لاستصلاح أملاك النبلاء واضطروهم للتنصير في غالب الأحيان تحت التهديد بالقتل. بعد استعادة السيطرة على الوضع طرحت مسألة قانونية التعميد تحت الإكراه بالنسبة لمسلمي الإمارة. خلصت اللجنة التي تكلفت بالتحقيق في الموضوع إلى أن التعميد قانوني ولا يقبل الطعن. ارتكز شارلكان على خلاصة هذا التقرير وأصدر أمره بطرد جميع المسلمين من إمارة بلنسية ممن لم يكونوا قد خضعوا للتعميد في صيف 1525. كل ساكنة المملكة هم رسميًا، من الآن فصاعدًا، مسيحيون وأن اسم الموريسكيين يستعمل فقط لتحديد المواطنين الإسبان المنحدرين من أصول غير مسيحية.

السؤال المركزي في خضم كل هذه الأحداث يدور حول التنصير بالإكراه. وهو سؤال ما فتئ يطرح ويثير نقاشات متشعبة وحادة منذ دخول القشتاليين والأراغونيين إلى غرناطة وحتى اتخاذ قرار الطرد النهائي باستعمال القوة في حق الموريسكيين الموجودين فوق التراب الإسباني في 1609. حاولت المؤلفة إحياء وتحليل هذه النقاشات مع مراعاة إعادة إدراجها في سياقها التاريخي بكل ما لفه من صراعات وتجاذبات وتعقيدات. لكي تصل إلى



مبتغاها قامت بمراجعة كم هائل من الوثائق المخطوطة المستنفذة التي لم يعد من السهل تفكيك رموزها كتبت من قبل أناس متمرسين في القانون الكنسي والثيولوجيا. وبعملها هذا قطعت مع القراءات السهلة والمتهافتة التي تسارع إلى تطبيق أصناف التفكير المتداولة في الوقت الحاضر على واقع مختلف تمامًا. تقترح المؤلفة تأويلاً جديدًا ومقنعًا لظروف الاستسلام في 1491 بفضل المقارنة بين المقترحات التي لم تنشر للأمير الغرناطي أبي عبدالله والتعديلات التي أدخلها عليها الحكام الأسبان. لم تساعد معاهدة سانتا في في تحصين الوضع الديني بالمدينة المستولى عليها. تقول إيزابيل بوتران، بقدر ما سيدشن الاستسلام، خلافًا للمتوقع، سياقًا نشيطًا للتنصير، لا مجال للحديث عن التزامات تم الوفاء بها. كانت عمليات التنصير تتم في غالب الأحيان تحت الضغط والتهديد والترهيب.

مع ذلك، ومع مرور الوقت وبرغم حملات التعميد الجماعي والتربية والتعليم والمراقبة والعقاب، فإن الموريسكيين ظلوا متمسكين في قرارة أنفسهم بمعتقدهم وبعاداتهم وتقاليدهم الإسلامية. مع هذه المعاينة، فإن السياسة التي تم تبنيها انطلاقًا من 1526 ستشهد تحولاً في طريقة تناول المسألة الموريسكية، بحيث سينتقل النقاش من تناول قانونية التعميد من عدمه إلى التطرق لمكان الموريسكيين في المجتمع الإسباني. في مرحلة أولى، تم تكليف محكمة التفتيش الملكية لكي تعمل على إعادة المتنصرين المرتدين إلى ممارسة ديانتهم الجديدة طبقًا للأصول والتخلي عن العادات والتقاليد الإسلامية. لكن هذه الخطوة كانت عديمة الفعالية ولم تحقق أي نتيجة تذكر. فتقرر اتباع مسطرة العقاب بالأسر وإعادة التأهيل. ليستعيد الموريسكيون المعتقلون حريتهم. كان

يلزمهم اتباع تكوين خاص في أساسيات الديانة المسيحية. لكن هذه العملية بدورها لم تكن مجدية مما جعل الشك يساور النفوس ويستبد بالعقول بأن الأمر أشد تعقيدًا وعمقًا مما كان يتصور.

خلال تناولها للحلقة الأشد تعقيدًا في تاريخ الموريسكيين تحت الحكم المسيحي الإسباني، وهي الحلقة التي تمتد من 1521 إلى 1525 والتي دفعت شارلكان إلى مطالبة المسلمين المقيمين في مملكة بلنسية إلى الاختيار بين اعتناق المسيحية أو الطرد، عملت المؤلفة على عرض وقائع الصراع بين المسيحيين والمسلمين مرتكزة على كتاب حول التنصير الذي كان قد حصل حديثًا للموريسكيين، وهو الكتاب الذي ألفه في 1525 فرديناند لوازيس، النائب العام لمحكمة التفتيش في بلنسية، ويتناول فيه هذا الفقيه في القانون الكنسي مسألة اللجوء إلى القوة للحصول على التنصير. يستحضر المؤلف كل السوابق المعروفة في التاريخ المسيحي وكل نصوص القانون الكنسي، التي تناولت مسألة الإكراه، مما سيسمح له بطرح مختلف الأسئلة التي أثارها تنصير الموريسكيين منذ الحملة التنصيرية الأولى في بداية القرن السادس عشر وحتى انتفاضة بلنسية.

منذ ذلك الحين وإلى أن اتخذ قرار الطرد من قبل الملك فيليب الثالث، عرفت العلاقات بين الموريسكيين والسلطات الإسبانية مرحلة جديدة تنعتها إيزابيل بوتران باسم «زمان الشك»، وهي حقيقة شهدت تراكم عدد كبير من الأفكار والتأملات والاقتراحات بخصوص مسألة الموريسكيين. وراء المواقف المطبوعة بالتردد لدى شارلكان أو فيليب الثاني، وراء الاختيار الصعب بين قمع الردة من قبل محاكم التفتيش والتسامح العقائدي، وراء المواجهات بين الحكام والجماعات المتناحرة على السلطة والكنيسة والنبلاء، بدأت تظهر أولى علامات التصدع وهو تصدع ما فتئ يتسع مع مرور الوقت بين الفاعلين أو الشهود الذين عاينوا أحداث هذه القصة المؤلمة.

منذ البداية كان الحكام المسيحيون قد وضعوا ثلاثة تصورات بشكل استباقي لما يمكن أن يحصل مع مرور الوقت وتطور الأحداث. يتمثل التصور الأول في احتمال نجاح عملية التنصير طبقًا لما هو مرسوم لها، أما التصور الثاني فيرمي إلى الإبادة الجماعية للأقلية من أصول مسلمة، والثالث يتمثل في الطرد الجماعي في حالة فشل عملية التنصير والإدماج. منيت سياسة التنصير بفشل ذريع. برغم خضوع الموريسكيين لبرامج تكوينية وتربوية ومراقبة صارمة لمنعهم من ممارسة معتقدهم وعاداتهم الخاصة بهم، ظلوا مختلفين عن غيرهم من المسيحيين الإسبان، وهي معاينة ستفتح الباب واسعًا أمام محاكم التفتيش لمتابعة المشتبه في أمرهم والنطق بأحكام بالإعدام حرقًا في حق ما لا يقل عن أربعين ألفًا من المتنصرين الجدد، ومع ذلك لم تحقق هذه الإجراءات على قساوتها وبشاعتها أي نتيجة تذكر.

هكذا، ستتشكل النواة الأولى لنقاش طويل سيتطور تدريجيًا نحو ظهور ثم تبلور فكرة ضرورة اجتثاث الإسلام من مجموع التراب الإسباني بوصفه أرضًا خالصة للمسيحيين دون غيرهم من أصحاب الملل الأخرى. بذلك يكون أنصار طرد الموريسكيين قد نجحوا في إثبات وجاهة رأيهم بوصفه إجراءً ملائمًا وعقابًا معتدلاً للمرتدين، لأنه يحفظ لهم سلامتهم الجسدية، كما أن الطرد يشكل أيضًا وسيلة لوضع حد للخطر المحتمل الذي يمثله الموريسكيون بسبب تخابرهم المفترض مع القوى الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط ومع العثمانيين ودول إفريقيا الشمالية.

بعد الانتهاء من قراءة كتاب إيزابيل بوتران نخرج بانطباع أننا فهمنا السياق الذي قاد إلى التحقيق الصعب للوحدة العقائدية في إسبانيا، وذلك عن طريق إقصاء جماعة كثيرة العدد وطردها من أرضها وأرض أجدادها لا لشيء إلا لأنها مهما فعل الحكام الجدد من أجل تنصيرهم لم يفلحوا إلا في شيء واحد هو التأكد من ثباتهم على دين أجدادهم. نقف كذلك في الكتاب على النقاش المتشعب والغني الذي تناول سياق تنصير مسلمي إسبانيا وهو سياق امتد على طول قرن كامل، القرن السادس عشر. ومن ضمن الإشكاليات التي طرحت تلك التي تتعلق بقانونية عملية التنصير بمفهوم القانون الكنسي، وهل فرض بالترهيب في معظم الأحيان على المسلمين وإذا كان الأمر كذلك ما هي الظروف التي يمكن تقديمها كمبررات لإجراءات من هذا النوع؟ مثل هذه الأسئلة أرقت ملوك إسبانيا ومستشاريهم وأساقفة الكنيسة الذين لم يتوقفوا عن مراجعة الخبراء في الثيولوجيا والقانون الكنسي. بصفة عامة، فإن أتباع القديس توما الإكويني كانوا يناهضون التنصير بالإكراه، في حين أن أتباع المذهب الفرنسيسكاني كانوا يبررون اللجوء إلى التنصير بالقوة عند الاقتضاء، آملين من وراء ذلك أن يفعل الزمان فعله مع وجود سياق تنصير ملائم كما أن المنصرين من شأنهم أن يتركوا ذرية ستكون مسيحية مثلها مثل باقي المسيحيين الآخرين وينتهي الأمر. بالنظر إلى كل ذلك فإن المهم بالنسبة لكل وضعية هو تقييم درجة الإكراه، الإكراه المطلق أو الإكراه المشروط بين الكفار الذين لم يسبق تعميدهم، مثل اليهود الذين ظلوا على يهوديتهم، والكفار الذين قبلوا التعميد، وانقلبوا بعد ذلك على دين المسيح، وهو الصنف الذي ينتمي إليه الموريسكيون. تنص المؤلفة في سياق تناولها لهذا النقاش بأن الإحاطة التامة بالمفاهيم المستعملة ضرورية لكل من يريد فعلاً فهم طبيعة ومضامين القرارات المتخذة والسياقات التي اتخذت فيها.

التحليل الذي تقترحه إيزابيل بوتران يتميز بوصف البعد الديني عاملاً حاسمًا في المسألة الموريسكية، وهو اختيار له ما يبرره، ولكنه على أهميته لا يجدر بنا التغاضي عن البعدين السياسي والاقتصادي اللذين اختارت المؤلفة معالجتهما بشكل مقتضب نوعًا ما. يبقى مع ذلك أن حكام إسبانيا وبصفة عامة كل الفاعلين السياسيين والاقتصاديين والدينيين كانوا ينتظرون من الفلاحين والحرفيين الموريسكيين المشهورين بمهارتهم أن يصبحوا مسيحيين جيدين في خدمة التاج الإسباني. التخوف من خيانتهم المحتملة لعب بكل تأكيد دورًا حاسمًا في القرار النهائي الذي اتخذ في حقهم وإن كانت وثائق عديدة تتحدث عن المرارة التي شعر بها المسؤولون الإسبان بخصوص سياسة التنصير التي مورست على الأقليات بالإكراه فجاءت النتائج على عكس ما كان متوقعًا.

أثار كتاب إيزابيل بوتران الكثير من الأسئلة التي يمكن أن تشكل منطلقات جديدة للبحث في مسألة الموريسكيين، وهي منطلقات بحث يمكن أن تكون مثمرة بشكل كبير لو تم الربط بشكل أفضل بين الديني والسياسي في هذه المسألة، وذلك بالنظر إلى أن هذه الأقلية كانت متهمة بإقامة علاقات سرية مع العثمانيين والمملكة المغربية وولايتي الجزائر وتونس وكذلك مع البروتستانتيين في فرنسا. خلافًا للأقلية اليهودية، فإن الموريسكيين كان ينظر إليهم من قبل العديد من الفاعلين السياسيين والدينيين الإسبان بوصفهم يشكلون تهديدًا حقيقيًا للتاج الإسباني، لذلك فإن قرار الطرد ارتكز من بين ما ارتكز عليه على خيانة مزدوجة، خيانة الله (الردة) وخيانة الملك (التخابر مع الأجنبي).

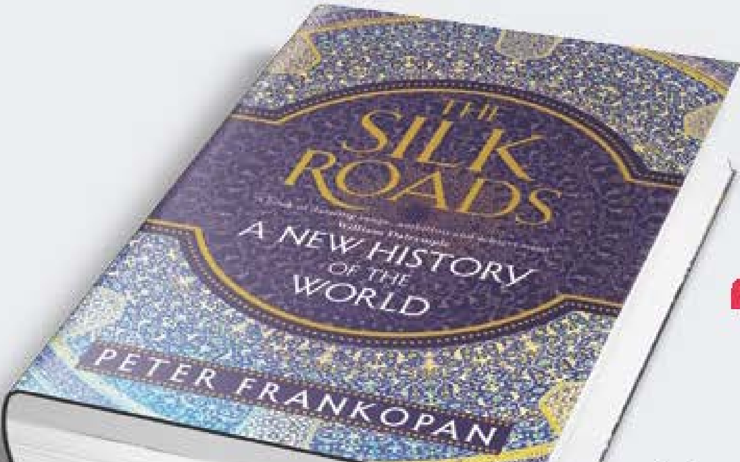
في الختام، يمكن القول بأن إيزابيل بوتران أحسنت استغلال الكمية الهائلة من الوثائق التي توفرت لها وبشكل خاص الوثائق المخطوطة التي لم تستثمر بالشكل المطلوب لحد الآن، كما أنها تميزت بدقة تحليلاتها ووجاهة طرحها وبكتابة واضحة ووثيقة الصلة بموضوعها، مما جعل كتابها يأتي في مستوى التطلعات. الكتاب هو بكل تأكيد إضافة نوعية للمكتبة الموريسكية بالنظر لما يشتمل عليه من تصويبات مقنعة ومن تعديلات مبررة للأفكار المسبقة والانحرافات التي طالما عانى منها هذا الموضوع لتداخل اعتبارات عدة سياسية ودينية وإيديولوجية...

المؤلفة:

أستاذة محاضرة بجامعة باريس 12 في التاريخ الديني والسياسي. من مؤلفاتها: "الحجاب والقلم، السيرة الذاتية والقداسة النسائية في إسبانيا الحديثة"، 1995؛ النساء والسلطة السياسية، الأميرات الأوربيات من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر"، 2007؛ "طرد الأقليات الدينية في أوروبا من القرن الثالث عشر إلى القرن السابع عشر"، بالاشتراك مع ألان تالون، 2015...

طرق الحرير..

تاريخ جديد للعالم



كُتب وقيل الكثير عن طرق الحرير التي وصلت منذ الأزمنة القديمة الصين ومناطق عديدة من آسيا بالعالم الخارجي. وترددت بالتوازي بأشكال مختلفة مقولات؛ ونظريات لباحثين ومؤرّخين غربيين تركز على القول إن التاريخ بدا فعليًا مع أوروبا انطلاقًا من الحقبة اليونانية القديمة والرومانية ثم صعود أوروبا الحديثة.

وتحت عنوان «طرق الحرير.. تاريخ آخر للعالم» يقدّم بيتر فرانكوبان، الأستاذ في جامعة أكسفورد ومدير مركز الأبحاث حول بيزنطة في نفس الجامعة، رؤية أخرى مغايرة إلى حد كبير للنزعة الأوروبية المفرطة في التمحور حول الذات، واعتبار أن جذر التاريخ يوجد في أوروبا حصرًا، بوصفها مركز العالم والقوّة المحرّكة لمسار التاريخ.

النقطة التي ينطلق منها المؤلف تركّز على القول إن الرؤية الغربية بصورة عامّة تفرط في ربط تاريخ العالم بالصعود الأوروبـي حول الجـذر الحضـاري اليونـاني - الروماني،.

وتحديداً بمدلوله المسيحي، ومن هنا بالتحديد أيضًا يتم تجاهل الدور الكبير الذي لعبه الشرق في اللقاء والحوار بين الحضارات. ويرى المؤلف أنه ينبغي إعادة الاعتبار لذلك الدور، وهذا يترتب عليه كتابة «تاريخ جديد للعالم»، كما جاء في العنوان الفرعي للكتاب.

ويشير المؤلف أن تسمية طرق الحرير حديثة العهد نسبيًا، حيث يعيدها إلى عام 1877 عندما استخدمها الجغرافي وعالم الجيولوجيا الألماني فردناند فون ريتشوفن، الذي كان أحد أشهر مؤرّخي عصره، والإشارة أنه استخدم تعبير «طرق الحرير» للدلالة على طرق المرور التجارية بين قارّتي آسيا وأوروبا خلال عدّة قرون من الزمن.

ويعني بيتر فرانكوبان بالشرق تلك المنطقة الشاسعة التي تتواجد في منتصف الطريق بين الشرق والغرب والتي تمتد عمومًا من الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط حتى البحر الأسود وجبال الهملايا، ولا يتردد في التأكيد أن المنطقة المعنية عرفت منذ الأزمنة القديمة حضارة متقدّمة لم تكن هناك حضارة أخرى تماثلها في العالم آنذاك.

ولا يتردد فرانكوبان في الذهاب أبعد مما ذهب إليه بعض المؤرّخين قبله، ذلك عبر بحثه عن قراءة معدّلة للتاريخ غير تلك التي تتمحور حول الغرب الأوروبي كأصل للعالم. هكذا يقوم بنوع من «تغيير مركز الثقل التاريخي» من الغرب وإزاحته نحو الشرق، هذا عبر نفيه لما يتم ترويجه في التاريخ الغربي عن «الظفر السياسي والثقافي والأخلاقي للغرب» بالقياس إلى الشرق. هذا الشرق الذي يعده المؤلف بمثابة «حاضنة استثنائية» لمختلف المعارف.

ويحدد طرق الحرير بتلك الشرايين الحيوية التي كان يتم عبرها انتقال البشر والسلع والبضائع والفراء والفضّة ومختلف أشكال التجارة، ولكن أيضًا تبادل وتفاعل الأفكار والتعرّف على المعتقدات، الإسلامية والتقدّم العلمي والأفكار الفلسفية، وكذلك انتقال العادات والمآكل والأمراض .. كان مرض الطاعون قد أودى بحياة الكثيرين في قارّتي أوروبا وآسيا خلال القرن الخامس عشر، كما يشير المؤلف ـ وغير ذلك مما هو قابل للنقل والانتقال.

ويحدد المؤلف القول إن تلك الطرق .. الشرايين لم تكن مكرّسة فقط للانتقال والتجارة فحسب، ولكن أيضًا، وأساسًا، للتواصل والتفاعل، «على طريقة الشبكات اليوم» بين مناطق ذات ثقافات مختلفة. ويشرح أن ذلك كان في الاتجاهين وليس في اتجاه واحد، وما يعني أنه من الصعب التركيز على الفعل الغربي فقط وتجاهل الغربي بالمقابل. والحديث في هذا السياق عن تحرّك الاسكندر المقدوني شرقًا وسلالة الهانس الصينية غربًا، كحركة في اتجاهين.

المثير للانتباه أن مؤلف الكتاب يقدّم في الفصل الذي كرّسه للمغول رؤيـة خاصّة عنهم حيث يعد أنهم لم ينتصروا في الكثير من معاركهم، حسب الأفكار السائدة عنهم، بالاعتماد على القسوة المفرطة التي اشتهروا فيها ولكن بالاعتماد على سلطة مركزية قوية.

معلومات عن الكتاب:

الكتاب: طرق الحرير: تاريخ جديد للعالم
The Silk Roads: A New History of the World
الناشر: دار بلومزبري Bloomsbury
عدد الصفحات: 656 صفحة
الرقم المعياري الدولي: ISBN: 9781408839973
تاريخ النشر: 2015/08/27

ورؤية خاصّة أخرى يقدّمها المؤلف حول «التعايش بين الديانات السماوية الثلاث» فيما بينها عندما انتشرت في البلدان ذات الصلة بطرق الحرير، ويشير أن المسيحية كانت في أزمنتها الأولى «آسيوية» أساسًا حيث تواجدت في منطقة تمتد من بلاد ما بين النهرين وحتى سهوب آسيا الوسطى.

كما يؤكّد القول: إنه «في الأزمنة الأولى لتعايشها .. الديانات السماوية .. كانت العلاقات بينها أكثر من سلمية، وكانت الأجواء ـ الاجتماعية ـ مشجّعة تمامًا». ويقارن المؤلف في هذا السياق بين واقع التعايش بين جميع مكونات بلدان طرق الحرير وبين ما كان قد فعله الأوروبيون بالنسبة لأبناء أمريكا الأصليين .. الهنود الحمر، حسب التسمية الشائعة، عندما وصلوا إلى العالم الجديد.

المؤلف:

بيتر فرانكوبان هو أستاذ التاريخ في جامعة أكسفورد، كما يتولّى مهمّة إدارة مركز الدراسات حول بيزنطة القديمة في الجامعة نفسها، يولي اهتمامه لدراسة العلاقات التاريخية بين الشرق والغرب. من مؤلفاته (الحروب الصليبية الأولى).

8 كتب أثارت الرأي السعودي

1
الكتاب: خواطر مُصرّحة
المؤلف: محمد حسن عوّاد
تاريخ النشر: 1937



لا يكاد يُذكر الأديب الحجازي محمد حسن عواد رحمه الله إلا ويُذكر معه كتابه الشهير "خواطر مُصرَّحة"، الذي أحدث ضجة حين نشره عام 1345هـ، خاصة فصل "مداعبة مع العلماء" منه، الذي ظن كثيرون إلى وقت قريب أنه يقصد به جميع علماء الشريعة، بمن فيهم علماء الدعوة السلفية، زمن الملك عبد العزيز رحمهم الله، لكنه قصد بذلك علماء المذهب الصوفي المنتشر في الحجاز.

وقد بيّن هذا الأستاذ حسين بافقيه في تقديمه للطبعة الأخيرة من كتاب "خواطر مصرَّحة".

نشر الكتاب أولاً على حلقات في جريدة أم القرى في العشرينيات من القرن الماضي، منعطفًا مبكرًا نحو الحداثة، ويحمل قيمة أدبية وفكرية وتاريخية، تضمن الكتاب مقالات حول الأدب ورؤى حول الشعر، والمرأة وتجديد الخطاب الديني.

أصدر يوسف ياسين مقالات في الرد عليه، فكانت هذه المقالات الشرارة الأولى لردة الفعل الأخرى على الكتاب.

2
الكتاب: الخطيئة والتكفير
المؤلف: عبدالله الغذامي
تاريخ النشر: 1985



هذا الكتاب استقطب أشد أنواع الهجوم والرفض من المحافظين ومن الحداثيين التقليديين، وكتب عنه ما لا يقل عن مئتي دراسة، وصدرت عنه كتب و خطب جمعة وأشرطة ومواعظ وصار علامة على الحداثة من جهة، وهدفًا للمعارضة من جهة ثانية.

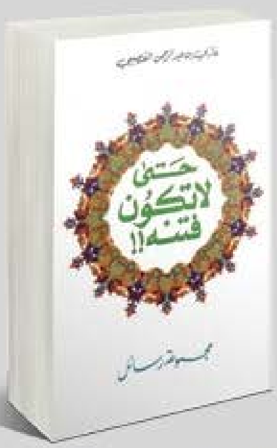
نُشر الكتاب عام 1985 وهو أول كتاب عربي يتحدث عن نظريات النقد الحديث (تحديدًا التشريحية)، ويطبق ذلك على النص (نصوص شحاتة الشعرية)، صدرت الطبعة الأولى منه بـ10 آلاف نسخة، وانتهت في عام واحد، نتيجة الشغب الذي أحدثه بسبب عنوانه.

يناقش هذا الكتاب نظريات النقد الحديثة كالبنيوية، السيميولوجية، التشريحية، مع تطبيق لهذه النظريات في قراءة النص قراءة تستند إلى الشفرات الدلالية وتفكيك وحدات النص وتشريحها ثم إعادة تركيبها.

كانت ردة الفعل ضد الكتاب والمؤلف قوية، حيث بدأت حملة ضده من قسم اللغة العربية بجامعة الملك عبدالعزيز، وصلت حد الإيذاء له ولطلابه في الجامعة، وكتب عنه عشرات المقالات الصحفية تتهمه بالماسونية، والخيانة الوطنية، والكفر، والإلحاد، والعلمانية، وتحدث بعض خطب الجمعة آنذاك عن كتابه، ووصفت أفكاره بالملوثة والعقيدة الفاسدة، وظهر آنذاك شريط كاسيت فيه حملة عنيفة جدًا ضده.

أصدرت كتب ترد عليه منها: الحداثة في ميزان الإسلام، الحداثة بمنظور إيماني، نقاد الحداثة وموت القارئ.

3
الكتاب: حتى لا تكون فتنة
المؤلف: غازي عبدالرحمن القصيبي
تاريخ النشر: 1991



رصد الكتاب لمرحلة سياسية مرت بها المنطقة الخليجية إبان غزو العراق لدولة الكويت، وتوقع القصيبي فيها أحداثًا حذر منها مبكرًا، ويتضمن مجموعة رسائل، ثلاث منها إلى رموز الصحوة الإسلامية، والبقية إلى عموم الناس موضحًا أحد آرائه..

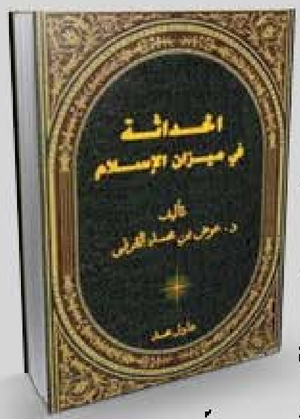
منع كتابه من التداول المحلي، لكن القصيبي وزعه مجانًا، فيما اتهمه بعض رموز الصحوة بالعلمانية، كما اتهمه بعض الناس بالفساد وسرقة الثروات ومالوا عليه حين أعفي من منصبه، ورد عليه كثير من الوعاظ ردودًا عنيفة عن طريق محاضراتهم وخطبهم ومقالاتهم.

4
الكتاب: الكتابة خارج الأقواس
المؤلف: سعيد السريحي
تاريخ النشر: 1986



يعد الكتاب دراسات نقدية في تجارب الشعر والقصة صدرت مع بدء ظهور الحداثة الأدبية، وقدمت وعيًا نقديًا مغايرًا للنقد النمطي والسائد في هذا الحقل آنذاك، كما صاغت منهج السريحي النقدي والمحدد الملامح.

لم تنج هذه الدراسات النقدية من التأويلات لبعض ما جاء فيها، فاعتبرها البعض تجاوزات تطور معها الأمر إلى مهاجمة الكاتب في مقالات وكتب معارضة للحداثة، ولكن عبر منظور موجه وإيديولوجي ضد مشروع الحداثة السعودي.



5

كتاب: الحداثة في ميزان الاسلام

المؤلف: عوض القرني

تاريخ النشر: 1999

جاء الكتاب كردة فعل على الحركة الحداثية التي بدأ رموزها السعوديون والعرب يروجون لها عن طريق إبداعاتهم ومحاضراتهم بصفته مشروعًا ثقافيًا. الكتاب عرّض بالكثير من النماذج على أنها خارجة عن الدين والعرف بطريقة تحريضية.

بلغ تأثير الكتاب عربيًا على العامة بسبب هجومه على أسماء إبداعية عربية أمثال صلاح عبد الصبور وعبد العزيز المقالح وعبد الوهاب البياتي وعبد الله الغذامي وغيرهم.

رد السيد ولد أباه بمقال بعنوان "عوض القرني: ميزان يحتاج لميزان"، ونعت كتاب القرني بأنه ذو هشاشة خطيرة، لأنه كان يكفر ويخرج الناس من مللهم.

عدّ الكتاب من قبل كثير من الجمهور بأنه وسيلة مهمة في فهم الحداثة ومعرفة أصولها. امتنع الدكتور عبدالله الغذامي عن الرد عليه، لأنه يراه عالمًا شرعيًا، لكنه جاهل بالأسس العلمية للحداثة ومقوماتها. وفي 2016 هاجم الدكتور عبد الله الغذامي الداعية عوض القرني ووصفه بالـ«جاهل»، موضحًا أنه «جاهل بالحداثة، كما أنا جاهل بالشريعة». واتهم كتاب القرني (الحداثة في ميزان الإسلام) بـ«كتاب في التجهيل، وغش للثقافة». وقال الغذامي «إن هذا الفعل لا يجوز أمام الله، وعليه أن يتقيه».



6

الكتاب: أطياف الأزقة المهجورة

العدامة، الشميسي، والكراديب

المؤلف: تركي الحمد

تاريخ النشر: 1996-1997-1998

ثلاثية الروائي السعودي تركي الحمد، وهي: العدامة، الشميسي، والكراديب، تحكي قصة هشام العابر، الذي عاش تحولات أفضت به إلى السجن، بعد دخوله في تنظيمات سياسية. منعت الرواية من التداول في السعودية آنذاك، بسبب رأي البعض بأنها تجاوز الخطوط الحمراء، خصوصًا على المستوى السياسي. ويعود جزء من أهميتها في تناول الحراك اليساري والهم السياسي والوضع الاجتماعي، في ثلاث مدن مركزية.

أثارت الرواية جدلاً كبيرًا في الشارع السعودي بعد أن تعرض الكاتب في رواياته الثلاثة للدين والسياسة والجنس، كانت هناك ردة فعل ضد الثلاثية والكاتب حتى امتدت أن أصدر بعض الشيوخ بفتوى تكفيره.



7

الكتاب: بنات الرياض

المؤلف: رجاء الصانع

تاريخ النشر: 2007

على الرغم من أن هذه الرواية في نظر كثير من النقاد والقراء عادية فنيًا، فهي من الروايات الأكثر انتشارًا وجدلاً وقراءة.

كُتب عنها عدد كبير من المقالات في العالم العربي، وبين نسخها التي نفدت عشرات المرات، وبين مقدمة الدكتور غازي القصيبي المشجعة على الغلاف الخلفي للرواية، كانت "بنات الرياض" تمد وتنتشر أكثر فأكثر.

يرى النقاد أن هذه الرواية فتحت نافذة جديدة وواسعة رغم عاديتها، وأنها تشكل علامة في بدء الطفرة الروائية السعودية الشهيرة، وأن موضوعها، فضلاً عن عنوانها، كان عاملاً مهمًا في انتشارها، إذ تكشف الصانع فيها عن ذلك المسكوت عنه في مجتمعات النساء في الرياض وغيرها.



8

الكتاب: ساق الغراب

المؤلف: يحيى أمقاسم

تاريخ النشر: 2008

حظت هذه الرواية باهتمام نقدي لافت، نظرًا لقوة العوالم التي طرحتها الرواية، إلى جانب الجماليات المميزة، التي قصد الكاتب الاشتغال عليها.

تحكي هذه الرواية عن تنازل عشائر "عصيرة" النازلة بـ"وادي الحسيني" عن قيادة الشمل لصالح سلطة "الإمارة" الجديدة الوافدة من الشمال؛ كما تحكي عن ضرورة المناصفة بين المرأة والرجل.

كتب عن هذه الرواية الكثير من المقالات النقدية والأدبية سواء داخل السعودية أو خارجها وتناولها الكثير من الكتاب والمفكرين منهم الأديب والشاعر الدكتور "غازي القصيبي" رحمه الله: «إنّ هذا التسجيل الروائي الفني لمنطقة ومرحلة مجهولتين في تاريخنا، عند عامتنا، عمل يستحق الإشادة، لا من ناحية تفوقه الفني؛ بل لكونه عملاً رائدًا لم تعرفه الرواية السعودية، حتى الآن، في كتابة الرواية التاريخية.



التعليم ترياق التطرف

غوردون براون

رئيس وزراء بريطانيا الأسبق

لا يستطيع أي زائر للشرق الأوسط أن يتحاشى الانتباه إلى الفجوة المتزايدة الاتساع بين التطلعات التعليمية، والتجارية، والمهنية لشباب المنطقة والواقع القاسي الذي يحرم الكثير منهم من مستقبل إيجابي بنّاء، والواقع أن نصف من ينتمون إلى الفئة العمرية من 18 إلى 25 عامًا في الشرق الأوسط عاطلون عن العمل أو يزاولون أعمالاً ثانوية في بطالة جزئية.

وتتفاقم خطورة هذا الوضع بفعل أزمة اللاجئين العالمية، التي أدت إلى نزوح نحو 30 مليون طفل، منهم ستة ملايين من سوريا وحدها، والأرجح أن قلة قليلة منهم ربما يعودون إلى ديارهم خلال سنوات عمرهم المدرسية. وليس من المستغرب أن يرى تنظيم الدولة الإسلامية (المعروف في المنطقة باسم داعش) في هذا العدد الهائل من الشباب المحرومين الساخطين القدرة على إيجاد أرض خصبة للتجنيد.

يسيء المروجون لتنظيم داعش استغلال وسائل الإعلام الاجتماعية على نفس النحو الذي أساء به أسلافهم ومعاصروهم من المتطرفين استخدام المساجد في بعض الأحيان .. كمنتدى للتطرف، وتنشر هذه الجماعة بشكل مستمر محتوى يتحدى إمكانية التعايش بين الإسلام والغرب، ويدعو الشباب إلى الجهاد.

ولا تخلو مقاطع الفيديو التي تتسم بالعنف بدرجة بشعة من عنصر جاذبية الصدمة، بيد أن ما يجتذب الشباب الساخطين حقًّا هو الدعوة الموجهة إليهم للانضمام إلى كيان يبدو أكبر من أنفسهم والمجتمعات التي يعيشون فيها، ويحدد شيراز ماهر من المركز الدولي لدراسات التطرف في كينجز كوليدج بمدينة لندن خيطاً مشتركاً من المشاعر بين المجندين: "السخط المبرر أخلاقيًّا، والتمرد، والشعور بالاضطهاد، ورفض التكيف". وكما يخلُص تقرير حديث صادر عن مؤسسة كويليام، فإن تنظيم داعش يستفيد من رغبة الشباب في الانتماء إلى كيان ذي شأن ويستحق العناء؛ فالجاذبية المثالية التي يتمتع بها تنظيم داعش هي العنصر الأكثر إغراءً في نظر المجندين الجدد.

وعلى هذا فإن قليلين قد لا يوافقون على أننا نجد



أنفسنا الآن في معركة بين الأجيال للفوز بالقلوب والعقول التي لا يمكن الفوز بها بالسبل العسكرية وحدها. فربما تكون القوة الصارمة قادرة على القضاء على قادة داعش المتشددين، ولكننا في احتياج إلى ما هو أكثر من ذلك لإقناع ما يقرب من 200 مليون شاب مسلم بأن التطرف طريق مسدود حرفيًا.

هناك العديد من الأمثلة لعمليات تجري في هدوء لمكافحة التطرف في شبه القارة الهندية والشرق الأوسط: مجلات الأطفال في باكستان، ومقاطع الفيديو التي تستهدف المراهقين في شمال أفريقيا، والمحطات الإذاعية في الشرق الأوسط، والكتب والمنشورات المعارضة لتنظيم القاعدة. وكل هذا من الممكن أن يساعد في كشف الحقائق عن الحياة في داعش .. فهي حياة وحشية فاسدة وميالة إلى التطهير الداخلي .. على أكثر من نحو، بما في ذلك لفت الانتباه إلى الانشقاقات. وكما يذكر تقرير صادر في عام 2014، فإن "مجرد وجود المنشقين يهدم صورة الوحدة والعزم التي تسعى الجماعة إلى نقلها للناس".

ولكن ينبغي لنا أن نكون أكثر طموحًا إذا كان لنا أن ننتصر في حرب الأفكار، من خلال مؤازرة وتعضيد المساحة الثقافية التي يسميها تنظيم داعش "المنطقة الرمادية"، والتي يتوق إلى تدميرها. فهي المساحة حيث يستطيع المسلمون وغير المسلمين أن يتعايشوا، وأن يكتشفوا قيمهم المشتركة ويتعاونوا. وقد اقترح بيتر نيومان، مدير المركز الدولي لدراسات التطرف والعنف السياسي، إقامة مسابقة على موقع يوتيوب لمقاطع الفيديو التي تشرح إخفاقات تنظيم داعش. ويقول نيومان: "قد تسلم أكثر من خمسة آلاف مقطع فيديو في لمح البصر، وقد يكون أربعة آلاف منها بلا قيمة، ولكن الألف المتبقية قد تكون حقيقية ومؤثرة .. ألف مقطع فيديو ضد آلة داعش الدعائية".

بيد أن أفضل وسيلة طويلة الأمد لمكافحة التطرف هي التعليم. في مختلف أنحاء لبنان يجري تدريس مناهج مدرسية مشتركة تناصر التنوع الديني .. بما في ذلك "رفض أي شكل من أشكال التطرف والعزل الديني أو الطائفي" .. للأطفال من السُّنَّة والشيعة والمسيحيين، بدءًا من سن التاسعة. كما أقرت لبنان نظام الفترتين في مدارسها لاستيعاب نحو 200 ألف طفل من اللاجئين السوريين.

وإذا كان بوسع لبنان، البلد الذي يعاني من الاضطرابات والذي دمره العنف الطائفي والانقسامات الدينية، أن يناصر التعايش ويزود اللاجئين السوريين بالفرصة للدراسة، فلا يوجد من الأسباب ما قد يمنع أي بلد آخر في المنطقة من السير على خطاه.

الواقع أن الاختيار هنا شديد الوضوح. فبوسعنا أن نقف مكتوفي الأيدي ونشاهد جيلاً جديدًا من الشباب المسلمين المخضرمين في استخدام شبكة الإنترنت وقد غمرتهم ادعاءات كاذبة بأن الإسلام غير قادر على التعايش مع القيم الغربية. أو يمكننا أن ندرك أن الشباب في الشرق الأوسط وبقية العالم الإسلامي يشاطرون الشباب في مختلف أنحاء العالم الطموحات والتطلعات نفسها.

تشير كل الأدلة إلى أن الشباب في المنطقة يريدون التعليم، والعمل، والفرصة لتحقيق أقصى استفادة ممكنة من مواهبهم. وفي عام 2016، ينبغي لنا أن نعقد النية والعزم على إعانتهم بقوة لتحقيق هذه الغايات.

المصدر:

Project Syndicate

ولا تخلو مقاطع الفيديو التي تتسم بالعنف بدرجة بشعة من عنصر جاذبية الصدمة. بيد أن ما يجتذب الشباب الساخطين حقًا هو الدعوة الموجهة إليهم للانضمام إلى كيان يبدو أكبر من أنفسهم والمجتمعات التي يعيشون فيها

ولكن ينبغي لنا أن نكون أكثر طموحًا إذا كان لنا أن ننتصر في حرب الأفكار، من خلال مؤازرة وتعضيد المساحة الثقافية، التي يسميها تنظيم داعش "المنطقة الرمادية"، والتي يتوق إلى تدميرها



فيكتور فازاريلي

رائد فن الخداع البصري OP-art

خاص - فكر

فيكتور فازاريلي، فنان تشكيلي فرنسي من أصول مجرية، كان من بين أهم فناني القرن العشرين، ولد فازاريلي في بيكس بالمجر في التاسع من نيسان/أبريل 1906، وفي العشرين من عمره بعد دراسته في الطب عقبها فشل آخر في أن يتلقى تعليمًا يؤهله ليكون مساعد محاسب، دخل أكاديمية موهلي ببودابيست، وهناك تلقى دروسًا على يدي ساندور بورتريتك المختص في فنون مدرسة البهاوس الألمانية، التي تشمل اهتماماتها ميادين الرسم والهندسة المعمارية والديكور بلغة تجديدية، كتلك التي نعرفها عند أحد أهم روادها بول كلي.

وفي عام 1930 ترك المجر واستقر في باريس، ليعمل فنانًا جرافيكيًا واستشاريًا لوكالة الإعلانات هافاس، دريجر ودبفامبيه (1930-1935).

يعد أول من ابتدع فن الخداع البصري Op-Art، عندما أبدع ما عُدّ أول عمل في الخداع البصري، وسماه زيبرا (أي الحمار المخطط) وكانت تتألف من خطوط متموجة سوداء وبيضاء، وقد أعطى ذلك العمل الاتجاه الذي تبعه فازاريلي، فعلى مدى العقدين التاليين طور فازاريلي أسلوبه في الفن التجريدي الهندسي، حققت أعماله له شهرة عالمية، وحصل على أربع جوائز مرموقة، وتبعه في مدرسته هذه كثير من الفنانين، أهمهم بريجيت رايلي الإنكليزية التي ابتدعت عددًا من الأعمال الضخمة التي تبدو وكأنها متحركة، انتشرت أعمال أصحاب هذا الاتجاه، ونفذت تصاميمهم وأعمالهم في أشياء كثيرة، كالملابس والأثاث وغير ذلك، وعلى الرغم من مرور أكثر من عقدين كاملين على اكتشاف هذه المدرسة، إلا أن كثيرًا من الفنانين اليوم لا يزالون يمارسون فن الخداع البصري.

شارك سنة 1944 بتأسيس صالة عرض (دنيز رونيه)، التي دشنها بأول معرض له.

في العام 1969 سمحت السلطات الشيوعية بتقديم أعماله في بودابست للمرة الأولى، فالفن التجريدي كان

ممنوعًا في تلك الحقبة، لكن أعمال فازاريلي المطبوعة كانت في متناول الجميع، لهذا السبب تقبل النظام الشيوعي أعمال فازاريلي.

بعد معرض العام 1969، انتشرت أعمال فازاريلي في بودابست حيث كانت تزين منازل المثقفين والموظفين الكبار من البوستر، وأقمشة المنازل، والبرادي، والسجاد، إذن حلم فازاريلي تحقق في المجر، فهو أراد أن يكون الفن في متناول الجميع، وأن يكون المنزل مساحة للفن، وهذا ما حصل في المجر مع فازاريلي".

وفي باريس استقر في قصر (غورد)، ودشن سنة 1970 متحف (فازاريلي) التعليمي، الذي يضم أكثر من 550 لوحة للفنان، كما افتتح سنة 1976 مؤسسة فازاريلي في (إكس – إن – بروفنس)، وافتتح في السنة نفسها متحف فازاريلي في باك في هنغاريا، كما تنتشر لوحاته في معظم متاحف الفن الحديث في العالم.

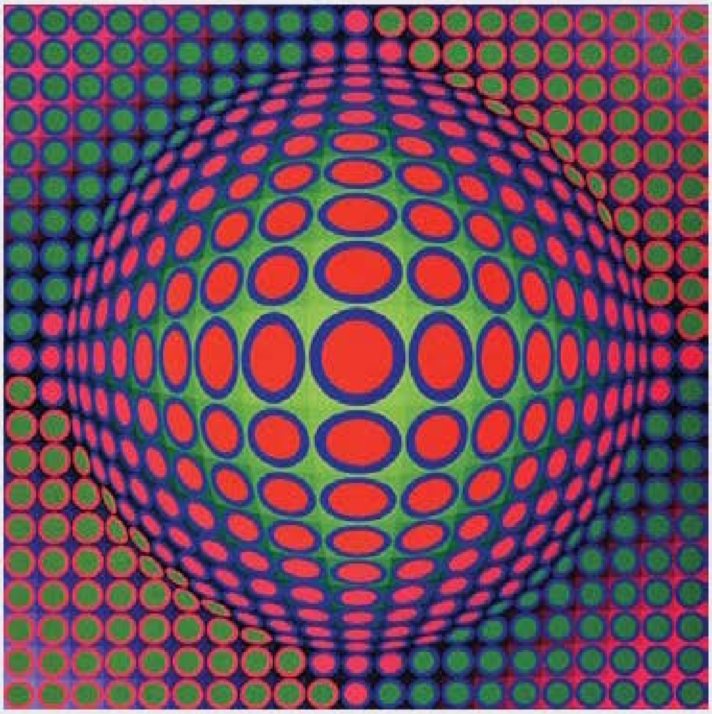
أعماله التي تعتمد على الأبعاد البصرية استطاع من خلالها أن يضع المشاهد أمام لوحات هندسية تترك للعين حرية اختيار الزاوية لتخيل الأشكال التي أراد الفنان بناءها في لوحاته، وهو برع في تجسيد أشكال هندسية وهمية معتمدًا على التلاعب مع الزوايا البصرية.

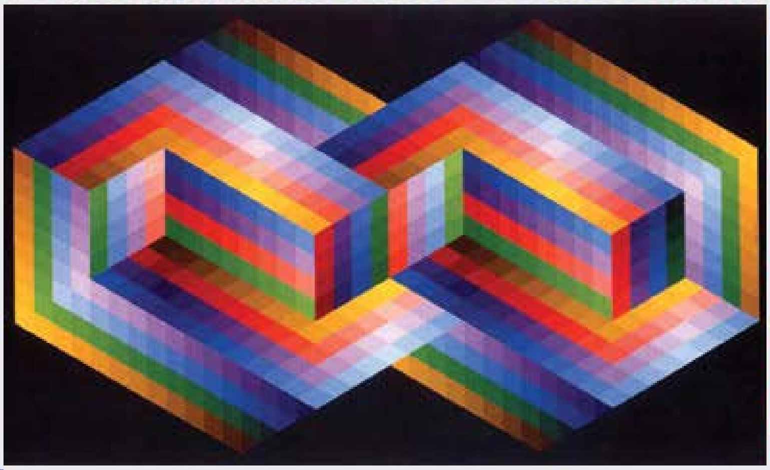
بعض أعمال فازاريلي













دوسلدورف سحر الراين

سما يوسف
جدة

عند عودتي من مدينة فانكوفر بكندا وعلى الخطوط الألمانية توقفت بنا الرحلة في مدينة (دوسلدروف)

هي العاصمة الألمانية لولاية شمال الراين وستفاليا، وسط منطقة العاصمة الراين، التي يبلغ عدد سكانها 11 مليون نسمة. تشتهر دوسلدورف بالأعمال التجارية الدولية والمركز المالي، كما تشتهر بالأزياء والمعارض التجارية.

وتشتهر دوسلدورف ثقافيًا بأكاديمية الفنون الجميلة (أكاديمية فنون بدوسلدورف، مثل جوزيف بويس، ايمانويل لويتز، غيرهارد ريختر، زيجمار بولكي وأندرياس غورسكي)، بما لها تأثير ريادي على الموسيقى التجريبية (كرافتفرك)، وبما لها التأثير الكبير نسبيًا على المجتمع الياباني، وتتميز دوسلدورف بأنها المدينة على نهر الراين، وهي معقل للاحتفالات وللكرنفال المتعلق بنهر الراين، كل عام في شهر يوليو يقبل أكثر من 4.5 مليون شخص لزيارة أكبر معرض في مدينة الراين.

ميسي دوسلدورف يدعي تنظيم ما يقرب من خمس معارض تجارية رائدة لكل العالم.

دوسلدورف هي المدينة الأكثر اكتظاظًا بالسكان وسادس مدينة في ألمانيا من حيث عدد السكان داخل حدود المدينة وسكان المنطقة الحضرية من 1.5 مليون، في 2012.

تقع دوسلدورف في وسط حوض الراين السفلي، حيث دلتا نهر دوسيل الذي يصب في نهر الراين، وتقع المدينة على الجانب الشرقي من نهر الراين، باستثناء حي 4 (Heerdt ، Niederkassel ، Oberkassel وLörick). عبر نهر الراين، ومدينة نويس التي تقف على دلتا نهر Erft ، وتقع دوسلدورف إلى الجنوب الغربي من منطقة الرور الحضرية، وفي منتصف منطقة العاصمة الراين والرور.

بنيت دوسلدورف كليًا على الطمي والطين والرمل والحصى.

أعلى نقطة في دوسلدورف هي أعلى السانديرج في الجزء الشرقي بعيدًا من المدينة والممتد نحو 165 متر (541 قدم)، وأدنى نقطة هي في الطرف الشمالي بعيدًا عن بلدة Wittlaer .





المدن والمناطق المجاورة

المناطق والمدن التالية على حدود دوسلدورف (بدءًا من الشمال): مدينة دويسبورغ، ومقاطعة ميتمان (هيلدين، ميتمان، إيركرات، هيلدين، انفينفيلد، ومونهايم)، ومقاطعة نويس (Dormagen، نويس، وميربوش).

اقتصاديًا

أصبحت دوسلدورف واحدة من مراكز الاتصالات الكبرى في ألمانيا مع اثنين من أربعة لمقدمي ترددات الهواتف المحمولة الألمانية، وتقود دوسلدورف سوق الهاتف المحمول الألماني، وهناك العديد من المراكز التجارية للأجانب في دوسلدورف مثل NTT، أريكسون، سانديك، ونوكيا، وGTS.

هناك 18 شركة من مقدمي خدمة الإنترنت التي تقع في عاصمة ولاية شمال الراين ويستفاليا.

وفي عالم شركات الطيران، هناك شركة يورو وينجز ومقرهما في المدينة.

في عالم الإعلان: وهناك 400 من وكالات الإعلان في دوسلدورف، بينهم ثلاثة من أكبر الشركات في ألمانيا: مجموعة BBDO ويوبليسيس، وهناك عدد من الشركات التابعة لوكالات الأجنبية، مثل أوجلفي آند ماذر، دنتسو، Hakuhodo، وDDB، وهناك أيضًا حوالي 200 دار نشر في دوسلدورف، ونحو 170 من المؤسسات الوطنية والدولية المالية، وحوالي 130 من وكالات التأمين، وهي واحدة من أكبر البورصات الألمانية، بالإضافة إلى العديد من الشركات الكبرى الأخرى التي لها مقر في المدينة.

اللغة

اللغة الرسمية هي اللغة الألمانية، على الرغم من أن المدينة هي موطن لعدد كبير من الأجانب (حوالي 17٪ من مجموع السكان)، كما تستخدم دوسلدورف للأقليات لفئات أخرى مثل: اللغة الإنجليزية والتركية والإيطالية واليونانية واليابانية.

تضم المدينة إحدى الشركات العالمية المهمة لمركزها المالي مقارنة إلى المدن الرئيسية في العالم مثل لندن أو باريس، كما إنها من المدن المزدهرة مع القاعدة الاقتصادية القوية والحياة الثقافية النابضة بالحياة، والمرافق الصحية والتعليمية الممتازة.

وتنقسم المدينة إلى عشر مقاطعات إدارية، مع كل منطقة ذات مجلسها المنتخب من حي ورئيس البلدية، مجالس المنطقة الاستشارية تدار من قبل مجلس المدينة التي يقودها رئيس بلدية المدينة.

وتخضع دوسلدورف حاليا من قبل الائتلاف المسيحي للاتحاد الديمقراطي في ألمانيا (الحزب الديمقراطي المسيحي) والحزب الديمقراطي الحر (FDP)، وعمدة دوسلدورف الحالية هي Dirk Elbers (الحزب الديمقراطي).

السياحة

دوسلدورف هي عاصمة ولاية شمال الراين في قلب أوروبا، التي يقبل إليها الكثير من المقيمين والزوار.

ويمكنك اكتشاف دوسلدورف من الفن، والأعمال التجارية ونمط الحياة المتعلقة بنهر الراين – دوسلدورف وبما لديها الكثير لتقدمه من الفن المدهش والهندسة المعمارية وأماكن التسوق.

وتعد دوسلدورف القوة الاقتصادية الإقليمية التي تمتد على ضفاف نهر الراين. التشتات ليست مجرد مدينة دوسلدورف الجميلة القديمة، ولكنها أيضًا تمتد إلى الحياة الليلية في المدينة، فهناك شارع التسوق الشهير في دوسلدورف، بما لديه العديد من المتاجر الراقية، ومتحف الفنون بالاست بما لديها من أفضل المجموعات الفنية في راينلاند .

إليكم لمحة سريعة عن الأماكن السياحية في دوسلدورف



والتي تجذب العديد من الزوار إلى دوسلدورف:

المدينة القديمة

تقع وسط دوسلدورف في ألتشتات (المدينة القديمة)، التي تقع بين شارع التسوق Königsallee ونهر الراين، ألتشتات هو نقطة انطلاق مثالية لاستكشاف دوسلدورف، والتعرف على المدينة، ومن أبرز معالم البلدة القديمة هي ساحة Burgplatz مع برجها للقصر القديم.

الميناء الصناعي

تحول الميناء الصناعي سابقًا بمدينة دوسلدورف إلى ملعب للمهندسين المعماريين المعاصرين مثل ديفيد شيبرفيلد أو Cloud Vasconi.

نزهة في نهر الراين

للحصول على متعة زيارة البلدة القديمة يمكنك التجول على كورنيش نهر الراين المعبد، وفي عطلة نهاية الأسبوع، يحظر مرور السيارات في الشارع منذ بضع سنوات ليقبل العديد من الزوار للتجول مع عربات الأطفال، وهناك يمكن مشاهدة برج الراين بطول 565 أقدام، الذي يوفر مناظر رائعة للمدينة وللمناطق المحيطة بها.

إلى جانب بُعدها السياسي والاقتصادي، تعد دوسلدورف مثالاً على التنوع الثقافي والحضاري في ألمانيا، وقد اكتسبت هذه المدينة أهميتها الثقافية من خلال المتاحف والمعارض والمباني التاريخية العريقة التي تنتشر فيها والتي يرجع إنشاؤها إلى العصور الوسطى.

تعيش في المدينة جالية أمازيغية كبيرة، ويُمكنك تلمّس ذلك في الحي الريفي الأمازيغي الواقع خلف محطة القطار الرئيسية، الذي يعج بالمحلات والمطاعم الريفية.



Kunstakademie المعروفة بـ(أكاديمية الفنون)

وبالإضافة إلى آلاف السياح الذين يزورون دوسلدورف على مدار العام، وآلاف المهاجرين الأمازيغ والأتراك والأفارقة المقيمين على أراضيها، يقطن بالمدينة نحو 7000 ياباني يضفون صبغة آسيوية عليها، حتى إن بعض الناس في ألمانيا باتوا يطلقون على دوسلدورف مازحين لقب "عاصمة اليابان على نهر الراين".

المتاحف الفنية

دوسلدورف هي موطن لـ Kunstakademie المعروفة بـ(أكاديمية الفنون)، وهي جزء لا يتجزأ من المشهد الفني في المدينة لتخرج أمثال جوزيف بويس، وجيرهارد ريختر.

وبطبيعة الحال، ليس هناك نقص من المعارض ذات المستوى العالمي والمتاحف، ويمكن التمتع بمشاهدة معارض الفن المعاصرة، ومتحف قصر الفن للفنون الجميلة من العصور القديمة الكلاسيكية.

متحف كونستال دوسيلدورف:

هو من أقدم وأشهر متاحف الفنون المعاصرة في المدينة، والذي قام بتشييده المهندسان المعماريان كونراد بيكمان وبروكس في عام 1967م، والذين راعوا في بنائه استخدام كتل خرسانية جاهزة لظروف اقتصادية بحتة.

متحف غوته Goethe Museum:

يقع هذا المتحف في قصر ياغيرهوف الذي يعود بناؤه

إلى عام 1772م، ويعد من أشهر المتاحف التي تزخر بها هذه المدينة. والمتحف يضم نحو 1000 قطعة موزعة على 11 غرفة، والتي تمثل أهم المقتنيات الشخصية لعميد الأدب الألماني الشاعر يوهان فولفغانغ فون غوته، ومنها الطبعات الأولى لأعماله الشعرية التي تم حفظها في خزائن زجاجية، إلى جانب المخطوطات والرسائل الأصلية التي كتبها غوته إبَّان حياته.

كما يضم المتحف صورًا للمدن والمناظر الطبيعية، حيث ألّف فيها غوته أشهر مؤلفاته، بالإضافة إلى صور تذكارية كانت قد التقطت للشاعر مع بعض أصدقائه. كما يتيح المتحف لمرتاديه فرصة التمتع بلوحة زيتية تجسّد مشاهد من قصة غوته الخالدة، التي تحمل عنوان "فاوست".

Benrath Palace – قصر بنراث:

قصر بنراث وهو القصر الذي يتكون من 3 مبان رئيسية (المتاحف) وحديقة ضخمة – حديقة مع البحيرة.

الراين – راين: بعد الحرب، في عام 1946، منحت دوسلدورف وضع عاصمة دولة في المنطقة التي أنشئت حديثًا في شمال الراين وستفاليا.

متحف المدينة Stadtmuseum:

يعد هذا المتحف من أقدم المتاحف في دوسلدروف. وقد أعطى التبرع بإحدى اللوحات الزيتية من مقتنيات بلرونة شتوتيرهايم في عام 1873م، الدافع الأساسي لتأسيسه. توثق معروضات متحف المدينة الذي يشتمل على ثلاث طوابق، مراحل التطور التي شهدتها مدينة دوسلدورف منذ نشأتها وإلى يومنا هذا.

متحف الفن الحديث:

هذا المتحف يقدم لك الفن الحديث في القرن الـ21.

كنيسة القديس Lambertus:

الكنيسة سانت Lambertus تتميز بالهندسة المعمارية للقرن الـ14، وهي رمز حقيقي للمدينة.

متحف Löbbecke – Aquazoo:

وهو المتحف الذي يضم مجموعة واسعة من الحياة المائية والحيوانات من مختلف أنحاء العالم.

Nordpark: وهي واحدة من أجمل الحدائق الكاملة مع حدائق الزهور والنافورات ومنطقة للمشي.

HOFGARTEN: هي الحديقة الأكثر مركزية والكبرى في دوسلدورف.

كنيسة القديس أندرياس: بنيت هذه الكنيسة في 1629 والتي تتمتع بتصاميم داخلية مذهلة ومزخرفة.

يحتاج السفر إلى دوسلدورف إلى الحصول على تأشيرة دخول، ينبغي التحقق من صلاحية جواز السفر الحالي. جميع المسافرين بحاجة إلى جواز سفر صالح لمدة 90 يومًا على الأقل بعد تاريخ المغادرة. ومع ذلك، فإننا نوصي بشدة للسفر خلال ستة أشهر من صلاحية جواز السفر في كل الأوقات.


متحف غوته


متحف المدينة


جانب من أماكن الترفيه على نهر الرين



عقد الفل الجازاني إبداع وجمال



حسن محمد النعمي

لكل شعوب الدنيا تراثها وإرثها الثقافي الخاص بها، وهي فقط من تتميز به خلاف غيرها من الشعوب الأخرى ولهذا الإرث الثقافي ارتباط بثقافة كل شعب من هذه الشعوب.

ويشكل الماضي دائمًا حضوره برغم الصور العصرية المختلفة التي تتمثّل في العديد من الأنماط الحياتية وثقافة أطواق الفل الأبيض (القريشي) في جازان وفل (عزان) من الثقافات التي تتميز بها جازان؛ فهم ابتكروا لها أشكال واستخدامات لا تخطر على بال عاقل ولا مجنون.

من جازان نرسل لكم دعوة إلى التعرف على البساطة، وإلى اكتشاف الأسرار في ثقافة أطواق الفل. دعوة مجانية إلى ماضٍ تهادى بثقله على موروثات ثقافية تراثية تروي بصمتها العميق ألف حكاية وحكاية من حكايات ذلك الزمن الغابر. وهذه الأيام الحاضرة بكل ما بها من تغيرات وتقدم وحضارة.

يعد الفل من النباتات العطرية التي عرفت وتشتهر بزراعتها منطقة جازان، حتى ارتبط كل منهم باسم الآخر.

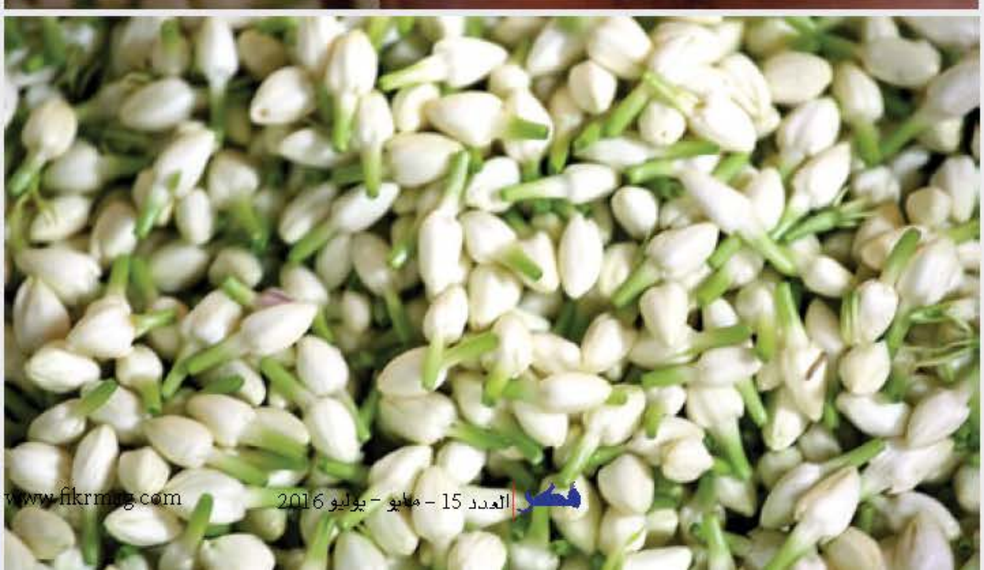
ويعتني المزارعون في منطقة جازان بهذه النبتة، حيث يبدأ المزارع في زراعة "ردائم الفل" في فصل الربيع لانخفاض درجات الحرارة للتعهد بعد ذلك أشجار الفل "الردائم" بالري وبناء بيت من ألواح الخشب المربعة، وذلك للسماح لها بالنمو والتسلق، وهي تكبر، وليتمكن المزارعون من رؤية حبات الفل من كافة جوانب (الرديمة).

وليس المزارعون فقط في جازان من يزرعون (ردائم) الفل بل إن السيدات في جازان يحرصن على زراعة أشجار الفل في مداخل المنازل وحدائقه بما يزيد من جمال المنزل ويسهم في بث رائحة الفل العطرية بأجواء المنزل وداخل أسواره.

تبدأ رحلة حبة الفل من مزارع الفل الحديثة ومن منازل السكان الذين لازالوا يعتنون بزراعة شجرة الفل (القريشي) خاصة في سهل تهامة، فتجد في كل منزل شجرة فل أو أكثر يتم جني محصولها من حبات الفل، ثم ترسل مباشرة إلى الأسواق القريبة، ومن أشهر تلك الأسواق سوق الأربعاء في محافظة أبوعريش وسوق الأحد في محافظة الأحد وسوق الثلاثاء في مدينة صبيا، وعلى مدار الأسبوع في عاصمة المنطقة جازان، وغيرها من أسواق المنطقة كسوق الخوبة والعارضة وبيش والدرب وأسواق المناطق الجبلية، ثم يتم أخذ حبات الفل إلى متخصصين ومتخصصات لعمل أطواق الفل وأشكال جمالية رائعة، فتنظم على شكل سبح توضع على رؤوس النساء في أشكال بديعه، ومنها (كباشة) الفل وهي نوع من عقود الفل تنظم بشكل جميل، وتأخذ وقتًا في نظمها وتحضيرها، وتأخذ كمية أكبر من حبات الفل، وتكون بأطوال متناسقة فبعضها قد يصل قطره لأكثر من مترين تزين بالورود الجميلة، وبعض من







النباتات العطرية لتضفي على المكان رائحة الطبيعة والذوق الجازاني البديع، وكل تلك الطقوس من أجل جمال حواء في جازان، فهي محور اهتمام الرجل الجازاني، يوفر لها في المناسبات كل تلك الروائح والأزهار، لتبدو كباقة فواحة بين النساء، وقد طغت أشكال جديدة على عقود الفل ونظمها، وتخصص فيها متعهدون وعمال يقومون بكل تلك الأعمال الإبداعية، ثم تباع في الأسواق ويقبل على شرائها سكان منطقة جازان خلال مواسم المناسبات والعطلات، حيث تكثر مناسبات الزواج والأفراح فيلبسها العرسان، وتهدى إليهم من قبل الأصدقاء، أما العروس الجازانية فتبدو كشجرة فل من خلال التسريحات بالفل.

وعمل الأطواق الجميلة التي تعبر عن تراث لا ينساه سكان جازان، ويتوارثه الأجيال جيل بعد جيل، مع محاولة جعله يتماشى مع الواقع المعاش، ومع رتم الحياة الحضارية السريعة، وهناك أطواق فل (عزان)، وهو نوع من الفل يكثر في المناطق الجبلية، ويستخدمه الرجال والشباب غالبًا، له رائحة ذكية، ولونه يميل للون الأصفر مع كبر حباته وجمال منظرها، يوضع على شكل عصابة، توضع على الرأس، وهي طريقة من التراث لدى سكان تلك الأماكن الجبلية، وقد يضيفون إليه زهرة النرجس، وقد عرفوا بها وما زالوا محافظين عليها من باب التراث والزينة.

وهناك طقوس أخرى للفل في جازان تستخدم حسب المواسم المناخية، وتوفر زهرة الفل الأبيض (القريشي)، وهو الشائع استخدامه بين سكان المنطقة.

والفل في جازان هو المدعو الوحيد في مختلف المناسبات، الذي لا يحتاج لدعوة للحضور، بل هو الضيف الأول والأساس في مناسبات الأفراح والأعياد واستقبال الضيوف والاحتفاء بالمواليد، وفي مختلف المناسبات، وهو من الهدايا ذات القيمة العالية التي تقدم لضيوف جازان وأبناء المنطقة.



مكتبة القرويين .. ذاكرة التراث المكتوب في فاس

خاص - فكر

إلى جانب المآثر التاريخية والمعمارية التي تؤثث مختلف الثنايا والأزقة الضيقة لمدينة فاس العريقة، فإن هذه الحاضرة تتوفر على تراث ونفائس أخرى، خاصة منها التراث المكتوب الذي يتضمن العديد من المخطوطات والوثائق النادرة في مكتبة القرويين.

وتشكل خزانة القرويين بمدينة فاس تراثًا معرفيًا وحضاريًا خصبًا، ووجهة علمية فريدة للباحثين العرب والأجانب، الذين يشدون إليها الرحال للنهل من علمها.

تخضع مكتبة القرويين إلى عملية ترميم، انطلقت منذ سنة 2012، بعد أن تضررت بعض المخطوطات الثمينة، التي تعود إلى القرن السابع بفعل الرطوبة.

وقد تم تجميع هذه المخطوطات والنفائس منذ عدة قرون بمكتبة القرويين، التي تعد من بين أقدم المكتبات في العالم باعتبار أن تاريخ تأسيسها يعود إلى القرن الثامن للهجرة؛ حيث كانت في البداية مكتبة صغيرة أنشئت إلى جانب جامع القرويين، لمساندة مهمته في التدريس إلى أن قام السلطان أبو عنان المريني بالاعتناء بها رسميًا عام 750 هـ/1349 م، ووضع لها قانونًا للقراءة والمطالعة والنسخ، وزودها بكتب نفيسة في مختلف العلوم والفنون.

وقد أضاف إليها السعديون خلال القرن الـ16 الميلادي كتبًا كثيرة، نقلوها من الخزانة المرينية بالمدينة نفسها، وأغنوها بمخطوطات ووثائق فريدة فتجاوزت محتوياتها 32 ألف مجلد سنة 1613. كما حافظت المكتبة الفريدة بفضل نظامها المحكم على رصيدها العلمي، الذي يضم فيضًا من المؤلفات والمخطوطات لكبار علماء المغرب الإسلامي كابن طفيل وابن رشد الذي اشتهر بمؤلفاته الجمة في العهد الذهبي ليعقوب المنصور. وزينت قبة المكتبة بزخارف جصية وخشبية منقوشة على الطراز الفني الأصيل، تفصح عن مدى تأثر الفن المعماري المغربي بالإبداع الأندلسي الرفيع، الذي يزهر في بيوت ومساجد المغرب الأقصى بتاريخ مجيد، كما تتمتع المكتبة بفضاءات ساحرة مزهوة بالزخرفة الإسلامية الصوفية والفسيفساء ما يعطي للمكان قيمة تراثية عالية.

وتضم المكتبة (الخزانة) التي يقترن اسمها بجامع القرويين، بوصفها ظلت لقرون عديدة تحتل جناحًا داخل هذا الجامع الذي يعد من بين أقدم الجوامع في العالم


قاعة المطالعة

العربي والإسلامي، نفائس ثمينة من المخطوطات ورصيدًا من الوثائق النادرة التي لا يوجد بعضها إلا بين رفوف هذه الخزانة العريقة.

وتمثل خزانة القرويين، التي عرفت على مر القرون العديد من عمليات الترميم والتوسيع والإصلاح، وجهة علمية لا محيد عنها للطلبة والباحثين والأكاديميين، سواء من المغرب أو من الخارج، والذين يفدون إليها لنهل العلوم والمعرفة، نظرًا لما تضمه من مخطوطات بعضها فريد من نوعه.

وتتوفر خزانة القرويين على حوالي 21 ألف عنوان مطبوع و4 آلاف مخطوطة مفهرسة بطريقة إلكترونية علمية وحديثة، وهي فهرسة دقيقة وشاملة تهدف بالأساس إلى تسهيل عملية البحث للطلبة والباحثين الذين يقصدون الخزانة لإنجاز أبحاثهم ودراساتهم.

ومن بين الذخائر النادرة من المخطوطات التي توجد في رفوف خزانة القرويين، مصحف كريم نادر يعود إلى نهاية القرن الثاني الهجري وبداية القرن الثالث مكتوب بماء الذهب على رق الغزال بخط كوفي قديم، ولا توجد أي نسخة مطابقة لهذا المصحف الكريم في أي خزانة أخرى سواء داخل المغرب أو خارجه.

وتكمن قيمة الخزانة تكمن في توفرها على أقدم مخطوط ويعود إلى القرن الثاني الهجري وهو كتاب "الصبغ" لأبي إسحاق ابن إبراهيم الفزاري".

كما تتوفر الخزانة على نسخة فريدة من كتاب "العبر" لابن خلدون حبسها شخصيًّا في خزانة القرويين، حين كان يقيم ويدرس بمدينة فاس، وميزة هذه النسخة أنها موقعة بخط يده، وقد تم مؤخرًا اختيار هذا المخطوط من طرف منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) ضمن التراث العالمي الإنساني من خلال برنامج "ذاكرة العالم".

وبالإضافة إلى هذه الدرر والنفائس من المخطوطات التي لا تزال شاهدة على غنى وتفرد الموروث الحضاري لمدينة فاس، تتوفر الخزانة على مخطوط نادر عبارة عن أرجوزة طبية كتبها ابن طفيل، وهي النسخة الوحيدة المعروفة في العالم لهذا المفكر والفيلسوف والطبيب.

وهذه الأرجوزة الطبية التي كتبت بطريقة رجزية، يتطرق فيها ابن طفيل من خلال أبيات شعرية إلى مختلف الأمراض والأسقام التي كانت معروفة في عصره وأعراضها وطرق ووسائل علاجها.

وهناك أيضًا مخطوط لكتاب ابن رشد "البيان والتحصيل" وهي نسخة سلطانية فريدة وجميلة جدًّا مكتوبة على رق الغزال ومذهبة، وتم اعتمادها في تحقيق هذا الكتاب الذي طبع في عدة مجلدات.

ومن بين نفائس خزانة القرويين إنجيل مكتوب باللغة العربية يعود إلى القرن 12 الميلادي، بالإضافة إلى مجموعة من المطبوعات الحجرية القيمة والنادرة التي يقدر عددها بحوالي 600 مطبوع حجري.

وإضافة إلى هذه المخطوطات والمطبوعات الحجرية النفيسة، تتوفر خزانة القرويين على مطبوعات تقدر بحوالي 24 ألف عنوان؛ منها مطبوعات نادرة يصل عمر بعضها إلى حوالي 150 سنة، ومن ثم فقد أضحت في حكم المخطوط باعتبارها غير موجودة في مكتبات أخرى، ولا يمكن للباحث أن يعثر عليها إلا داخل خزانة القرويين، ولذلك ارتأى المشرفون على الخزانة أن تكون الإعارة داخلية، لتفادي فقدان أو ضياع هذه المطبوعات النفيسة.

كما تتوفر الخزانة على عدد لا بأس به مما يطلق عليه اسم "الخروم"، وهي مخطوطات ووثائق نادرة، ولكنها غير مكتملة أو متلاشية أو تنقصها بعض الورقات.

وقد عمد سلاطين المغرب والأمراء والعلماء والعائلات المعروفة بالعلم والفكر والثقافة على مر العصور إلى إثراء محتويات هذه الخزانة، وتزويدها برصيد من الكتب والمؤلفات لكبار علماء ومفكري المغرب والعالم الإسلامي، وذلك من خلال عملية الوقف والتحبيس بهدف إغناء رفوفها وتمكين الطلاب والعلماء والباحثين من نفائس تهم مختلف الحقول المعرفية في الطب والفلسفة واللغة وغيرها.

ومن أجل الحفاظ على هذه المخطوطات القيمة عمد الخبراء إلى تخزينها بطريقة "الميكروفيلم" مما يسهل على الباحثين والطلبة والأكاديميين عملية البحث وكذلك صيانة هذه النفائس من التلف والضياع، كما أن الخزانة مجهزة بأحدث الوسائل التكنولوجية للحفاظ على تلك المخطوطات والوثائق النادرة من الرطوبة والحرائق والسرقة.









ماذا تعرف عن الويب السوداء Dark Web ؟

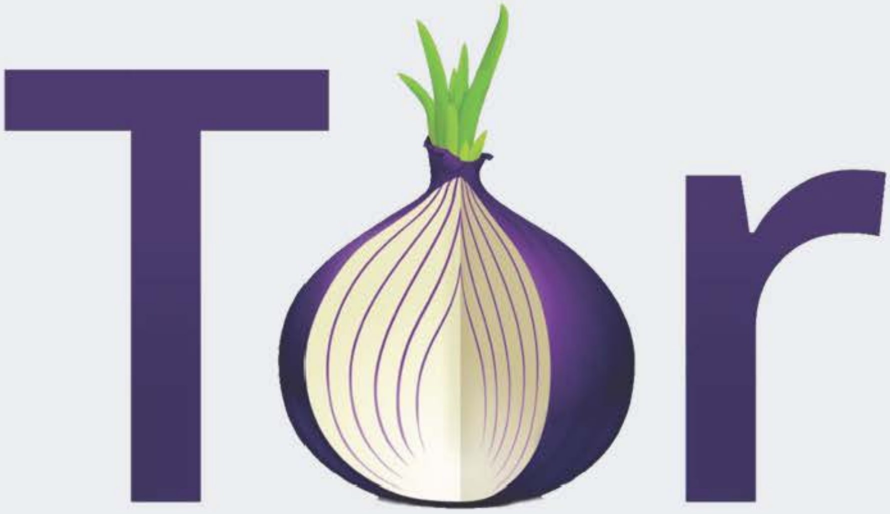
عند بحثك في محركات البحث المعروفة مثل غوغل أو بينغ هل تعتقد بأنك توصلت إلى كل شيء على الإنترنت؟ الإجابة إن محركات البحث هذه لن تستطيع الوصول سوى 16% من محتوى شبكة الإنترنت. وتشير بعض الدراسات إلى أن النسبة لا تتجاوز 4%. فيما تقول دراسة أخرى إنها 1% فقط. بينما أوضحت دراسة أخرى أن أي عملية بحث لا تكشف سوى عمّا نسبته 0.03% فقط من المعلومات على شبكة الإنترنت. والباقي يقبع في الأعماق التي لا تستطيع محركات البحث، بما فيها غوغل، الوصول إلى بياناتها، ومن ثمّ أرشفتها وفهرستها، لتقدم إليك حين تبحث عنها. وبالنسبة لمساحة الشبكة العميقة، فبعض التقديرات تقول إنها أكبر بنحو 550 مرّة من شبكة الإنترنت التي نتعامل معها!

تنقسم الويب إلى طبقات متباينة من حيث إمكانية الوصول إليها: هناك السطح، وهو ما نعرفه عنها، الذي تستطيع محركات البحث "التقليدية" الوصول إليه. الطبقة الثانية وهي الطبقة البينية بين سطح الشبكة وعميقها. هذه الطبقة غالبًا لا تحتوي على ما يثير الارتياب. كل ما في الأمر أن الموقع في هذه الطبقة من شبكة الإنترنت يستخدم الآي بي (IP) بدون اسم نطاق له، ما يُصعب الوصول إليه. فإما أن تجرب عددًا لا نهائيًا من عناوين الآي بي، أو أن تستطيع الوصول إلى عنوان الآي بي المحدد.

أمّا الطبقة الثالثة، هي الطبقة الأكثر عمقًا التي تعرف بالإنترنت المُظلمة (Dark Web).

أطلق مصطلح الويب السوداء/ المظلمة (dark web) على الشبكة الخاصة التي تعمل ضمن الإنترنت، التي عندما تتصل بها فإنك تملك وصولاً إلى محتوى ومواقع متعددة لم يكن من الممكن الوصول إليها عبر وسائل البحث التقليدية مثل غوغل أو بينغ، وهي بذلك مثل نوادي الأعضاء شبه السرية ضمن ناد أكبر.

وهناك أكثر من ويب سوداء وليس مجرد واحدة، بعضها مجاني وبعضها يتطلب رسومًا للانضمام إليها، وهي تُستعمل عادة لغرض تشارك الملفات نظير إلى نظير



(peer-to-peer) وأكثر أنواع الويب السوداء - أو الإنترنت المظلم، كما يطلق عليها أحيانًا- شهرة هي شبكة "تور"، وهي برنامج تَخَفٍّ يسمح بحجب هوية المستخدم وموقعه على الإنترنت، تم تطويره ضمن مشروع تور سنة 2002 قام بإطلاقه عدد من الباحثين في مختبر بحوث البحرية الأمريكية بإطلاق برنامج يدعى - The Onion Router TOR.

فعلى خلاف الإنترنت التقليدية حيث تتصل بالإنترنت من خلال الراوتر أو الموزع المنزلي، فإن شبكات مثل تور توفر درجات أعلى من المجهولية، لأنها توظف شبكة تعتمد على خادم بروكسي (proxy)، الذي يعمل كحلقة وصل بين الطلبات الواردة من حواسيب المستخدمين، وهناك عشرات إلى مئات الآلاف من المستخدمين يساهمون باتصالات الإنترنت خاصتهم في هذا المشروع.

فعندما تبحث عن شيء على سبيل المثال، فإنه يتم تحويل مسار عملية البحث من خلال كافة هؤلاء المستخدمين، بدلاً من مجرد مرورها من حاسوبك عبر جهاز الموزع، وهذا يجعل من الصعب على السلطات أو مزود الخدمة خاصتك تحديد من بدأ عملية البحث.

وهذا النوع من الخصوصية أو المجهولية هو على الأرجح ما يجعل شبكات الويب السوداء - مثل شبكة تور- المكان المثالي للمحتوى غير القانوني مثل بيع المخدرات أو أي شيء آخر يمكن تصوره في السوق السوداء، وهذا الأمر في الحقيقية أكثر ما تعرف به الويب السوداء.

بعيدًا عن عين الرقيب

يتم اللجوء إلى شبكة الإنترنت العميقة، لتداول البيانات بعيدًا عن عين الرقيب، حيث يحتوي هذا الجانب على كم مهول من المعرفة "السرية"، التي يلجأ الذين نشروها، إلى هذا العمق من الشبكة هربًا من رقابة السلطات. من بين من اعتمد على شبكة الإنترنت العميقة موقع ويكيليكس لتسريب المعلومات، الذي استطاعت عبر نفس الشبكة اختراق أنظمة شبكية والاستيلاء على بيانات، من ثمّ تسريبها.

ومن ضمن الذين يستخدمون الويب السوداء تجار البشر، والمخدرات، والأسلحة، والإرهابيين، والقتلة المأجورين، وتجار العملات المزيفة، كذلك الحصول على جنسيات، جوازات سفر، هويات مواطنة، رخص قيادة.

وقد تم اكتشاف العديد من مواقع الإنترنت التي يتم إدارتها لحساب منظمات إرهابية في عام 1990، وفي عام 2005 وصل عدد تلك المواقع إلى ما يقدر بحوالي 4000 موقع، إلا أن الشبكة المظلمة قد أدت إلى تسهيل الاتصال بين عناصر الجماعات الإرهابية، حيث تحتوي الشبكة المظلمة على ما يزيد عن 50 ألف موقع و300 منتدى لمنظمات إرهابية وذلك حسب أحد التقارير الصادرة في عام 2011.

ومن أكثر المواقع التي تعمل في التجارة في الويب السوداء وأكثرها تحقيقًا للأرباح المليارية، موقع "طريق الحرير" (Silk Road) الذي استطاع تحقيق أرباح، تُقدر ببليون دولار، وهو يشبه موقع أمازون في طبيعته وطريقة استخدامه، إلا أنه يقوم ببيع أحد السلع الممنوعة قانونيًّا وهي المخدرات، بالإضافة إلى تقديم عدد من الخدمات الممنوعة قانونيًّا؛ وثائق مزورة، محتويات مسروقة، وفي أقل من عام واحد وصلت معدلات الشراء من ذلك الموقع إلى ما يعادل 1.9 مليون دولار شهريًّا، وذلك حسب ما ورد في بحث تم إجراؤه بواسطة "نيكولا كريستين" الباحث بمركز كارنيجي في 2012. وتوصلت إليه السلطات الأمريكية وأغلقته في 2013.

يتم التعامل بين مرتادي الويب السوداء بواسطة عملة بتكوين، وهي عملة إلكترونية مُعترف بها بين مستخدميها، الذين يزيد عددهم بشكل مضطرد بمرور الوقت، بحيث يُمكن استبدالها بأي عملة نقدية عالمية!

ويرى بعض المحللين أن الويب السوداء تعد وسيلة تكنولوجية لتوفير أكبر قدر ممكن من الخصوصية، خاصةً في ظل تزايد عمليات الرقابة على شبكة الإنترنت العادية، حتى في أكثر دول العالم ديمقراطية، حيث كشف "إدوارد سنودن" العميل السابق لدى وكالة الأمن القومي في حزيران/يونيو 2013 عن قيام وكالة الأمن الوطنية في الولايات المتحدة بمراقبة استخدامات الإنترنت في 193 بلدًا في العالم، كما كشفت تلك القضية عن عمليات تجسس على 42 مليار سجل عبر الإنترنت شهريًّا، وتطويرها لبرنامج لجمع البيانات الشخصية عبر الإنترنت يطلق عليه PRISM في المقابل تمثل تلك الشبكة أحد التهديدات المتصاعدة لأمن الدول والأفراد.

استخدامات أخرى لتور

وتجدر الإشارة إلى أن تور لم تبن أساسًا لتستخدم بطرق غير قانونية، وإنما صُممت لأن البنية التحتية للإنترنت تتيح تتبع المستخدمين بشكل كبير، حيث يمكن معرفة من يتصل بمن، ولأن عملية البحث في بعض الدول لها توابعها، فإن الويب السوداء تمنح مثل هؤلاء الأشخاص الذين يريدون استخدام الشبكة العنكبوتية حرية التجول فيها دون رقابة.

فخدمات "تور" الخفية تتيح للصحفيين، على سبيل المثال، التواصل بأمان أكبر مع كاشفي الفساد والمعارضين، كما تستخدم المنظمات غير الحكومية تور للسماح لعمالها بالاتصال بعائلاتهم في دول أخرى دون أن يعلم الجميع أنهم يعملون معها.

وقد كشفت شركة فيسبوك أن أكثر من مليون من مستخدميها يدخلون إلى شبكتها الاجتماعية من خلال شبكة "تور" والكثير منهم من مناطق تفرض قيودًا كبيرة على تصفح الإنترنت كإيران.

يُذكر أنه بإمكان المستخدمين أصحاب الفضول تحميل برنامج "تور" مجانًا من موقع المشروع "تور بروجيكت دوت أورغ".

سعت بعض الدول إلى تتبع الأخطاء التي يقع بها أفراد الويب السوداء، أو قيام بعض الدول باستغلال نقاط الضعف الموجودة في المتصفح Tor واختراقه عن طريقها، أو حتى قيام بعض الدول مثل الصين بحجب المواقع التي تسمح بتحميل Tor.

لكن تلك المحاولات أدت إلى نتيجة عكسية على عكس المتوقع، فبعد قيام الحكومات بإغلاق تلك المواقع والقبض على الأفراد الذين يقومون بإدارتها تعود للظهور من جديد مستخدمة آليات تسمح بقدر أكبر من السرية، وصعوبة الاختراق وكشف الهوية، بل ويؤدي إغلاق تلك المواقع أيضًا إلى ظهور مواقع جديدة تقدم محتوى مشابهًا للموقع الذي تم إغلاقه، كما كشف تقرير مسرب من وكالة الأمن القومي الأمريكي عام 2007 أن الثغرات الموجودة في Tor تسمح بالكشف عن هوية عدد قليل للغاية من الأفراد، ولا يمكن بأي حال من الأحوال الكشف عن هويات بقية الأفراد، وأدى قرار الصين بمنع تحميل Tor إلى تطوير مدخل جديد لذلك البرنامج Bridges يصعب اختراقه، ومن ثم يمكن القول: إن الشبكة المظلمة تمثل أحد أبعاد الصراع المفتوح بين الحكومات والفاعلين من غير الدول العابرين للحدود والناشطين في المجال الافتراضي، وهو ما يرجح استمرار الشبكة المظلمة واتساع نطاقها، وتشعب محاورها وتطبيقاتها.

المواطنة الرقمية
ترف فكري أم ضرورة؟!



د. محمد شوقي شلتوت

أستاذ تكنولوجيا التعليم المساعد ومدير مركز التعلم الإلكتروني بكليات الشرق العربي للدراسات العليا السعودية
واستشاري التعليم الإلكتروني والفنون البصرية

/http://www.shaltot.com
@drshaltout

في عام 2001 حدد مارك برينسكي Mark Prensky بأحد مقالته مستخدمي التكنولوجيا، وقسمهم إلى "المواطنين الرقميين" و"المهاجرين الرقميين" حيث عرف المواطنين الرقميين بأنهم أشخاص يافعون ترعرعوا حول التقنيات الرقمية، حيث إنهم يفهمون التكنولوجيا بالفطرة، أما المهاجرون الرقميون فهم الجديدون على الوسط التكنولوجي من جهة والمسحورون به، ولكن لم ينشأوا مع التقنيات الرقمية، وانطلاقًا مما حدده مارك في مقاله، نجد أننا أمام مجتمع جديد ليس تقليديًا؛ إنما هو مجتمع رقمي أفرزته التطور السريع للتكنولوجيا، حيث أصبحت الحاجة ملحة إلى ظهور نمط حياة، يتعلم فيه كل مشارك بهذا المجتمع ما هي السلوكيات الملائمة وغير الملائمة بهذا المجتمع الرقمي.

لذلك ظهر لنا مصطلح المواطنة الرقمية كنمط حياة لاكتشاف الحواجز والحدود، التي يجب أن تحترم في التعامل مع التقنيات الرقمية، واستيعاب الآثار المحتملة على أنفسهم وعلى الآخرين أيضًا، حيث عرف الكثير من المهتمين بمصطلح المواطنة الرقمية بأنها القواعد والأفكار والمبادئ في استخدام التكنولوجيا، التي يحتاجها الصغار والكبار للمساهمة في رقي الوطن، وتوجيه ما ينفعنا من التقنيات الحديثة والحماية من أخطارها، أو هي التعامل الذكي مع التكنولوجيا.

وإذا قمنا بسؤال أنفسنا لماذا المواطنة الرقمية مهمة للأفراد؟ سنجد الإجابة أنها مهمة وتتمحور أهميتها في جعل المشاركين في المجتمع الرقمي لهم دور فعال وإيجابي لأنفسهم وللآخرين من حولهم، وليتحقق ذلك يجب أن نفهم جيدًا أساسيات المواطنة الرقمية ومكوناتها لتحقق هذا.

حيث تتكون المواطنة الرقمية من تسع عناصر، تعمل كقاعدة لاستخدام التكنولوجيا بشكل ملائم، وتشكل الأساس الذي يقوم عليه المجتمع الرقمي، الذي يوفر طريق ممهد لكل مستخدم من مستخدمي التكنولوجيا، على فهم ما هو ملائم وما هو غير ملائم، وقد قمت بإظهار العناصر التسعة بشكل أنفوجرافيك حتى تكون بشكل أكثر تبسيط لفهمه كما بالشكل.

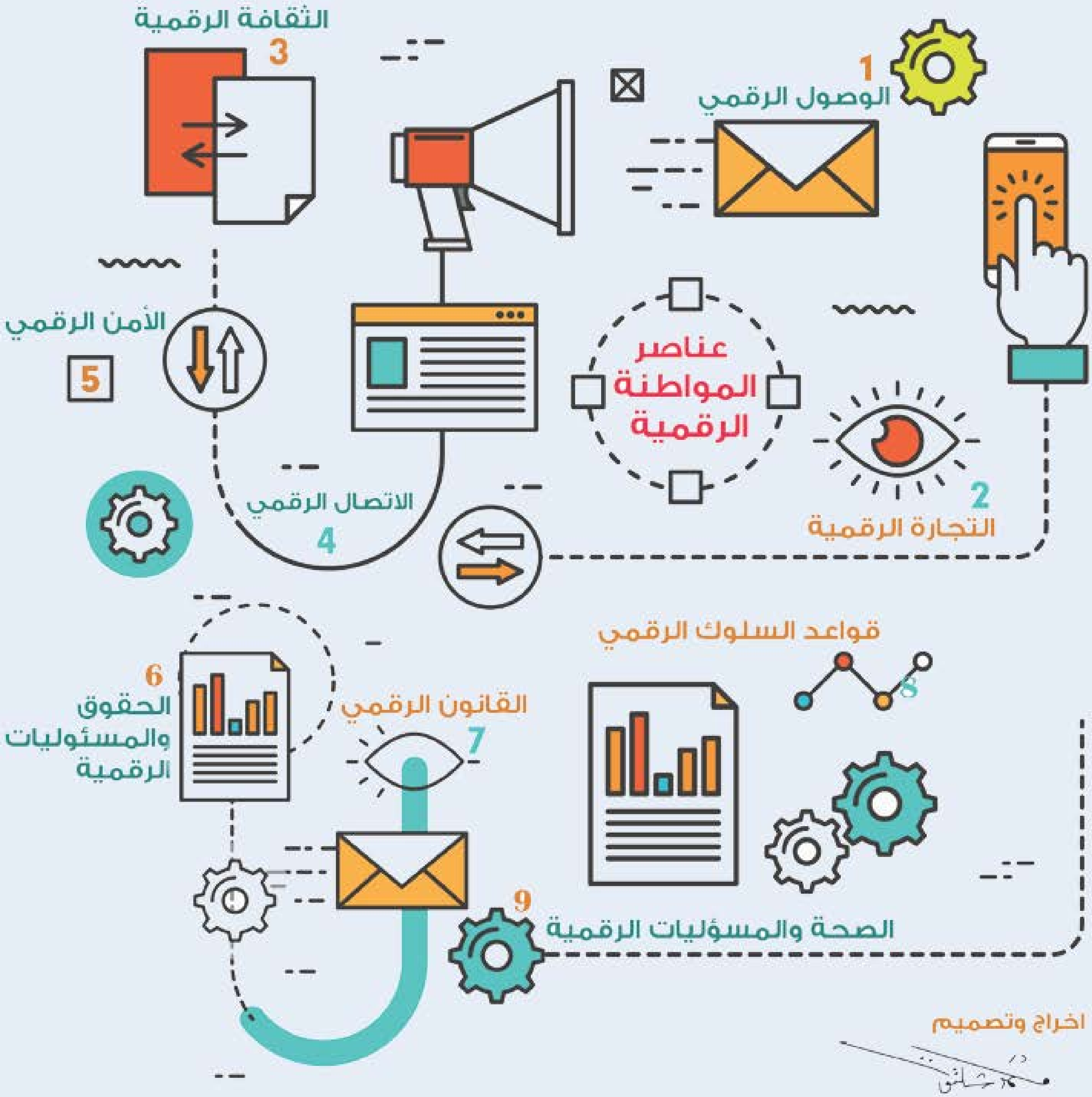
وإذا نظرنا عن قرب إلى كل عنصر من عناصر المواطنة الرقمية وقمنا بتعريفه بشكل سريع، لأدركنا مدي أهميته بالنسبة لكل شخص يشارك في المجتمع الرقمي، ويتعامل مع التكنولوجيا، وتعرفنا أن المواطنة الرقمية نمط حياة مهم جدًا ولو بدأنا.

بالعنصر الأول:

الوصول الرقمي، وهي "المشاركة الإلكترونية الكاملة في المجتمع"، بمعني أن كل فرد لديه ما يؤهله من تكنولوجيا لمشاركة الكاملة في المجتمع الرقمي بشكل كامل بدون عائق وبطريقة صحيحة.

العنصر الثاني:

التجارة الرقمية، فهي "شراء وبيع البضائع على الإنترنت"، حيث يقوم الجميع الآن بالشراء والبيع والتبادل على الانترنت، ولكن بدون وعي والوقوع في عمليات احتيال كبيرة، ولذلك التجارة الإلكترونية تساعد



على معالجة كل هذه الأمور بشكل صحيح.

العنصر الثالث:

الاتصال الرقمي فهو "التبادل الإلكتروني للمعلومات"، وهو يساعد على فهم ما يجب تبادله وما لا يجب حتى تقع تحت طائلة القانون.

العنصر الرابع:

الثقافة الرقمية، فهو "القدرة على استخدام التكنولوجيا الرقمية، ومعرفة متى استخدامها".

العنصر الخامس:

قواعد السلوك الرقمي فهي "معايير السلوك أو الإجراءات المتوقعة من قبل مستخدمي التكنولوجيا الرقمية".

العنصر السادس:

القانون الرقمي، فهي "الحقوق والقيود القانونية، التي تحكم الاستخدام التقني"

العنصر السابع:

الحقوق والمسؤليات الرقمية، فهي "المتطلبات والحريات الممتدة لجميع مستخدمي التكنولوجيا الرقمية والتوقعات السلوكية".

العنصر الثامن:

الصحة والرفاهية الرقمية، هي "عناصر الهيئة الجسدية والنفسية لبنية الجسم المتعلقة باستخدام التكنولوجيا الرقمية".

العنصر التاسع:

الأمن الرقمي، هي "الاحتياطات التي يجب أن يتخذها جميع مستخدمي التكنولوجيا لضمان سلامتهم الشخصية وأمن شبكتهم".

وفي النهاية بعد هذا العرض أترك للقاري أن يحدد ويجيب على هذا السؤال: هل المواطنة الرقمية ترف فكري أم ضرورة؟!

والحديث بقية إذا كان في العمر بقية.



الاستشعار عن بعد: ماهيته ... أهميته ... تطبيقاته



أ.د: عبد الله بن محمد الشعلان

قسم الهندسة الكهربائية - كلية الهندسة
أستاذ كرسي الزامل لترشيد الكهرباء
جامعة الملك سعود - الرياض

بدأ تاريخ الاستعشار عن بعد (remote sensing) مع ابتكار وظهور التصوير الضوئي (التصوير الفوتوغرافي) عام 1839م. وفي بداية عام 1840م أدخل المرصد الفرنسي في باريس استخدام التصوير في عمليات المسح الطبوغرافي، ومنذ ذلك الوقت ازدهر التصوير الضوئي بواسطة استخدام البالونات والطائرات الورقية وتم تركيب كاميرات عليها لالتقاط الصور الجوية فوق المدن. وفي عام 1903 ابتكر الأخوان رايتز الطائرة وتم استخدام الكاميرات عليها في عام 1909. وذلك في رحلة قام بها الأخوان في إيطاليا. ومع نشوب الحرب العالمية الأولى (1914 – 1918) أضحت الصور الجوية عاملاً أساسيًا في عمليات الاستكشاف والاستطلاع الجوي العسكري، ولكن التقدم الكبير في التصور الجوي وتفسير الصور الجوية ظهر مع بداية الحرب العالمية الثانية (1439-1945) وما صاحبها آنذاك من تطور عسكري وتقني ونظرًا للحاجة الملحة لمعلومات أفضل اخترعت نظم جديدة بدلاً من الكاميرات المستخدمة في الطائرات، ألا وهي الماسحات الإلكترونية الضوئية (electronic scanning)، وهذه النظم هي المستخدمة حاليًا في الأقمار الصناعية.

وقد ظهر مصطلح "الاستشعار عن بُعد" في عام 1960م على يد بعض الجغرافيين من مكتب البحوث البحرية الأمريكي، وفي العام نفسه أطلقت الولايات المتحدة الأمريكية قمرًا صناعيًا باستخدام الأشعة دون الحمراء خاصًا بالأحوال الجوية، ومنذ ذلك الوقت ظهر استخدام مصطلح الاستشعار عن بُعد في البحوث العلمية وفي التطبيقات العسكرية والدراسات المدنية ومراقبة الأرض، ولا تزال وسائل الاستشعار عن بعد تتطور وتتنوع بشكل سريع مع ظهور تقنيات استشعار متقدمة وإرسال أقمار صناعية جديدة في الفضاء كل عام.

وبعد ذلك ظهرت أيضًا تعاريف عدّة لمصطلح الاستشعار عن بُعد تدور جميعها حول مفهوم أساسي، وهو جمع المعلومات والبيانات عبر مسافات بعيدة، ومن هذه التعاريف تعريف جيمس كامبل (James Campbell) الذي يعرف مفهوم "الاستشعار عن بعد" على أنه علم استخلاص المعلومات والبيانات عن سطح الأرض والمسطحات المائية باستخدام صورة ملتقطة من أعلى، بواسطة تسجيل الأشعة الكهرومغناطيسية المنعكسة أو المنبعثة من سطح الأرض. إذن فهو علم وفن يستخدم للحصول على معلومات حول هدف أو منطقة أو ظاهرة معينة من خلال تحليل المعلومات، التي تم الحصول عليها بواسطة جهاز استشعار لا يلامس هذه الأهداف المراد

التحقق منها والتحكم فيها والسيطرة عليها. وقد عُرِفَ الاستشعار عن بُعد بوصفه مصدرًا للمعلومات ومهمًّا يُستخدم في تحديث الخرائط.

لقد أضحى الاستشعار عن بعد علمًا وفنًّا يستخدم في الحصول علي معلومات لأي جسم مستهدف، دون ملامسته بشكل مباشر (فيزيائيًّا أو كيميائيًّا) يمكن تحليلها ودراستها ومعرفتها، وقد عرف الاستشعار عن بعد بوصفه مصدرًا للمعلومات ومهمًّا يساعد في معالجة الصور الفضائية حتى أصبح تحديث الخرائط أمرًا سهلاً وممكنًا، خصوصًا بعد أن أمكن تخزينها رقميًّا وبذلك تكون سهلة المعالجة والتخزين والاستعادة وعرض المعلومات.

وبعد هذه المقدمة المختصرة عن الاستشعار عن بعد نأتي إلى استخداماته التي تشتمل على الكثير من الاستخدامات والتطبيقات، ومنها الاستخدامات العسكرية من عمليات الاستطلاع والاستخبارات، وتسيير الحملات، وأشياء أخرى، وأيضًا التطبيقات البيئية والمائية والتخطيط العمراني، التي سيتم عرضها وتفصيلها في الأقسام التالية.

الاستخدامات العسكرية للاستشعار عن بُعد بواسطة أقمار الاتصالات

تُشكل أقمار الاستطلاع بأنواعها المختلفة إحدى وسائل الاتصالات المهمة لجمع المعلومات وتحليلها لما تتمتع به من خصائص فنية روعي في أثناء تصميمها بتحقيق تلك المهام على درجة عالية من الدقة والحساسية والتحليل. وفي الوقت ذاته أصبحت أقمار الاتصالات عنصرًا مكملاً لأقمار الاستطلاع في مجال جمع المعلومات، من حيث استخدامها لزيادة عمق ومجال تغطية أقمار الاستطلاع، وكذلك إتمام أعمال القيادة والسيطرة الآلية، في الوقت الذي أصبحت فيه أقمار الإنذار ضد تهديدات القذائف الصاروخية (البالسيتية) تمثل دورًا بارزًا في الحصول على المعلومات عن لحظة إطلاق تلك الصواريخ، ولذلك أصبح استخدام الأقمار الاصطناعية ذا أهمية حيوية في العمليات العسكرية الحديثة وتخطيط المهام وجمع المعلومات عن الأهداف المهمة ومناطق التجمع والتمركز الرئيسية للقوات المعادية وتأكيد المعلومات حولها، كذلك رصد أعمال إعادة التمركز والانتشار لصالح إنشاء قاعدة بيانات مدققة عن كافة الأهداف المحتملة وتحديد الاتجاه نحوها. كما يمكن التعرف على إحداثيات الموقع بصفة عام وإحداثيات كافة الأهداف بداخله بصفة خاصة. كذلك التعرف على المعدات وأنوعها، إما بتمييز شكلها في الصور عالية الدقة أو من خلال قياس أبعادها في الصور الأقل من حيث المستوى في الدقة التحليلية. كما تمكن صور الأقمار الاصطناعية الخاصة بالاستطلاع من تحقيق المطالب العملياتية الآتية:

1) تحديد إحداثيات المواقع والأهداف بدقة عالية، وحساب مساحات الأهداف والمسافات بينها من أجل تنفيذ العمليات ضد هذه الأهداف، وحساب وتقدير كميات الذخائر المطلوبة (للمدفعيات والصواريخ) لتدميرها.

2) جمع المعلومات عن الأهداف الحيوية ومناطق التمركز الرئيسية للقوات المعادية، وتأكيد المعلومات عنها، وكذا رصد أعمال إعادة التمركز والانتشار، لصالح إنشاء قاعدة بيانات دقيقة عن كافة الأهداف على مختلف الاتجاهات وأبعادها.

3) تخطيط المهام للقوات الجوية، ودراسة طرق الاقتراب والهجوم المناسبة طبقًا لطبيعة الأرض، لتحقيق المفاجأة والتأمين للطلعات.

4) البرمجة المسبقة لذاكرة الصواريخ والذخائر الذكية لتحديد المواقع التي سيتم تدميرها (الأجيال الحديثة من الصواريخ العابرة والقنابل الموجهة.

5) تدريب وحدات القوات الخاصة على تنفيذ العمليات ضد أهداف محددة من خلال دراسة الأرض والأهداف المحيطة على صور فضائية متناهية القدرة التحليلية، مع إجراء دراسات الأرض وطرق الاقتراب على هذه الصور.

6) إنتاج صور ثلاثية الأبعاد للأهداف ذات الاهتمام والمناطق المحيطة بها، ويستخدم في إنتاجها للموقع أو المنطقة عمل صورتين مزدوجتين ملتقطتين من زاويتين مختلفتين، وبنسبة تغطية متبادلة من (40 – 60%)، والهدف من هذه الصور إظهار كافة تفاصيل الهدف وارتفاعاته والأشكال والأوضاع والتضاريس الطبيعية المحيطة به.

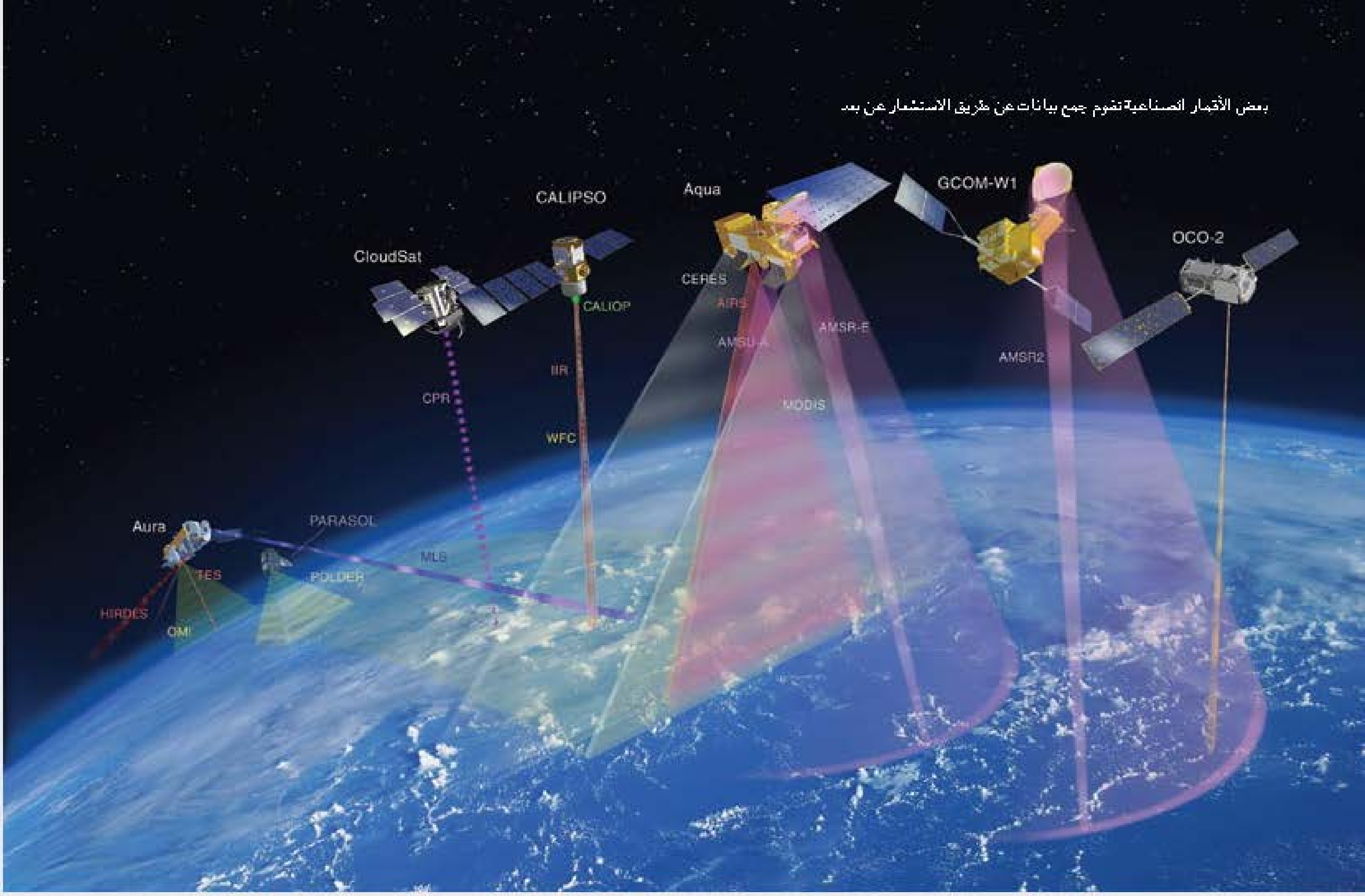
7) تجميع معلومات عن المؤشرات والتحذيرات لمراقبة ومتابعة مواقف وتحركات العدو والتعرف على ما يُشكله من ضغط وتهديد فعلي أو حقيقي، حيث إن رصد ومراقبة ومتابعة المنشأة العسكرية يمكن أن يوفر معلومات عن حالة العمليات لكل من المنشأة ذاتها والوحدات المتمركزة بها، كم أن المعلومات التي يتم تجميعها عند رصد المؤشرات والتحذيرات تُمكن القادة العسكريين من فهم أفضل لميدان القتال، وتُعطي أيضًا صانعي القرار الخيار في زيادة معدل جمع المعلومات، أو تنبيه قواتهم للاستعداد للعمليات وإدراك الموقف.

8) تحليل الأرض للعمليات العسكرية من حيث معرفة تكوين التربة والميل وارتفاع المزروعات وكثافتها، وتأثير ذلك على حركة المشاة والمركبات، وكذلك الإخفاء والتمويه وتحليل الأرض للعمليات العسكرية الذي يشتمل على التخطيط لأنظمة الأسلحة وحقول النيران وتحديد مواقع الإنزال والموانع الأرضية لاقتحام الطائرات العمودية وتخطيط طرق التحرك ونقاط التجميع الآمنة والبعيدة عن ملاحظة العدو ومجال نيرانه.

لذا فإن المعلومات المطلوبة عن الأرض والموقع والمكان تشكل أهمية بالنسبة للقائد العسكري لتقييم وضعه

"لقد أضحى الاستشعار عن بعد علمًا وفنًّا يستخدم في الحصول علي معلومات لأي جسم مستهدف دون ملامسته بشكل مباشر (فيزيائيًّا أو كيميائيًّا) يمكن تحليلها ودراستها ومعرفتها، وقد عرف الاستشعار عن بعد بوصفه مصدرًا للمعلومات ومهمًّا يساعد في معالجة الصور الفضائية حتى أصبح تحديث الخرائط أمرًا سهلاً وممكنًا"

"مكنت صور الاستشعار عن بعد من تصحيح كثير من المعلومات والمفاهيم في معظم الخرائط الجيولوجية، ذلك لأن هذه الصور تعطي نظرة شمولية ودقيقة لوحدات وطبقات جيولوجية تعطي مؤشرات ودلالات أولية للإمكانات المعدنية والنفطية والغازية المخزونة بين طياتها ومكامنها"



بعض الأقمار الصناعية تقوم جمع بيانات عن طريق الاستشعار عن بعد

الميداني واحتياجاته (اللوجستية). ففي الدفاع يمكن استخدام الصور ذات الجودة العالية في مسح ميادين القتال وكشف الموانع الطبيعية والتعرف على النقاط الحاكمة وإظهار مناطق التغطية الكبرى، وفي الهجوم يمكن استخدام الصور في المساعدة على التعرف على نقاط الضعف في دفاعات العدو وتحديد أيسر الطرق لاختراق موانعه واستحكاماته. لذا تعد الصور التي تُلتقط بالأقمار الاصطناعية في الوقت المناسب، والتي يتم تحليلها تحليلا جيدًا من أفضل مصادر المعلومات، التي يمكن الرجوع إليها والاعتماد عليها والاستفادة منها، حيث من النادر أن تحتوي الخرائط التقليدية على معلومات محدثة ومدققة، والتي يحتاجها القائد العسكري لتقييم المواقف وإدراك الأوضاع وأخذ المبادرات (التكتيكية) في الخطط الإستراتيجية والعمليات العسكرية والأغراض الأمنية.

استخدام الاستشعار عن بُعد في تحديث الخرائط الطبوغرافية

أصبح للخرائط الطبوغرافية في الدول النامية مكانة بالغة الأهمية والأثر، حيث بدأت الحاجة لها والاهتمام بها لدى الكثير من الباحثين والمتخصصين في المؤسسات العلمية والمراكز البحثية، نظرًا لتطبيقاتها المختلفة واستخداماتها المتعددة ومن ثم متابعة تحديثها وإضافة تقنيات متطورة ومستجدة لها. وقد برزت مزايا تلك الخرائط الطبوغرافية في مجالات كثيرة مثل التخطيط لإنشاء شبكات مواصلات وطرق سريعة واستكشاف مصادر طبيعية ومراقبة البيئة وحمايتها من التلوث والتدهور، كذلك أهميتها لقطاع السياحة وللدوائر الحكومية والمؤسسات الصناعية وأيضًا للقطاعات العسكرية في المهمات السلمية وأغراض التدريب، مع العلم بأن عملية التحديث لتلك الخرائط الطبوغرافية، قد يمثل أحيانًا مشكلة تجابه المختصين في الدول التي تتطور بسرعة، ومنها المملكة العربية السعودية، حيث يحتاج ذلك إلى الكثير من الوقت والمزيد من الجهد والمال. ومع التقدم العلمي والتطور التقني أصبح تحديث الخرائط يحظى بأولوية وأهمية بالغتين، لذا تغيرت الطرق والتقنيات في تحديث الخرائط الطبوغرافية وغيرها، إذ كانت في السابق تستخدم الطرق التقليدية مما يتطلب وقتًا طويلاً ونفقات باهظة، لذلك أتت فكرة الاستعانة بالاستشعار عن بُعد في تحديث الخرائط (منها على سبيل المثال: صور الأقمار الصناعية متعددة الأطياف ومتعددة درجات الوضوح وتوافر مصادر المعلومات من الأقمار الصناعية مثل لاندسات وسبوت وغيرهما)، وفي بعض الأحيان قد يتعدى ذلك التحديث إلى تصميم تلك الخرائط الطبوغرافية وإنتاجها.

استخدام الاستشعار عن بُعد في عديد من التطبيقات المدنية

فيما يلي استعراض لأمثلة من استخدام الاستشعار عن بعد في بعض التطبيقات المدنية، ومنها:

حصر للموارد الطبيعية

مكنت صور الاستشعار عن بعد من تصحيح كثير من المعلومات والمفاهيم في معظم الخرائط الجيولوجية، ذلك لأن هذه الصور تعطي نظرة شمولية ودقيقة لوحدات وطبقات جيولوجية تعطي مؤشرات ودلالات أولية للإمكانات المعدنية والنفطية والغازية المخزونة بين طياتها ومكامنها. لذا أصبحت شركات النفط العالمية تعتمد بشكل رئيس على استقراء الصور لتحديد مواقع التنقيب عن المعادن والنفط والغاز بعد أن كانت في السابق تعتمد على التصوير الجوي التقليدي، الذي يستنفد الكثير من الوقت والجهد والمال. فبينما تستطيع هذه الشركات في وقتنا الحاضر استخدام صورة فضائية تغطي على الأرض مساحة 34 ألف كم مربع، فإنها كانت تحتاج إلى ألف وست مئة صورة جوية لتغطية المساحة ذاتها بمستوى متواضع وبتكاليف باهظة إلى جانب المقياس الكبير لهذه الصور. كما أن هذه الصور الفضائية تشير إلى مناطق المعادن والنفط والغاز في الأحواض الرسوبية والفوالق وغيرها مما يسهل توجيه أعمال البحث والتنقيب، ومن ثم الوصول إلى النتائج المتوخاة في أوقات قياسية وبأقل

مجهود مبذول.

حصر مصادر المياه الجوفية

يمكن بواسطة تحليل الصور الفضائية والمؤشرات التي تظهرها تحديد مواقع المياه الجوفية ومصادر المياه السطحية والعمل على توجيه استغلالها والاستفادة منها بجدوى وكفاءة عاليتين، كذلك دراسة تراكمات الثلوج ومدى تأثيرها على تغذية المياه الجوفية، وقد أدى استخدام تلك الوسائل إلى اكتشاف وديان غنية بالمياه في البحر في كثير من البلدان، كما وضعت على أساس ذلك خرائط مهمة لاستخدامات الأراضي واستصلاحها.

أعمال المساحة

أدت التقنيات الحديثة للاستشعار عن بعد والمعالجة الإلكترونية للبيانات إلى تغيير جذري في أعمال المساحة جعلت الخرائط الجديدة أكثر مرونة لمعرفة البيئات والأجواء المستهدفة وأسهل في كيفية فهمها واستيعابها والإحاطة بها والتعامل معها. وجدير بالذكر أن الصور الفضائية يتم الحصول عليها من ارتفاعات أكثر مئات المرات من تلك الارتفاعات، التي تطير عليها طائرات المساحة التقليدية، ومن الواضح أنها فتحت آفاقا جديدة وخاصة للمساحة ذات المقياس الصغير. وما كان يمثل مشكلة في التصوير الجوي لرسم الخرائط، كتلبد السحب في حالة الطقس الرديء تم إخضاعه لأنظمة وأجهزة استشعارية حديثة، لا تتأثر بالسحب بتاتًا.

اكتشاف الآثار

يعد التنقيب عن المناطق التاريخية والمواقع الأثرية أحد تطبيقات الاستشعار عن بعد المهمة، حيث يمكن استعمال الصور الجوية والفضائية وتحليلها وتفسيرها الكشف عن تلك المناطق والمواقع ورؤية المظاهر السطحية وما تحتها، وقد أدى ذلك إلى توسيع رقعة الظاهر منها والذي لا يمكن ظهوره منها، وذلك عن طريق متابعة الانحرافات اللونية في الغطاء النباتي في مكان ما واختلاف درجة الرطوبة في التربة، ومدى نمو النباتات فوق الموقع المدروس، وعن طريق متابعة الأشكال والأنماط الهندسية التي تأخذها مثلاً ظواهر الصقيع في منطقة ما. أما المظاهر السطحية الأثرية المهمة، فتشمل الآثار المرئية والتلال والكتل الصخرية والآثار السطحية الأخرى، ومثال ذلك الآثار التي كانت تشكل الأبنية والقلاع الأثرية، وأما المظاهر الأثرية تحت السطحية فتشمل الآثار المطمورة كالأبنية القديمة والقنوات والخنادق القديمة والطرق الأثرية القديمة أيضًا. وعندما تكون هذه المظاهر مغطاة بالحقول الزراعية أو النباتات الطبيعية، فإنه يمكن أن تظهر بوضوح من خلال الصور الجوية عن طريق متابعة التغيرات اللونية الناتجة عن الاختلافات في رطوبة التربة ومدى نمو النباتات وقوتها.

التطبيقات الزراعية

يجد المزارعون تطبيقات عديدة للاستشعار عن بعد، فالكشف المبكر لآفات المزروعات ولغارات الحشرات على المناطق الزراعية، من خلال استخدام أنظمة متعددة للاستشعار، سيقلل من الخسائر الناتجة عن ذلك بواسطة إتاحة الفرصة للعمل العلاجي كي يطبق بشكل أكبر وبفاعلية أسرع. أما القاعدة المتبعة عادة لوقاية النباتات وحماية المحاصيل من غزو الحشرات الضارة وإتلافها هي رش تلك النباتات والمحاصيل بشكل دوري عدة مرات خلال الموسم. وبواسطة الاستشعار عن بعد يمكن أن يتم تجنب الرش غير الضروري في المناطق ذات الزراعات الكثيفة وذلك بتحديد الحقول غير المصابة بواسطة تقنيات الاستشعار عن بعد القادرة على كشف وتمييز الحقول المصابة عن تلك الحقول السليمة.

إن التنبؤ المسبق عن حالة الغلال والمحاصيل من خلال مراقبة نشاط النبات هو وظيفة أخرى من وظائف الاستشعار عن بعد كما تساعد صور الحقول الزراعية على إرشاد الفلاحين إلى الأمكنة، التي تزدهر فيها المحاصيل، وتلك التي لا تتواءم معها. فمثل تلك الصور يمكنها مساعدة الفلاحين على تصور أنماط التربة في حقول معينة، ومن ثم تحسين إستراتيجياتهم حول استخدام الري ورش المخصبات وتوقيتهما ومقاديرهما المناسبة.

دراسة البحار والمحيطات والبحث عن مصادر الثروة فيهما

من أهم تطبيقات الاستشعار عن بعد دراسة المياه في البحار والمحيطات، بوصفهما عنصرًا مكملاً مع اليابسة من عناصر منظومة كوكب الأرض. ويبلغ مجموع المساحات المائية على الأرض حوالي 139.294 مليون ميل مربع، بينما تقدر مساحة اليابسة بحوالي 57.656 مليون ميل مربع. وتمثل مياه المحيطات والبحار حوالي 98% من مجموع ما على الأرض من ماء. ولقد بدأ علم دراسة المحيطات باستخدام الأقمار الصناعية بدايته الحقيقية عام 1978م مع إطلاق الأقمار "تيروس" و"نمبوس" و"سي سات"، وهذه الأقمار الثلاثة مزودة بأجهزة لرصد المحيطات. وعندما أطلقت الولايات المتحدة الأمريكية القمر "نمبوس" للحصول على معلومات تتعلق بالمحيطات والبحار والجو، فقد حددت مجالات معلوماتيه تتمثل في ما يلي:

1) ألوان المحيطات والمواد العالقة بالمياه المالحة.

2) توزيع الثلوج في البحار والمحيطات وتكوين الغلاف الجوي.

3) ميزان الطاقة الخاص بسطح الأرض.

وتقوم الأقمار الاصطناعية المخططة لرصد البحار والمحيطات باستخدام الإشعاع الكهرومغناطيسي في مناطق مختلفة من الطيف، وللموجات في مناطق الطيف المختلفة خصائص مختلفة يمكن استخدامها للقياس والرصد. فالأشعة تحت الحمراء تنتج عن تغيرات حرارية، والأشعة الضوئية تستخدم في التصوير النهاري العادي، بينما تتمتع الأشعة متناهية القصر (الميكروويف) بخصائص نفاذ عالية مما يجعلها عديمة التأثر بالغلاف الجوي.

أما البحث عن مصادر الثروة في البحار والمحيطات فقد اتضح أن أجزاء كثيرة من المحيطات والبحار لا تزال مجهولة، حيث لم يكن ممكناً الوصول إليها لدراستها بالطرق التقليدية، حتى يمكن الكشف عما قد تحويه من مصادر للثروات الطبيعية الكامنة بها، ولكن مع التطور العلمي والتقدم التقني الذي واكب غزو الفضاء وإطلاق السفن الفضائية والأقمار الاصطناعية أمكن ابتكار أجهزة ومعدات حديثة للاستشعار عن بعد يمكن الاستفادة منها في الحصول على الكثير من المعلومات المهمة والبيانات الدقيقة وبصفة دورية ومنتظمة عن الخصائص الطبيعية لهذه المساحات المائية الشاسعة من البحار والمحيطات وبخاصة النائية وغير المطروقة منها. لذا أصبح من الممكن استخدام هذه المعلومات والاستفادة منها في دراسة إمكانات البحار والمحيطات مما تختزنه وتحتوي عليه من مختلف الموارد الطبيعية التي تحتاجها البشرية في وقتنا الحاضر مع التزايد المطرد في عدد السكان وما يقابله من تلاش ونضوب في الثروات والموارد الطبيعية على الأرض اليابسة.

الخاتمة

نظرًا لأهمية الاستشعار عن بعد وتطبيقاته المختلفة التي جرى استعراض لبعضها، وتم ذكر نزر بسيط عنها فإن المملكة العربية السعودية لم تشأ أن تكون خلوًا من هذه التقنية العصرية الحديثة، وفي منأى عن فوائدها ومزاياها المتعددة، لذا تم إنشاء "مركز نظم المعلومات الجغرافية والاستشعار عن بعد"، وهو مرصد بيئي تابع للرئاسة العامة للأرصاد وحماية البيئة، ولقد أنشئ هذا المركز لتوفير البيانات والمعلومات الجغرافية بجودة عالية وتغطية كاملة للمملكة، وقد قام المركز بإنشاء مجموعة من قواعد البيانات الجغرافية البيئية، طبقًا لاحتياجات الرئاسة لأداء مهامها في الحفاظ على البيئة وحمايتها من التلوث والتداعي وفقدان المقومات، وتحتوي هذه القواعد على خرائط الأساس الرقمية مختلفة المقاييس والتغطية الجغرافية وخرائط الحساسية البيئية للمناطق الساحلية، كما قام المركز بعمل تغطية شاملة وجزئية للمملكة بمصورات فضائية مختلفة القدرات التفريقية للأقمار الصناعية (لاندسات-سبوت-إكونوس) لبناء التطبيقات ودعم الدراسات البيئية بغية الكشف عن التغيرات الطارئة على الأوساط والمكونات البيئية الأساسية، وهي الهواء والماء والتربة والموارد الطبيعية.

تقنيات من إلهام الطبيعة

منة الله عبدالمنعم

كاتبة ومترجمة علمية وفيزيائية
بمعهد الكبد القومي
جامعة المنوفية - مصر

منذ بداية الخليقة والطبيعة كانت مصدر التعليم الأول للإنسان، ومن النماذج الخالدة في وجدان البشرية، قابيل عندما قام بمحاكاة الغراب في دفن أخيه، وكذلك نماذج كثيرة مثل اكتشاف خلاصة أوراق الصفصاف الأشهر في معالجة الألم حين لاحظ البعض أن الحيوانات تتناولها التي تحولت في عصرنا الحديث للأسبيرين وغيرها على مر العصور وحتى أيامنا الحالية لم يتوقف العلماء عن التعلم من الطبيعة لتطوير معارفهم وتقنياتهم، وسنعرض في هذا المقال نماذج مدهشة بهذا الصدد:

نظام فعال لتنقية المياه من وحي الطبيعة

تقنية جديدة مدهشة لتنقية المياه ابتكرها عدد من العلماء بجامعة سنغافورة القومية ومعهد البحوث البيئية، وهي عبارة عن غشاء يمكنه تنقية المياه تحت ضغط منخفض، مما يسهم في استهلاك أقل للطاقة، واستوحى العلماء هذه الفكرة من نظام تنقية المياه بجذور نبات القرم (المانجروف) والكلية البشرية. وهذا الغشاء يسهم بتقليل تكلفة تحلية المياه المالحة بحوالي 30%، حيث إن معالجة هذه المياه تحتاج إلى ضغط هيدروليكي مرتفع لدفع جزيئات المياه داخل المرشح، وهو السبب الرئيسي في تكلفتها العالية.

أما نظام التنقية الذي اخترعه الفريق السنغفوري فيعتمد على مسام مائية متكونة من البروتين داخل غشاء بوليمري وهذه المسام تدفع جزيئات الماء داخل أو خارج الغشاء مع منع الأملاح والشوائب الأخرى غير المرغوبة من المرور وهذه المسام المائية بمثابة قنوات تصريف المياه بالخلايا الحية، وتتواجد بكل الكائنات تقريبًا من البكتيريا، وحتى الكلية البشرية التي تعد أفضل مصفاة لتنقية المياه في الكون، حيث بإمكانها تنقية حوالي 150 لتر من السوائل يوميًا تحت ضغط منخفض للغاية، وكذلك نبات القرم الذي اعتاد النمو في المياه المالحة يمكنه بوجود هذه المسام المائية تنقية حوالي 90-95 % من الأملاح بجذوره.

ويدخل الفريق البحثي حاليًا في مباحثات مع شركة إمكانية لتجريب هذا الغشاء في محطات تنقية المياه بشكل موسع مما يسهم في تقديم مياه صالحة للشرب بتكلفة أقل مستقبلاً، وهي فائدة عظيمة للبشرية، وخاصة دولنا العربية وأفريقيا، حيث تأتي تحديات المياه على قائمة الأولويات، وليس هذا فقط وإنما نظرًا للكفاءة المدهشة التي يقدمها هذا الغشاء فيقترح الباحثون صلاحيته للعديد من التطبيقات الحيوية الطبية الأخرى



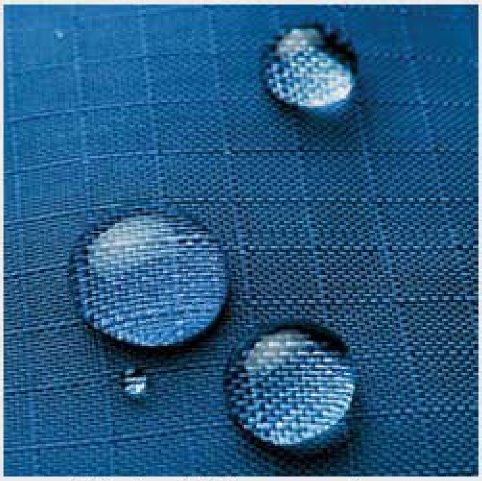

ترشيح المياه بشكل فعال من خلال محاكاة جذور أشجار القرم

وما دخل منها في حيز التنفيذ هو تفاوضهم مع مؤسسة صناعية كبرى لتطويره وتجربته في وحدات غسيل الكلى بالمستشفيات حيث يقترح الباحثون كفائته في تطبيق مماثل [1].

نسيج مضاد للماء مستلهم من زهرة اللوتس

زهرة اللوتس الشائعة في الأنهار، وهي من رموز الحضارة الفرعونية تقدم نموذج فريدًا فأوراقها مضادة للماء وتتركب من مادة شمعية وأسفلها نتوءات، واستلهم فريق من الباحثين من جامعة رايس الأمريكية هذه الفكرة لتكوين نسيج جديد مقاوم للمياه يتركب من مواد هيدروكربونية مشابهة للطبقة الشمعية على سطح أوراق اللوتس وأسفلها طبقة نانوية من الألمونيوم بوصفها بديلاً للنتوءات في الأوراق.

والنسيج الجديد أثبت فاعلية رهيبة في مقاومة الماء أكثر من النسيج التقليدي، ويمكنه الصمود مدة أطول من الزمن، وكذلك تكلفته الاقتصادية أرخص كثيرًا من الأنسجة المتداولة، وهناك فائدة أخرى هائلة له هي أن المواد المستخدمة آمنة تمامًا، وليست سامة مثل المواد الفلوروكربونية التي تدخل في صناعة الأقمشة المضادة للماء المتداولة ما يجعلها خطيرة للإنسان والبيئة على حد سواء [2].

زهرة اللوتس مصدر إلهام لتقنية رائعة

مجس فائق الحيوية يحاكي أنظمة استشعار الأسماك

طور عدد من العلماء مجس sensor مجهري فائق الصغر والحساسية لاستخدامه في تنظيم سرعة تدفق السوائل في أثناء عمليات الحقن الوريدي وتم استلهامه من النظام العصبي لسمكة الكهف العمياء (فصيلة من الأسماك تنتشر في شرق الولايات المتحدة والمكسيك)، التي يمكنها من استشعار ما حولها من حركة وتغير في معدلات تدفق وضغط المياه بدقة شديدة.




تقنية مستلهمة من أسماك الكهوف، تبشر بمستقبل أفضل للرعاية الطبية

وهذا المجس سيساهم في تقليل المجهود البشري الذي يبذله العاملين بالتمريض في مهام الحقن الدورية، وسيحد كذلك من الصعوبات والأخطاء المعتادة عند حقن المحاليل الطبية داخل الأوردة، حيث لا بد من مراجعة تدفق المحاليل الوريدية في أثناء إعطائها للمرضى مرة واحدة بالساعة على الأقل، وبعد أي تغيير في وضعية المريض، وبسبب عدم الدقة في ملاحظة معدل التدفق المناسب مضاعفات خطيرة مثل الاستسقاء edima.

والباحثين من سنغافورة كذلك نشروا نتائج بحثهم بدورية نيتشر للتقارير العلمية، وأشاروا للقفزة الاقتصادية والطبية التي سيحدثها انتشار مجسهم فائق الحيوية، حيث أن تكلفة المجس عند وضعه بأنبوب وريدي ستكون أقل من دولار أمريكي واحد، أما وحدة التحكم برغم أنها لا زالت قيد التطوير، فلن تزيد عن 86 دولار أمريكي، وهو أرخص عشرات المرات من المضخات المستخدمة حاليًا، وتبلغ سعرها آلاف الدولارات، وارتفاع سعرها يجعلها تستخدم فقط في وحدات العناية المركزة وبعض المستشفيات، خاصة في الدول النامية لا تتمكن من توفيرها، لذا المجس الجديد سيحدث أثرًا هائلاً في تحسين الخدمات الطبية وإيصاله لفئات أكبر من غير القادرين [3].

المصادر:

1-https://news.nus.edu.sg/press-releases/9790-biomimetic-membrane-for-water-purification

2- http://www.sciencealert.com/this-new-non-toxic-nano-repellent-could-help-make-your-clothes-water-proof

3- http://smart.mit.edu/news-a-events/press-room/article/55-regulating-iv-infusion-with-innovative-blind-cave-fish-inspired-sensor-.html





إعادة بناء بيت الحكمة الإسلامي

جيم الخليلي

أستاذ الفيزياء النظرية - جامعة ساري

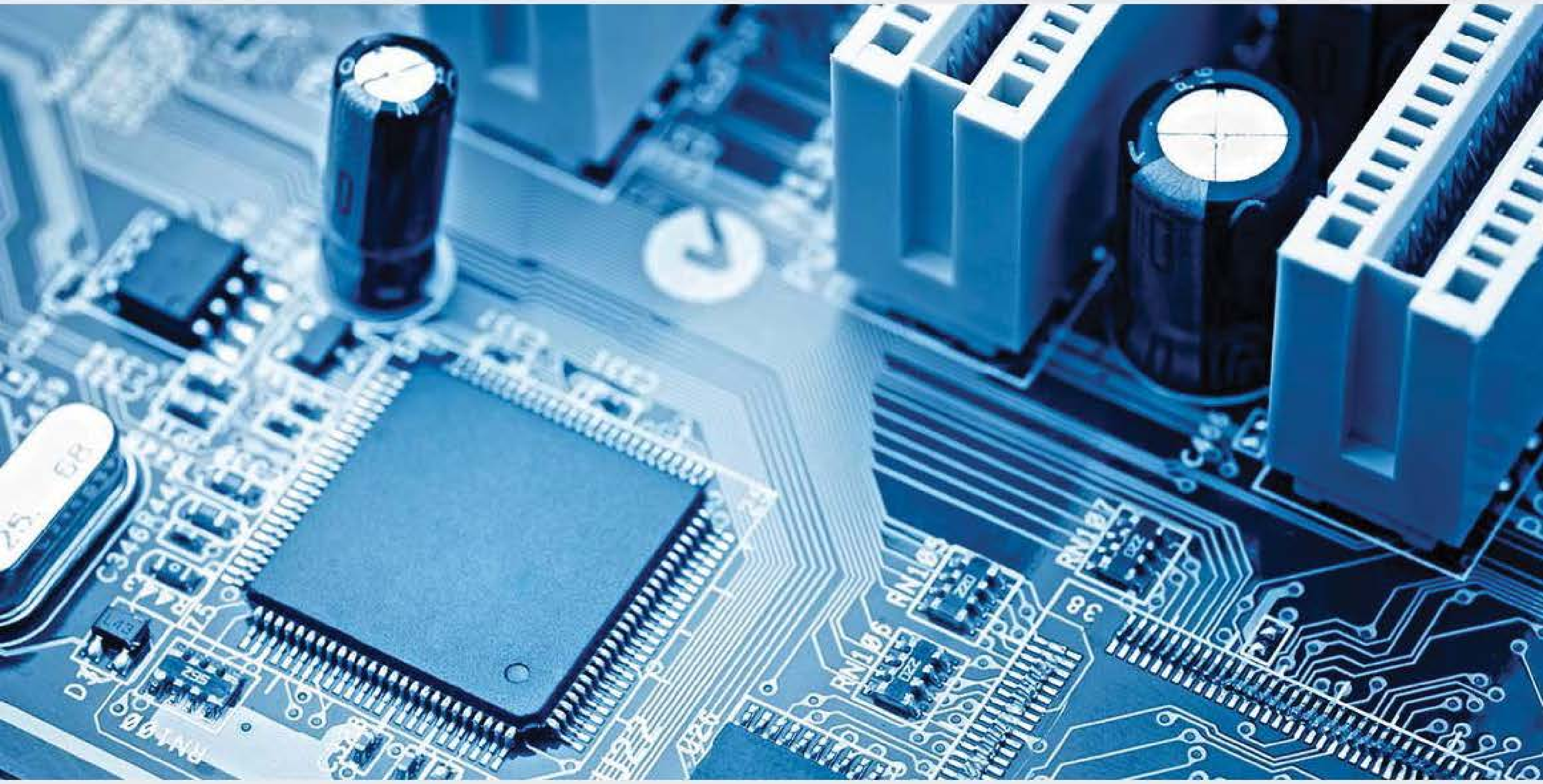
تدرك الحكومات الإسلامية أن النمو الاقتصادي، والقوة العسكرية، والأمن الوطني كلها أمور تستفيد إلى حد كبير من التقدم التكنولوجي. وفي السنوات الأخيرة زادت العديد من هذه الحكومات بشكل حاد من تمويل العلم والتعليم. ولكن برغم هذا، يرى كثيرون ـ وخاصة في الغرب ـ أن العالم الإسلامي لا زال يفضل البقاء في معزل عن العلوم الحديثة.

الواقع أن هؤلاء المتشككين ليسوا مخطئين تمامًا. ذلك أن البلدان ذات الأغلبية المسلمة تنفق في المتوسط أقل من 0.5% من ناتجها المحلي الإجمالي على البحث والتطوير، مقارنة بخمسة أضعاف هذا المتوسط في الاقتصادات المتقدمة. وهذه البلدان لديها أيضًا أقل من عشرة علماء ومهندسين وفنيين لكل ألف من سكانها، مقارنة بالمتوسط العالمي الذي يبلغ أربعين ـ ونحو مئة وأربعين في العالم المتقدم. وحتى هذه الأرقام تميل إلى التهوين من المشكلة، والتي هي أقل ارتباطًا بإنفاق المال أو توظيف الباحثين من اتصالها بالنوعية الأساسية للعلوم التي يتم إنتاجها.

لا ينبغي للمرء بكل تأكيد أن يبالغ في التسرع في اختصاص الدول الإسلامية بالانتقاد؛ فحتى في الغرب الذي يفترض أنه "مستنير"، تنظر نسبة مرتفعة إلى حد مزعج من سكانه إلى العلم بقدر كبير من التشكك والخوف. بيد أن العلم في أجزاء كثيرة من العالم الإسلامي يواجه تحديًا فريدًا من نوعه؛ حيث يُنظَر إليه باعتباره مفهومًا غربيًا علمانيًا ـ إن لم يكن ملحدًا.

فقد نسي كثيرون من المسلمين المساهمات العلمية البارعة، التي قدمها علماء مسلمون قبل ألف عام ـ أو لم يعلموا بها قط. وهم لا يعدون العلم الحديث محايدًا أو غير متحيز عندما يتعلق الأمر بالتعاليم الإسلامية. حتى إن بعض الكتاب الإسلاميين البارزين زعموا أن التخصصات العلمية مثل علم الكون تقوض في واقع الأمر منظومة العقيدة الإسلامية. ووفقًا للفيلسوف الإسلامي عثمان بكر، تتعرض العلوم للهجوم على اعتبار أنها "تسعى إلى تفسير الظواهر الطبيعية من دون اللجوء إلى أسباب روحانية أو ميتافيزيقية، بل استنادًا إلى الأسباب الطبيعية أو المادية وحدها".

الحق أن بكر مصيب تمامًا. فالسعي إلى تفسير الظواهر الطبيعية من دون اللجوء إلى الميتافيزيقا هو على وجه التحديد وظيفة العلم. ولكن من الصعب أن نفكر في دفاع عن العلم أفضل من ذلك الذي عَرَضه قبل ألف عام تقريبًا العالم الموسوعي المسلم أبو ريحان البيروني. فقد كتب البيروني: "إنها المعرفة، في عموم الأمر، التي لا يسعى إليها إلا الإنسان، والتي لا يكون السعي إليها إلا في



سبيل المعرفة ذاتها، لأن اكتسابها مُبهج حقًّا، فهي ليست كغيرها من الملذات المرغوبة من مساعٍ أخرى. ولن يتسنى لنا جلب الخير ودفع الشر إلا عن طريق المعرفة".

وما يدعو إلى التفاؤل أن عددًا متزايدًا من المسلمين اليوم يسلمون بهذا ويقرونه. وليس من المستغرب في ظل التوترات والاستقطاب بين العالم الإسلامي والغرب أن يشعر كثيرون بالسخط عندما يتهمون بأنهم غير مجهزين ثقافيًّا أو فكريًّا لاكتساب القدرة التنافسية في مجالات العلوم والتكنولوجيا. والواقع أن هذا هو السبب الذي يدفع الحكومات في مختلف أنحاء العالم الإسلامي إلى زيادة إنفاقها بشكل حاد على البحث والتطوير.

بيد أن التصدي للمشكلة بالاستعانة بالمال وحده ليس الدواء لكل العلل. لا شك أن العلماء يحتاجون إلى التمويل الكافي، ولكن المنافسة على المستوى العالمي تستلزم توفير ما هو أكثر من المعدات اللامعة الأحدث فحسب؛ بل تحتاج البنية الأساسية للبيئة البحثية بالكامل إلى المعالجة. ولا يعني هذا ضمان فهم الفنيين في المختبرات البحثية لكيفية استخدام وصيانة المعدات فحسب، بل يعني أيضًا ـ وهو الأمر الأكثر أهمية بمراحل ـ رعاية وحضانة الحرية الفكرية، والميل إلى الشك، وشجاعة طرح الأسئلة غير التقليدية المخالفة للإجماع، التي يقوم عليها التقدم العلمي.

وإذا كان للعالم الإسلامي أن يعود مركزًا للإبداع كما كان في سابق عهده، فمن المفيد أن نتذكر العصر الذهبي للعلوم العربية، الذي امتد من القرن الثامن إلى القرن الخامس عشر الميلادي. على سبيل المثال، يصادف عام 2021 مرور ألف عام منذ نُشر كتاب المناظر للحسن بن الهيثم، وهو واحد من أهم النصوص في تاريخ العلم. والواقع أن عمل ابن الهيثم، الذي كُتب قبل ميلاد إسحاق نيوتن بأكثر من ست مئة عام، يُعَد على نطاق واسع أحد الأمثلة المبكرة للمنهج العلمي الحديث.

ومن أشهر مراكز الإبداع الفكري في ذلك العصر كان بيت الحكمة في بغداد، الذي كان آنذاك المستودع الأكبر للكتب في العالم. وقد يتشاحن المؤرخون حول ما إذا كان لهذه الأكاديمية وجود حقيقي والوظيفة التي كانت تؤديها؛ ولكن مثل هذه المجادلات ضئيلة الأهمية مقارنة بالقوة الرمزية التي لا تزال تحتفظ بها هذه الذكرى في العالم الإسلامي.

فعندما يتحدث قادة دول الخليج عن رؤاهم حول إنشاء بيت حكمة جديد بمليارات الدولارات، فهم يريدون إعادة الحياة إلى روح البحث الحر التي ضاعت في خضم الثقافة الإسلامية والتي باتت الحاجة إلى استردادها شديدة الإلحاح.

بيد أن تحقيق هذه الغاية لا زال يتطلب التغلب على تحديات بالغة المشقة. ذلك أن العديد من البلدان تكرس حصة ضخمة إلى حد غير عادي من التمويل البحثي للتكنولوجيا العسكرية، وهي الظاهرة التي تحركها عوامل جيوسياسية والمآسي التي تتوالى فصولها في الشرق الأوسط، وليس التعطش إلى المعرفة المحضة في حد ذاتها. فهناك أمور أكثر إلحاحًا من البحوث الأساسية والإبداع تشغل أذهان ألمع العلماء والمهندسين الشباب في سوريا اليوم، على سبيل المثال. والواقع أن قلة من سكان العالم العربي قد ينظرون إلى التقدم في التكنولوجيا النووية الإيرانية بنفس القدر من الاتزان والرصانة الذي ينظرون به إلى التطورات في صناعة البرمجيات في ماليزيا.

ولكن من الأهمية بمكان مع ذلك أن ندرك كم الإسهامات التي تستطيع البلدان الإسلامية أن تقدمها للبشرية بالعودة مرة أخرى إلى رعاية روح الفضول التي تدفع عجلة البحث العملي ـ سواء كان ذلك من قبيل التأمل في أعاجيب الخلق الإلهي أو لمجرد محاولة فهم الأسباب وراء كون الأشياء على ما هي عليه من حال.

المصدر:

Project Syndicate

علمـاء يطورون أصغـر محرك في العالم



مروحية صغيرة جدًا تستخدم كاميرا رقمية بتقنية النانو (أسوشيتد برس)

طور العلماء في جامعة كامبريدج البريطانية أصغر محرك مجهري (نانوي) بالعالم له القدرة على قيادة الروبوتات النانوية بما فيها الروبوتات الطبية، التي يمكنها السفر خلال جسم الإنسان.

ويتألف النموذج الأصلي للجهاز المعروف باسم النملة من كرات ذهبية نانوية مع هلام خاص من البوليمر (مركب كيميائي)، ويولد قوة دافعة على نطاق نانوي أكبر مئة مرة لكل وحدة وزن من أي محرك أو قوة عضلية مألوفة.

ويعمل "المحرك النملة" من خلال ردود الفعل الجسدية بدلاً من المواد الكيميائية، ويحتوي على جزيئات نانوية من الذهب، وزن الواحدة منها نحو 0.06 ميكرون، أو واحد من الألف من قطر شعرة الإنسان، مع البوليمر الهلامي الشكل المسمى بنيبام (pNIPAM).

وعندما ترتفع درجة الحرارة فوق الدرجة الحرجة 32- مئوية- تتماسك جزيئات الذهب بإحكام مع البوليمر من خلال التجاذب الجزيئي، وعندما تنخفض دون الـ32 يمتص البوليمر الماء فجأة ويتمدد فتتباعد جزيئات الذهب بسرعة كالزنبرك، وتظهر التجارب أن رد الفعل قابل للانعكاس تمامًا وبسرعة.

وبإمكان المحرك قيادة روبوت نانوي عبر سلسلة من الضربات المكبسية كما في محرك السيارة، لكن على نطاق متناه في الصغر مليارات المرات، ويقول العلماء إن تلك الفكرة يمكن أن تدعم مجموعة كبيرة من التصاميم المستقبلية.

المصدر : فاينتشال تايمز

علمـاء يبتكرون أطلسًا للدماغ

أطلس للدماغ يوضح انتظام الكلمات بالمخ (الصورة لألكسندر هوث من جامعة كاليفورنيا/غارديان)



ابتكر علماء الأعصاب في جامعة كاليفورنيا بيركلي الأمريكية "أطلسًا للدماغ" يظهر كيفية انتظام الكلمات في مناطق المخ المختلفة، ويعرض الأطلس بألوان قوس قزح كيف يمكن تجميع الكلمات الفردية والأفكار التي تنقلها معًا في كل من المادة البيضاء.

ويوضح الأطلس كيف يمكن لتقنية تصوير الدماغ الحديثة تغيير معرفتنا لطريقة أداء المخ لبعض المهام الأكثر أهمية، ومع المزيد من التقدم يمكن للتكنولوجيا أن يكون لها تأثير عميق على الطب والمجالات الأخرى.

ويقول كبير معدي الدراسة: إن هذا النهج يمكن استخدامه لفك شفرة المعلومات بشأن ماهية الكلمات التي يسمعها أو يقرؤها، أو حتى يفكر فيها شخص ما، وإحدى الفوائد المحتملة لهذا النهج قد تكون أداة لفك ترميز اللغة يمكن أن تسمح للشخص المصاب بالخرس بسبب مرض عصبي حركي، أو ما تعرف بمتلازمة المتحبس بالتحدث من خلال جهاز الحاسوب.

ولإنشاء هذا الأطلس سجل العلماء نشاط المخ لبعض الأشخاص في أثناء الاستماع لقصص قرئت بصوت مرتفع في أحد البرامج الإذاعية، وبعد ذلك طابقوا نصوص القصص مع بيانات نشاط المخ لإظهار كيفية تحفيز مجموعات الكلمات ذات الصلة للاستجابات العصبية في خمسين ألف إلى ثمانين ألف بقعة بحجم البازلاء في جميع أنحاء قشرة الدماغ.

ويوضح الأطلس كيف تستخدم الكلمات والمصطلحات ذات الصلة نفس مناطق الدماغ، وعلى سبيل المثال، الجانب الأيسر من الدماغ - فوق الأذن- هو إحدى المناطق الصغيرة التي تمثل كلمات مثل "الضحية"، ونفس المنطقة تستجيب لكلمات مثل قتل وأدان واعترف، وعلى الجانب الأيمن للمخ - قريبًا من أعلى الرأس- تنشط إحدى بقع المخ بكلمات مثل زوجة وزوج وأطفال وآباء.

وباستخدام هذا الأطلس يستطيع الباحثون الآن تجميع شبكات الدماغ التي تمثل المفاهيم العشوائية المختلفة.

المصدر : غارديان

تقنيات تحدد مستقبل الإنسان خلال العقد القادم

في كتابه الصادر عام 2005، تحدث الكاتب والمخترع الأمريكي راي كورزيل عن تصوراته لمستقبل التقنية مؤكدًا أن الفائدة الحقيقية لا تكمن بالوصول لتطبيقات أو أجهزة ذكية أفضل، بل بتحقيق ثورات مهمة في مجالات مثل علم الجينوم وتقنية النانو وصناعة الروبوتات التي شهدت قفزات جيدة خلال الأعوام الماضية، ومن المنتظر أن يثبت العقد القادم ما إذا كانت تصورات كورزيل في محلها أم لا.



الجينوم والنانو والروبوتات ثلاث تقنيات شهدت تطورات متزايدة خلال السنوات الماضية (الأوروبية)

علم الجينوم

خلال السنوات الماضية، تمكن مهندسو وادي السيليكون من بناء أنظمة حاسوبية بالغة التقدم، الأمر الذي ساهم بتمكين العلماء من كشف غموض أكثر الألغاز تعقيدًا، وهو "الشيفرة الجينية" الحقل الجديد بعلم الجينوم الذي يعد بفوائد جمة.

إن من شأن التمكن من التعامل مع الشيفرات الجينية أن يجلب إمكانات كبيرة أهمها إيجاد حلول لمرض السرطان حيث يساهم تشكيل خرائط جينية للسرطان في تفعيل وابتكار علاجات جديدة مستندة إلى التركيب الجيني للمرض، وليس فقط على مكان وجوده داخل الجسم.



صورة مكبرة 15 ألف مرة لخلية بكتيرية تضم 473 جينا فقط من ضمنها 149 جينًا غير معروف الوظيفة (أسوشيتد برس)

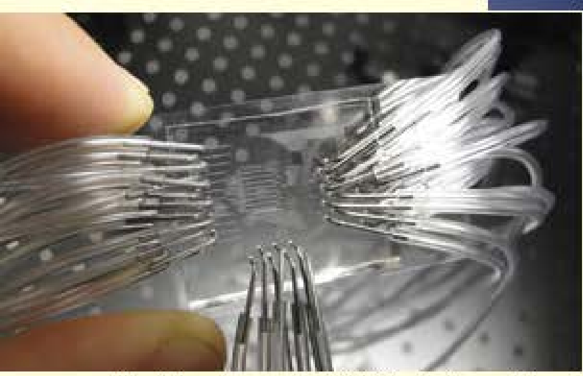
وتسمح تقنية جديدة تدعى "كريسبر" للعلماء بتعديل سلاسل الحمض النووي، مما قد يمكنهم على سبيل المثال من تعطيل تأثير فيروس نقص المناعة البشرية، والتعامل مع أمراض متنوعة مثل مرض التصلب العصبي المتعدد.

وما يزال علم الجينوم في بداياته الأولى، إلا أنه ينتظر منه أن يشهد تقدمًا مذهلاً خلال عقد من الزمن، بالشكل الذي من شأنه أن يغير وجهة نظر الإنسان حول الأمراض والقضايا التي اعتبر التعامل معها مستحيلاً.

تقنية النانو

تسمح تقنية النانو بالوصول إلى الكثير من المواد الفيزيائية الجديدة، مثل "النقاط الكمية" التي من شأنها إحداث ثورة في عالم الأجهزة الكهربائية، لتساهم بابتكار حواسيب أكثر فعالية وأجهزة تلفاز أرخص تكلفة وأعلى دقة، على سبيل المثال.

ويعد "الغرافين" أحد منتجات تقنية النانو، ويمكن باستخدامه في الصناعة إحداث تغيرات ثورية في مختلف المنتجات، وذلك نظرًا لخواصه الاستثنائية، كالوزن المنخفض جدًا، والمتانة العالية، مما يجعله مثاليًا للاستخدام في صناعة الأطراف الصناعية، والأسلاك الناقلة الفائقة من بين عشرات الصناعات الأخرى.



تقنية النانو تفتح الباب واسعًا أمام العديد من الصناعات مثل الأطراف الصناعية والموصلات الفائقة (الأوروبية)

وتفتح تقنية النانو الباب نحو ظهور ابتكارات مستقبلية لا يمكن التنبؤ بها، وينتظر أن تساهم بإحداث نقلات نوعية مهمة في مجالات متنوعة خلال عقد من الزمن.

الروبوتات

تحقق الروبوتات هذه الأيام انتشارًا متسارعًا في حقول متنوعة، حيث أصبح الحصول عليها في متناول الكثيرين، فمثلاً، يعد الروبوت "باكستر" رخيصًا بالشكل الذي يسمح للشركات الصغيرة بشرائه، وآمنا ليعمل إلى جوار الإنسان.

كما ظهرت روبوتات متنوعة يمكن الاعتماد عليها في الأعمال المنزلية، وانتشرت الطائرات المسيرة، التي أصبحت في متناول الجميع، وحظيت بتطبيقات كثيرة للغاية.



الروبوتات باتت تعمل جنبًا إلى جنب مع الإنسان بالعديد من الصناعات (رويترز)

ولذلك تعد الروبوتات جزءًا أساسيًا يعول عليه في تحديد مستقبل التقنية، بل والإنسان خلال الأعوام القادمة، على الرغم من الحقبة الزمنية الطويلة نوعًا ما، التي يستغرقها تطوير الروبوتات.

وفي الوقت الذي يرى فيه البعض أن التقنيات الرقمية الحالية تشكل ثورة في تاريخ البشرية، فإن الثورة التقنية الحقيقية تكمن بالاستخدام الصحيح للتقنيات المذكورة والتي من شأنها إحداث تغييرات فعلية وقفزات كبيرة في مستقبل البشرية.

المصدر: البوابة العربية للأخبار التقنية